

الكتاب العربي السعودي ٢

محمد عمر توفيق

من ذكريات مسافر.!

الطبعة الأولى
١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م

بسم الله الرحمن الرحيم



النـاشـر
تهـامـة
جـدة - المملكة العربية السعودية
ص.ب ٥٤٥٥ - هاتف ٤٠٠٠٠



قصة الذكريات

فى عام ١٣٧٩ هـ زرت « أسمرا » وأمضيت فيها نحو أسبوعين للراحة ولاستطلاع حركة التجارة ، فقد كانت أسواقنا تتعامل معها وتستورد شيئا من انتاجها ومن مستورداتها . . وكنت قد أخذت فى أسباب التجارة فور احالتى للتقاعد من ديوان نائب جلالة الملك فى الحجاز حينذاك .

وكانت جريدة (البلاد السعودية) قد اندمجت هى ومجلة (عرفات) فى كيان جديد أطلق عليه اسم (البلاد) وتولى رئاسة تحريرها الصديق المكافح حسن قزاز ، أحد الشريكين فى الكيان الجديد . . أما الشريك الاخر فانه شركة الطبع والنشر التى كان يملك معظمها محمد سرور الصبان . . يرحمه الله .

ولقد نجح رئيس التحرير فى تطوير الصحيفة ، وفى مضمار السبق الصحفى ، والتف حوله نفر من الجيل الجديد ، فى مقدمتهم السيد عبد الله الجفرى ، وهو اليوم كاتب فى مقدمة الصفوف . .

ومنذ عدت من « أسمرا » أخذ يستدرجنى بعامل الصداقة التى نشأت بيننا لنشر كلمات عرف أننى كتبتها عن « أسمرا » على أن رغبة الكاتب فى النشر والاسم اللامع شيء مفروغ منه ، الا اذا ساء المزاج أيا كان اختلاف مستويات الموهبة . . واصطناعها . . ومدى نجاح أو فشل انتاجها على أى حال !

وهكذا ظهرت (أيام فى أسمرا) على صفحات (البلاد) فى حلقات متسلسلة . .

ولقد عدت منذ حين الى مقالات كتبتها ونشرتها الصحف فيما مضى . . وأخذت فى جمعها وتنسيقها ، ومن جملتها (أيام فى أسمرا) وتخيلت نشرها مرة أخرى فى شكل كتيب مستقل ، ثم ترددت ، فلقد مضى عليها نحو عشرين عاما . . وكانت عاصمة « أريتريا » مرتادا للمصطافين من كل صوب ، لما تنعم به من جو رقيق فى صيفها البارد ، وشتائها الذى تتساقط الامطار فيه ، ومن معظم وسائل الراحة . . ومتاع الحياة . .

واليوم لا أدرى ماصار أمرها اليه بعد الصراع المرير الذى نشب ومازال فيها وحواليها بين الطغاة وطلاب التحرر من قبضتهم ، وان كنت أتوقع أنها صارت الى خراب أو الى ما يشبه الخراب ، فكيف ينشر عنها مالا يمت الى حاضرها الا بأضعف الأسباب ؟

واذا كانت صفحات الكتيب تروى وتؤرخ وقائع الماضى ، سواء ظهرت فيه أم بعده ، فان ماتحدثت عنه شيء من انطباعاتى خلال (أيام فى أسمرا) فما احسبها صالحة للنشر باسم التاريخ الا بتسامح كبير . .

ولكن الصديق محمد سعيد طيب ـ وهو من أفذاذ الجيل الجديد وان لم يكن من محترفى النشر أو هواته ـ سألنى أن تتولى (مؤسسة تهامة) التى يديرها نشر (أيام فى أسمرا) . .

ثم استطرد لأيام أخرى قضيتها فى « بلاد المارك والقولدر » وتحدثت عن انطباعاتى فيها أو معظمها على صفحات (البلاد) فى باب « اليوميات » أو فى باب (ذكرى) وكان هذا بعد اندماجى فى أسرة تحرير (البلاد) فى أواخر عام ١٣٧٩ هـ وبمناسبة أول خط جوى افتتحته « شركة لوفت هانزا » بين الظهران وهامبورج عبر القاهرة ، وكنت أحد المدعوين منها الى افتتاح هذا الخط .

ويصدق عليها ما يصدق على (أيام فى أسمرا) من حيث أنها تصور لمحات مضت وان كان واقع الحياة بعدها قد تطور هناك الى الاعلى بعكس واقعها فى « أسمرا » .

كما استطرد الصديق الطيب الى ما نشرته بعد ذلك وفى الآونة الاخيرة ـ الى ماقبل نحو عام ـ من ذكريات مسافر هو بين الغرب والشرق منذ حين كما يقول الشاعر ابن زريق :

ما آب من سفر الا وأزّقه | رأى الى سفر بالبين يجمعه
كأنه وهو فى حل ومرتحل | موكل بفضاء الله يذرعه

واقترح الطيب نشرها جميعا فى كتاب موحد ، وأعجبنى الاقتراح رغم ماقد يقال عن فوات الوقت ، مما يصدق على نظائرها ، أو عن تفاهة الذكريات !

واقتضى ذلك جهدا طويلا فى مراجعتها وجمع بعضها الى بعضها وترتيبها على نحو قد يختلف عما سبق أن ظهرت منشورة فيه . . ثم ان أخطاء الطباعة التى هى من أدواء الصحافة وضعتنى فى حيرة أمام مفهوم بعض الالفاظ أو بعض العبارات ، فلم أجد بّدا من حذف أو استبدال كلمة أو عبارة بأخرى ، وهذا فى القليل النادر . .

أما فيما عداه فقد استبقيت الاصل كما هو ، بما فيه ماقد لا أرتضيه اليوم منذ كانت تصور رأيا أو شعورا أو واقعا مضى ، فاستبقاؤها كما هى عليه ـ باستثناء لمسات الترتيب والتغيير شكلا ولفظا فى النادر كما أسلفت ـ يضعنى فى مواجهة نفسى وأين كنت بها وفيها قبل اليوم ؟

ولقد انتهيت الى ما انتهيت اليه فى الصفحات الاتية تحت ثلاثة عناوين رئيسية هى :

(أيام فى أسمرا)
(فى بلاد المارك والفولدر)
(بين الشرق والغرب)

أما الاسم فقد جعلته آخر عنوان نشرت تحته بعض الذكريات فى مجلة (اقرأ) وجريدة (المدينة المنورة) وهو (من ذكريات مسافر) لانها فى الواقع ليست كل الذكريات بل شيئا منها ، فما يخفى صواب المبدأ القائل (ما كل ما يعلم يقال) !

وبعد فلقد طال الكلام ، وربما كان أو لم يكن بدّ منه لاعطاء فكرة عن قصة الذكريات فى ماضيها وحاضرها الجديد . . ولا يسعنى فى البداية وفى النهاية الا أن أشكر الصديق محمد سعيد طيب على ماكان من معاناته معى ، بالاضافة الى معاناة الصديق عبد الله مناع فى سبيل اخراج هذه الصفحات من تحت أنقاض الماضى ، سواء كانت تستحق أم لا تستحق كل ذلك الجهد وهذه المعاناة .

وما علىَّ أن يقال ماقد يقال نقدا لها أو تعليقا عليها ، فانها شىء مما عندى . . وحسبى ما أسلفت فى مواجهة ما يقال أو مالا يقال ! .

محمد عمر توفيق

جده فى ١/٤/١٤٠٠هـ
الموافق ١٧/٢/١٩٨٠م

من ذكريات مسافر



القِسمُ الأوّل

أُيّام في أُسمرا

- من قارة إلى قارة
- وهكذا يصنع الاستعمار
- صاحب الهجرتين
- حلم الإيطاليين
- يوم عطلة
- إذا اضطرب المزاج
- برد أُسمرا
- مصيف عالمي لو..
- كغثاء السيل
- أهل إيطاليا



من قارة إلى قارة

عندما سحبت الطائرة عجلاتها من على الارض خنقتني عبرة وأنا أتصور ترابا أحبه وأحب أن لايوارى جسمي تراب سواه ، والموت يخطر على البال في مثل دنيا الطائرة كما تخطر الحياة وحدها على البال كلما تمكن الانسان من الارض ومن التراب ! ثم لاح عن يميني شعاع الفجر وبدت الجبال كما لو كانت لثاما أخذ ينحسر عن الصبح الجميل . . وزاقني المنظر ، بل استغرقني ، فقد كان رائعا حقا يذكّر بالثغر والنحر والوجه الحلو النعسان اذا ابتسم وأماط اللثام . . غير أن أى تعبير عن صورة الفجر وعن الصور الساحرة كلها فى الكون العظيم ، لن يصورها كما هى فى احساس القلب اذا خشع واستغرقه مشهد كغروب الشمس فى البحر ، او كابتسامة الفجر التى كانت تطل من وراء الجبال فى الافق البعيد . . ثم استوت الطائرة على البحـر . . واستدار المشرق الى يسارى وقد انحسر اللثام كله عن الصبح الجميل . . ولاح قرص الشمس فى لون أزرق شهى ، كلون البحر ، يتموج كالمرآة كلما اشتعلت وهى ترتفع فى الأفق لاجت[1] فى سحرها العيون . . وأطل سناها باردا رقيقا يمسح رؤوس الجبال بشعاع فيه لون الخجل . . والذهب وبَرَكَةُ الدفء والحنان . . وكنا نفراً قليلا فى الطائرة فى مقدمتنا سفير الحبشة ، وكنت أحمل اليه توصية من صديـق حبيـب ، جاءت فى اللحظات الأخيرة قبل سفرى من جدة ، فاذا هو لحسن الحظ فى نفس الطائرة . . الأمر الذى شعرت معه بالطمأنينه ، وأنا فى طريقى ـ لأول مرة ـ الى « أسمرا » ولم أعَنِّ نفسى كثيرا بمتابعة ما حولى . . وأخذت أطالع ، وأقرأ ، وأعود الى البحر ممتدا

(١) لاج يلوج لوجا الشيء : اداره فى فيه

تحتنا ، كما لو لم يعدْ فى الدنيا شىء الا الطائرة . . والبحر . . وهذه السحب المبعثرة التى تلوح بيننا وبين البحر فى شكل جبال من القطن الأبيض ، مبعثرة كيفما اتفق . وارتفعت الشمس فى هذه الأثناء . . واستغرقتنى مطالعاتى . . غير أن أية حركة تتحركها الطائرة تبدو مخيفة ، ولو كانت تافهة كحركة « المطب » أو كصوت (المْوتور) ان تَقَطَّعَ أحيانا . . وعندما نظرت لم أعد أرى البحر . . لقد أصبحنا فى سماء افريقيا . . وانتقلنا فى ثوان . . من قارة ، . الى قارة . .

وبدت الجبال تحتنا شهباء . . وسوداء . . الا أنها جرداء . . فى شكل بساط كبير ، تسير الطائرة فوقه كما لو كانت أقل كثيرا من نملة !

ولاحت مخططات على البعد . . ربما كانت قرية على هامش الدنيا فى ذلك البساط الكبير . .

وسألت المضيف السعودى :

ـ كم يبقى على « أسمرا » ؟

فقال : ساعة الا عشر دقائق ..

وبلعت ريقى ، فقد كنت أتصور المسافة أقل كثيرا من ذلك . . غير أن أرياف الحبشة أخذت تلوح تحتنا وحوالينا . . ثم انحرفت الطائرة فى اتجاه مشرق الشمس . . ثم أضاءت علامة التدخين بالنور الأحمر ، وقبل الموعد الذى حدده المضيف أخذت تهبط الطائرة فيما يشبه الخلاء حتى استقرت فى مطار « أسمرا » بعد ساعتين من مطارنا فى « جدة »

صديق الرحلة

كان مطارا هادئا يحتل صدره « بوفيه » ضخم . . وقسم الجوازات أولا . . ثم الجمرك . . فى ساحة واحدة لاتكلف المسافر عناء التخبط من جهة الى أخرى فى عالم المطار . . غير أنها كانت ساحة محدودة ربما ارتبكت كثيرا لو اتسعت حركة السفر

من . . والى أسمرا . . رغم النشاط الذى كان باديا على الموظفين والموظفات فى دوائر المطار . وتفضل السفير الحبشى فسهل مهمتى . . وودعته شاكرا . . ووقفت فى ساحة المطار الخلفية أنتظر من سيحملنى الى أسمرا . . وكان قد تفضل فأبرق اليه صديق حبيب آخر ليلقانى فى المطار . . وتصورت وأنا أتامله باجمال سريع ملامح بعض من عرفت فيهم خفة الحركة والنشاط ، مذ بدا لى مربوع القامة كأنما تغطس رقبته ، فجأة ، بين كتفيه . . ثم تطفو . . وهو يسبح هنا وهناك وعلى ملامحه شيء من الغموض ، فلم أتبينها على وجه التحديد . . غير أن فى عينيه بريقا كالذى يشع . . أحيانا . . فى عيون الأذكياء من أبناء حضرموت . . !

وكانت شمس الضحى دافئة لذيذة بعد البرد تحت سقف المطار ، ولهذا لم يثقل انتظارى . . والمطار حوالىَّ كأنما يسترخى فى هدوء . .

وكان غير بعيد عنى شاب يقرأ صحيفة ليست عربية ، تحت شجرة طويلة كالأشجار التى هناك . . وفضاء جميل يلذ فيه التهويم . .

ومضينا أنا وصديق الرحلة . . وتبادلنا الكلام . . والتعارف ، وما حوالى يشغلنى عن الكلام ، وعن الاصغاء . . الا شكلا فقط . .

ثم أخذ يحدثنى عن أسمرا ، وعن مستقبلى فيها . . ابتداء من الأهم . . وهو السكن . . وأنا بينه وبين تأملاتى اذ أقبلت سيارة كالمصيبة ! وظننت أن محدثى قد استغرقه الكلام ، فلم يأخذ يمينه ، ليترك طريق المصيبة . . وأقبلت فعلا وَبَدى أنها ستركب السياره التى كنا فيها كما لو كانت خنفساء ، فنزلنا فى خط اليسار بقيادة محدثى . .

وكدت أصرخ فيه :

ـ رحنا فى داهية . . حتما

وكدت أرتكب أى عمل جنونى وأنا أتخيل صديق الرحلة معتوها . . أو (قرفانا) من الحياة . . عندما مرت السيارة الضخمة . . على يميننا أيضا ، وحينئذ تذكرت ـ وأنا أستعيد رباطة الجأش ! ـ قاعدة خط السير على الشمال ، المعمول به فى انجلترا . . وعرفت ـ بعد تعقيبات محدثى ـ انها القاعدة فى أسمرا . . وإن كان هذا لم يمنع استفزاز أعصابى كلما أقبلت السيارة الثانية ، والرابعة ، والعاشرة فقد كنت أتصور الكارثة . . وأنها ستعانقنا حتما فى خط اليسار ... لقد كان السير أيام إيطاليا فى الحبشة على القاعدة الشائعة . . ثم جاءت انجلترا . . وذهبت . . ولكن قاعدة السير فيها هى التى عاشت فى أسمرا !

البحث عن مأوى

وواصل محدثى كلامه من جديد عن مشكلة السكن ، وهو يلوِّح بأجوره الضخمة فى الدرجة الاولى من « الأوتيلات » وبأنها خمسة عشر دولارا حبشيا فى اليوم . . أما المتوسطة فان الأجر فيها على قدر المشقة . . فى حدود عشرة دولارات . . ثم تبدأ الدرجة الثالثة نزولا الى الحد الادنى . . ثلاثة دولارات . . ولم أتخذ رأيا فى الموضوع عندما اقترح هو السكن المستقل خارج « الأوتيلات » بأجر وسط ، وضمان للراحة يفوق هذا الضمان فى الدرجة المتوسطة منها والعليا ، مذ كنت ـ فيما لاح لمحدثى ـ بادى الوجاهة . . بين مشلح من الوبر طال عمره عندى فيما يشبه مهمة « البطانية » عند اللزوم كالذى كان وأنا أتقى به البرد فى سيارة صديق الرحلة . . وأيدت اقتراحه فى الحال . . وكان الوقت ضحى ونحن نجتاز شوارع هادئة فى أسمرا ، وخيل اليَّ ، وأنا ألقى عليها نظرات عابرة ، أننى أبحث سدى عن شوارع أخرى تضج فيها الحياة . . ولم يطل تفكيرى وقد بلغنا البيت الذى اقترحه محدثى لسكناى . . بل رضيته بلا تردد طويل . .

أمير وأبيض

ثم لم أتردد فى الذهاب الى السوق بملابسى العربية ، فقد لاحظت أن الحالة ربما شجعت على الخروج فى أية ملابس يراها المزاج ! غير أننى اكتشفت انها ميزتنى عن الآخرين باهتمامات خاصة من بعض المارة وطلاب الحاجة كلما رأونى بين المشلح والعقال ! . . ان هذا الزى قد يصحبه ظل الامارة فى الخارج بشكل عجيب . . خيل الىَّ أننى موضوع كل (رطن) وكل ملاحظة تبدو . . من المارة على اختلاف غاياتهم ، ومن رواد المكتب الذى كنت فيه . . مكتب صديق الرحلة . . بعضهم ـ كما يلوح ـ يتفقدنى من الرأس الى القدم باصرار . . وبعضهم يكاد يستجوبنى فى شكل : من أنت ؟ ويتصور مقدار الثروة التى عندى . . وكيف هبطت علىَّ ؟ ثم أصبحْتُ موضوع السؤال والرجاء من بعضهم بالحاح . . وجاء ماسحو الأحذية . . تماما كما لو كنت فى « الأريزونا » أو « الأوبرا » لولا أنهم هنا فى « أسمرا » صغار السن . . كلون الفلفل اذ انسجم فى « مايوه » الى منتصف الفخذ . . وعلى الصدر مايشبه « الصديريه » القصيرة ، كما لو كان الجو هو الأسد أو السنبلة . . فى أعماق « جياد » ! . . وألقى أحدهم عقب سيجارة ، فلقطهُ الآخر بمنتهى الثبات . . وكان الشارع « بلديا » . . الوصف الذى يطلق عادة لتمييز الشوارع . . او الحالات الراقية . . عن نظائرها . . فى البلاد التى امتحنت بالاستعمار . . وثقل انتظارى فى الشارع البلدى . . بعد أن خيل الىّ أننى ربما كنت فيه الأبيض رقم ١ .

وهكذا عدت أدراجى ، لتقرير مصيرى فى المأوى الجديد . . وراقنى ـ وأنا اتأمل ملامح الشارع بايجاز ـ أننى أسكن الى جوار مقر مشهور باسم « مكتب الجالية العربية » كأنما اشعرنى ذلك بالطمأنينة إذا صح أننى الأبيض الوحيد فى المنطقة ، ولم أنظم وضعيتى فى البيت الجديد فقد كنت متعبا . .

وعندما انصرفت ظهرا لتناول الغذاء فى ضيافة صديق الرحلة ، ارتديت « البدلة » باسم دفع الفضول عنى قدر الامكان . . وكان غذاء طيبا كريما ، الا أننى لم أذق

بعض أصنافه مع الأسف ، مذ عرفت أن ماهو عندهم بارد ـ أى بدون شطة ـ يلوح أكثر من « الشطة » فى فمى ، فكيف بالذى فيه « شطة » ؟ . . وكانت جلسة هادئة بين محدثى واخوته ، وأبيهم . . وصديق لهم . . كانوا من الجالية العربية فى أسمرا . . وينضوى تحت هذا الاسم كل من هو عربى من حضرموت أو من اليمن . . أو غيرهما . . وان كان من عدا الأولين قلة لاتذكر . . غير أن الطريف حقا هو أن لهجة الذين يتكلمون العربية هناك ، بما فيهم أهل الحبشة ، تشبه لهجة أهل الحجاز أو كأنما هى هى الى حد ما . .

لغة الخرس

ثم نمت مترنحا من الاعياء ، بعد ليلة السفر المبكر من جدة ، ونهار حافل بالحركة والنشاط فى أسمرا ، وبعد ألوان من الكلام . . بالاشارة كالخرس غالبا . . مع من يعايشنى سلميا فى مسكنى الجديد من أهل ايطاليا . . ومما تناوله كلام الخرس موضوع الرجل والمرأة ، وإمكان زواجى ـ لاقدر الله ـ بأربع نساء .. وخطر لى معنى الاثر الشريف الذى ورد عن كثرة النساء وقلة الرجال فى آخر الزمان ، وأبيْت إلا أن اترجم هذا المعنى ، بلغة الخرس ، على حبات الزيتون ، فقد حجزت بعضها الأقل عن الأكثر .. وقلت هذا ـ أى الأكثر ـ أنتن . . وهذا ـ أى الأقل ـ نحن . . وبقسمة المجموع على المجموع ، كانت النتيجة أربعا من الأكثر لكل واحدة من الأقل ، وربما فاض العدد بعد ذلك ، وظل الفائض بدون رجال ! فطبيعى أن يباح ـ باشتراطاته ـ زواج أحدنا بأربع نساء . . أليس هذا سترا طيبا يكفى المرأة ـ على الأقل ـ شر الهوان ؟ ! ورغم أن النوافذ كانت مُحْكمة القَفْل الا أن أصواتا قد ارتفعت بالغناء وكانت تنفذ اليَّ ، مع أصوات الرياح التى تزمجر من بعيد . . إنه غناء أهل الحبشة . . فيه طابع من الشعر والموسيقى . . كأنما يمضى على وتيرة واحدة تشتكى وتنوح ضد القسمة أو الحظ المظلوم . . انه غناء تعبيرى مؤثر . . أو هكذا خيل اليَّ وأنا أنام أول ليلة ، فى جو هذا الغناء ، فى « أسمرا » .

وهكذا يصنع الاستعمار

خرجت اليوم فى الضحى مع « سيوم » وهو فتى من أسمرا يتكلم العربية بدون عناء كثير .

كانت الشمس دافئة . . وما حوالى هادىء لولا وقع حوافر الخيل التى تجر عربات النقل . . وأشكال وثياب مختلفة ـ من اللون الأسود غالبا ـ تمشى لأغراضها . وكنت قد رأيت بالأمس مقر عربات التنظيف وجهازه التابع للبلدية مستقلا عنها فى ذلك المقر . . وبدى فخما رائعا ، كأية إدارة لا علاقة لها بدنيا القمائم كليا . . ولهذا لم يدهشنى ان تكون الشوارع نظيفة فى « اسمرا » الى حد بعيد .

والحق أنها ليست نظيفة فحسب ، بل وتدل على الحضارة ، وان كان السواد الأعظم الذى يدب فيها يبدو عليه شىء آخر غير الغنى بل وغير الاكتفاء . . وهكذا يصنع الاستعمار قد يصلح الأرض . . ولكنه يفسد سكان الارض . .!

وأخذت أتبين ملامح الشوارع . . والناس . . و « سيوم » يحدثنى عن رغبته فى السفر الى الحجاز ، ويؤكد لى أنه سيُسْلم اذا تحقق له عمل فى الحجاز ! . . حتى اذا بلغنا مجلس الأمس فى الشارع البلدى ، قلت لمحدثى بسرعة : أرجوك . . قال : نعم . . قلت : سأذهب مع سيوم ـ ان كنت مشغولا ـ الى أية جهة اخرى فاننى منذ أمس لم أشاهد إلا سودا فقط . وحقا لقد شعرت بما يشبه الاختناق رغم ان هذا ربما كان مؤسفا ، أو قد يجد الانسان حرجا فى ذكره . . غير أنه خيل اليَّ أننى كما لو أخذت نَفَسا طويلا وأنا أمشى فى معية سيوم الى الشارع الكبير ـ شارع الامبراطور ـ منذ أخذ يتقلب عليَّ الأبيض . . والأسود . . وما بين بين . . ويسمونه « الحمفص » . . الاسم المشهور . .

وأخذت أضرب طول الشارع فى عرضه وكتفى الى كتف سيوم ، كأنما أتقى به نظرات من بعضهم ملؤها الفضول ، واستيعاب أطرافى وملامحى . . حتى لقد يدور فى ظنى ـ اذا رطنوا ـ أننى موضوع البحث . . ربما فى شكل مؤامرة . . ولو اشترك معهم سيوم فى الرطانة . . بأسلوب من يناقشهم اذا اعترض أحدهم طريقى . . باسم البيع . . او سؤال الصدقة .

طبقة الجَهْد والكِفاح

وشغلنى تأمل محلات البيض فى الشارع الكبير . . ان فيها سودا أيضا ، غير ان البيض هم الكبار ، سادة الشارع الكبير . . وأكثرهم من ايطاليا ، ولغتهم هى السائدة ، رغم أن للأمريكيين شأنا كما تخيلت بالأمس عندما شهدنا حادث صدام كان أحد الطرفين فيه أمريكيا ..

واقتحمت مع سيوم احدى البقالات الكبرى فى الشارع الكبير فاذا أكثر المستورد فيها من ايطاليا . . وهكذا ماتزال ايطاليا تعيش أكثر من غيرها فى أسواق « أسمرا » .

وهكذا ـ ايضا ـ تلوح الاسعار غالية فيما عدا منتوجات اسمرا ، لضخامة الرسوم وفداحة الضرائب . . وهكذا ـ للمرة الاخيرة ـ تبينت أن « الشارع الكبير » وشارع « أديس ابابا » ويتفرع من « الشارع الكبير » فى اتجاهه الى المطار . . وما فى حكمهما من الشوارع ـ تبينت أنها لا تعنى غير الأجانب والايطاليين فى المقدمة ، وأن الجالية العربية تمثل الوسط التجارى الناجح فى أسمرا . وأن أهل أسمرا يمثلون ـ غالبا ـ طبقة العامل . . طبقة الجهد والكفاح المضنى مقابل أجر زهيد لايزيد على نحو دولار أو دولارين . . اى نحو ريالين أو أربعة ريالات فى اليوم . . وقد بدأوا يزاحمون للخلاص من هذه الطبقة فى طريق وعر طويل . واسترحنا ـ أنا وسيوم ـ فى « بُوفيه » مطل على « الشارع الكبير » فى اناقة واحتشام .

وغير بعيد عنا . . كان شيخان من ايطاليا فيا يبدو ، كأن بينهما مايشبه النجوى . . وشباب من ايطاليا يتحدثون بهدوء ويشربون سائلا أحمر قال لى سيوم إنَّه لفتح الشهية . . وحركتنى كلمته الى الانصراف فعدنا ادراجنا الى دنيا « السواد الاعظم »

عَلى الماشيْ

وأخذنى محدثى عصرا فى السيارة يطوف بى حول « أسمرا » ووقف يتزود بالوقود من « محطة بنزين » على « الشارع الكبير » الأمر الذى عرفت بعده أن قيمة البنزين هنا مرعبة ، منذ كانت قيمة التنكة تسعة دولارات الا قليلا من السانت . . اى نحو سبعة عشر ريالا بعملتنا . . ولهذا كانت السيارات هنا صغيرة جدا فى الغالب ، بل ان اكثر سيارات « التاكسى » بثلاث عجلات فقط ، ولا يطلق اسم السيارة الكبيرة الا على ماهو فى حجم المرسيدس ـ وماحواليه . . فى أسمرا . . كما أن عجلة القيادة فى معظم السيارات ـ الى اليمين ، مراعاة لخطة سيرها فى الشمال . . وقد أشار محدثى الى سيارة صغيرة عابرة وكان واضحا أنها موديل ١٩٣٢ ولو لم يقل ذلك . . ومع هذا كانت بادية النشاط . . وقال ان هناك غيرها من موديل ١٩٢٨ . . ومضينا من شارع لآخر من الشوارع المتمدنة . . أى التى تقابل « الشوارع البلدية » ، ولم أفحصها طويلا ، فقد كنت مشغولا بمتابعة كلام محدثى عن بعض مايصادفنا الى اليمين أو الى الشمال . . فهذه جامعة . . وهذه كنيسة . . وهذا مستشفى كان يسمى « مستشفى الملكة » ايام انجلترا . . ثم أضاف امبراطور الحبشة الى جواره مستشفى ضخما باسمه ليظل اسم الاثنين ملكيا . . وقد زال سبب الاسم القديم ومعناه ..

واخيرا . . هنا تحرق أجساد الموتى . . قلت بفزع : ومن يحرقها ؟ قال : طائفة من « الهندوكيين » عُبَّاد البقر . . قلت : أوَ لهؤلاء وجود هنا ؟ قال : نعم . . وألقيت نظرة سريعة على الأعمدة التى تشكل غرفة الحرق . . بلا سقف ولا جدران . . فى حوش الحديقة . . لا يحجبه ـ والمحرق عند مدخله ـ عن الشارع حجاب . وأخذ يشرح لى عملية الحرق . . من بدايتها الى الاحتفاظ ببقايا رماد الميت المحروق ـ للذكرى . . !

قلت : أحب أن أشهدها . . قال : ممكن . . اذا مات أحدهم وأنت هنا ، فانهم أقلية تافهة . . وتمنيت ذلك . . لأشهد سخافة الحرق ، وضلال طائفة من الناس فيها الى حد فظيع . . ومضينا فى طريقنا بين مرتفعات أسمرا وتعاريجها ، وقد اصطف الشجر على الجانبين ، وبدا الجو رقيقا يذكر بجو لبنان فوق الجبال مع فارق اللون بين أهل الجبال .. وهو فارق لا أهمية له مطلقا لولا أحكام الألفة أو المزاج ، ومررنا بأكواخ مستديرة تكاد تتلاصق فى بعضها . . وعليها طابع الفقر . . والتراب . . وقال صديق الرحلة : انها تمثل الوسط القديم فى أسمرا قبل الاستعمار ، فقد كان هذا حالها تقريبا ، ولم تكن بلدا معمورا كما هى الآن الا بعد الاستعمار الذى وجدها كالمرعى الخام . . ثم أصلح ماوسعه ومضى بعد أن طرده الاستعمار الجديد . . ثم مضى أيضا . . ولم يكمل حديثه ، فقد أقبلت علينا موجة برد . . فى شكل سحب هوجاء ، كغبار الثلج ، بين مرتفعات أسمرا . . وأصررت على أن نعود بعد اصرار محدثى على أن نمضى رغم البرد والضباب ـ ليرينى بدائع أسمرا . . وتذكرت جو الروايات ونحن نصطلى نار الموقد الذى أشعلته « أدْرِيَانَا » . وعدنا الى الكلام مرة أخرى بلغة الخرس . . اخْتَلِسها مرغما ، من قلمى اذا كتبت ، أو كتابى اذا قرأت . . حتى نمت كالأمس ، فى جو موسيقى أهل أسمرا . . وطربهم . . فى وتيرة واحدة ملؤها الشكوى ودمع أو نواح المظلوم .

صاحب الهجرتين

خرجت وحدى بلا « سيوم » . . وتفحصت الشارع جيدا لأعرف مكانى فيه ، حتى انتهيت الى المكتب المعتاد فى الشارع البلدى ثم زرنا سواه فى شارع بلدى آخر تملؤه رائحة التجارة . . وأبناء حضرموت . .

وذهبنا لاجراءات الاقامة فى مكتبها المختص كالمعتاد . . ثم لم أتردد فى الذهاب الى المسجد الذى قيل لى عنه لصلاة الجمعة ، وعلى أبوابه مايشبه العراك من بعضهم على حفظ أحذية المصلين . . طمعا فى أريحية صاحب الحذاء . ! . واكتظ المسجد بالسواد الأعظم ، فى صفوف طويلة ، من الباب . . الى المحراب . . كانوا ينتظرون الصلاة خاشعين مطمئنين . . وفى يد كل منهم جزء من القرآن يأخذه ليقرأ كيفما اتفق . . حتى الأطفال الذين اندسوا بين المصلين كانوا يقرأون القرآن ، ولأصواتهم دوى كدوى النحل . . ولم يكن فى صلاة الجمعة فضول كالذى يلوح فى جهات أخرى . . غير أن الخطيب لم يسلِّم على المصلين فى مسجد أسمرا ، كان « العدل » موضوع خطبته بحماس ، وكان يضغط ـ بحماس ايضا ـ على كلمة « الاسلام » و « المسلمين » و « أعداء الدين » كلما وردت فى الخطبة . . وأعجبنى أنه قال ، وهو يتحدث عن النبى صلى الله عليه وسلم : « صاحب الهجرتين » منذ كانت هجرة أصحابه ـ رضوان الله عليهم ـ الى الحبشة ، بأمره هى الهجرة الاولى . . وكان القوم سكوتا كأن على رؤوسهم الطير . . والخطيب يعظهم بالعدل . . فى كلام عربى لا لكنة فيه ، باستثناء أخطاء نحوية قد لايسلم منها أكثر خطباء اليوم . . وانصرفت بعد الصلاة مع من لم يرقهم ان يستمعوا لواعظ بدأ وعظه مباشرة بعد الصلاة ـ الأمر الذى قد يبدو مزعجا للخشوع . .

لحمها رخيص

وكان « سيوم » فى انتظارى عند باب المسجد ، فذهبنا . . وعلى الشارع رأيت بيوتا عليها ظل الشقاء ومعناه . . وأخذ « سيوم » يحدثنى عنها . . عن قصة العار المخيف الذى يلطخ كرامة الانسان بما هو أقذر كثيرا من الوحل ، وتأبى الغواية ـ حتى على أقلام كتاب ينتمون لكرامة الفكر والانسان ـ الا أن ترحب بهذا العار ، باسم الحد من شر الزنا ، كما يفهم حماة العار ! . وكان فى غذائنا جدى صغير ربما كان أطيب وأشهى من الدجاج السمين . . وهم يبيعون مثله بكميات ليست قليلة ، وبقيمة لاتزيد على أربعة ريالات لأفخم جدى فى سن الرضاعة . . يحمله الباعة على أيديهم من الواحد . . الى الخمسة . . ثم قد لايجدون من يشتريها فى الأسواق . . فكم تظنون قيمة الجدى الكبير ؟ .

فى دنيا البيت

وكنت قد تأقلمت مع مسكنى فى هذه الأثناء ، وعرفت مايخفى على غريب فى مثل حالى أول الأمر ..

كيف أقفل الباب . . والنافذة ؟ ومتى افتحها اذا أشرقت شمس الضحى ؟ وكيف أتمدد طويلا فى « البانيو » اذا امتلأ بالماء الحار ؟ وأى « بزبوز » للحار . . أو للبارد ؟ وكنت أتخبط كثيرا بين « البزبوزين » وكثيرا ما انهال الماء البارد فجأة على جسمى . . كالقصدير . ! . وكان تحت أمرى فى البيت الجديد غرفة نوم تشرق الشمس عليها يوميا . . وغرفة استقبال . . وطعام . . فى نظام منسق رائع تحتل المدفأة أحد أركانه ، وتوقدها « ليتى » ـ الحبشية الصغيرة ـ بالحطب كلما دعا داعى البرد . . تحت أمرى قسم كامل من بيت « ادريانا » وهى امراة من « ميلانو » ذات بعل وأم فتاة عروس تعيش مع أبيها مؤقتا فى « نيروبى » . وكانت « أدريانا » تسكن غرفا ريفية منسقة فى الحديقة التى يتوسطها بيتى ! وتعيش معها « ليتى » وكلبٌ اشترطتُ قبل السكن ان لايدخل القسم الذى تحت أمرى قط . . وهررة تشكل عائلة لم أر مثلها فى دنيا الهررة ، فقد كانت مؤلفة من أب يلوح كأنه فى الستين من العمر فى حجم كلب

مراهق . . وأم تشبه اللبوة . . وبنت الكلب واللبوة التى ترضع الى الآن ، رغم أنها تجاوزت سن الحضانة وحجمها من وقت بعيد

وقد أصبحت ثقافة هذه الهرة أوربية بحكم البيئة ، فقد كانت تفهم عن « ادريانا » وعن « ليتى » ما لا تفهمه عنى بحال من الأحوال مهما تكلمت او أشرت بالعربى الفصيح . . ومنذ عرفت أننى نزيل البيت لم تعد هرة منها تدخل القسم الذى تحت أمرى إلا فى معية إحدى المرأتين . . وهكذا أصبحت أعيش ـ كما لو كنت فى بيتى ـ بمنتهى الحرية والاستقرار ، بل لقد أحدثت انقلابا فى نظام بعض الغرف ، وجعلت أكلى فى المطبخ لأنه دافىء بحكم الطبخ .

وكان الاستجمام من هدفى فى « أسمرا » وقد توفر جوه الى حد بعيد . .

أبيض وأسود

وكانت الحديقة حوالى البيت رائعة تشرف على ملتقى عدة طرقات ، وشوارع فسيحة هادئة الا من العربات . . والدراجات . . والسيارات الصغيرة دائما باستثناء سيارات الحمل الكبار . . وأشكال مختلفة من الناس والأطفال الذين يلوحون كما لو كانوا من « المطاط » وهم يتواثبون هنا وهناك على الأرض . . وملامح كثيرة فى الوجوه . . والرؤوس . . والاشكال . . وضفائر الشعر ـ بفتح الشين ـ قد انتظمت رؤوس النساء فى شكل مخططات مدهشة . وفجأة تذكرت اللون الابيض واخذت اتفقده بدون جدوى ، فقد كنت أفاجأ بالسواد الأعظم من اليمين . . والشمال . . والزوايا . . بدون حساب . . وتحديت نفسى أن أرى أبيض ولو فى عشرة التسعين ! وأضحكنى ذلك . . ورفعت راسى ، فاذا بخلقة « سيوم » يضحك أيضا من باب المجاملة وكأنه يود أن يعرف الأسباب وصارحته بالحقيقة . . وحدثته عن قصة التحدى أو الرهان الصامت فى نفسى ، على أنه لن يمر أبيض بنا فى ذلك المساء . . واشتد ضحكى وسيوم يبدو كمن يشجعنى على الرهان بسواده المصقول . . حتى جاءت « أدريانا » ووجدت صعوبة فى إعطائها فكرة عن الموضوع ، غير أنها أخذت تفهم منذ وضعت يدى على اللون الأسود فى « طفاية السجاير » وعلى اللون الابيض فى جلدها .. مع الاحترام .. وعقبت هى على ذلك بما معناه ان الايطاليين وغيرهم من الأجانب البيض ، قد نزحوا وينزحون

عن أسمرا لضعف أسباب المعيشة قلت : دائما . . انْ شاء الله . . ينزح الأجنبى المستغل . . ويتقدم المستوى الاقتصادى ولايتأخر . . وإن تمنيت فى نفسى أن لايعدم اللون الابيض فى الأسود . . ولا العكس ، فربما كان من المزعج أن لايرى الانسان الا لونا واحدا فقط . . أيا كان هذا اللون . . وكانت « ليتى » أمامنا كمن يصغى الى الحديث باطراق . . ثم قد تساهم فيه بالاشاره . . وبالكلام . . كيفما اتفق . . قلت لها : « مسلمان » ؟ اقصد هل أنت مسلمة ؟ فادارت وجهها الى اليمين . . ثم الى اليسار بهدوء واصرار معناهما . لا . . لا . . أبدا . . فسألتها عمن يبرم لها شعرها وشعر غيرها من النساء ؟ وفهمت من جوابها . ان « الكوافيرى » هو الذى يصنع ذلك . . تماما كأى « كوافيرى » فى باريس او هوليود . . كلها رؤوس . . ونساء . . وموديلات . . ولا أحد أحسن من أحد ولا لون أحسن من لون .. وسبحان من أبدع هذه الدنيا . . وهذه الألسنة والألوان . .

—□■—

حلم الايطاليين

حقا ان أسمرا بلد جميل

انها تقع فى مرتفعات وتعاريج والتواءات جبلية كثيرة ، غير أنها مرصوفة بالأسفلت فى تخطيط رائع ونظام طيب لاشواذ فيه ! .

لقد كانت حلما فى خيال الايطاليين ، والحق أنهم « أخرجوا » هذا الحلم . . اخراجا حسنا سريعا يشهد لهم بالذوق والفن والاناقة . . ولكنهم سلموا ـ كما قال الشاعر ـ ثم ودعوا . . وغربت شمسهم عن الحلم الذى ظل حيث أخرجوه على الأرض فى روعة واتقان . . ولم يهمل الارض أهلها . . بل تعهدوها بكل جهد واصلاح حتى ليبدو كأن البلدية تعتبر المدينة بيتها فعلا . . لامجرد كلام . . وأهل المدينة يساعدونها على هذا الاعتبار . . ولقد ذهبت فى بعضها على قدمى منذ الصباح . . وذهبت مع محدثى صديق الرحلة الى مابعد الغروب . وارتاحت مشاعرى كثيرا وأنا ألف وأدور بينها ، فلم يكن فيها الا مايروق الحس ، اذا استثنينا بعض المشاة ... ان طراز البيوت وحدائقها . . والعمارات . . والمحلات وطراز العمران فيها باجمال ـ يلوح طرازا منسقا لاعجرفة فيه . . عدا المنتزهات والحدائق فى شوارعها الكبيرة والصغيرة ـ لعموم الناس .

جَمَالُ الوردِ وَالتُّفَّاح

ولقد طاف بخيالى جمال الورد والتفاح فى لبنان والملامح هنا تقرب هذا الخيال لولا أن الهدوء متوفر فى أسمرا الى حد يرخى النفس والأعصاب ، ولولا أن شوارعها ربما كانت أفسح . . وأبهى ..

وخطوط الشجر على يمين وشمال الطرقات ربما اتخذت شكل الغابة فى أسمرا . .

وشىء آخر هو أن أسمرا قد لايطيب فيها مزاج عشاق الليل وهواة السهر فى دنيا

الملاهى والأضواء ، غير ان لبنان فيها ـ عدا أسباب اللهو والحياة ـ فيها شيء كالسحر . . والشعر . . وجمال الورد والتفاح . . ولكل جمال طراز ، ولكل طراز هواة الى الابد . .

حرفة عالميّة

لقد انتظرت اليوم طويلا عند ملتقى بعض الشوارع والطرقات لا لشيء الا لأن صديق الرحلة كان فى ادارة الجوازات لأمر يعنيه . وأخذت أمشى يمينا ويسارا وكيفما اتفق بعد ان تتبعنى فضول السائلين بالحاح لم يسعنى معه غير أن أضرب على ملامحى شكل الحائط ومعناه ! وربما خطر لى أن أمد يدى بالصدقة ، غير أن مجرد هذا الخاطر كان يكفى لألمح ظلا أو عدة ظلال تتحرك هنا وهناك فى انتظار القبض عليَّ متلبسا بجريمة الصدقة . وهكذا ربما كانت الصدقة فى حكم الجريمة ، وقد أصبحت الشحاذة حرفة عالمية . . فى القرن العشرين ، ومهما اختلفت أساليبها ، وبدا بعضها طرازا علميا . . أو فنيا . . أو فى منتهى الصقل ـ فانها تتفق غالبا فى النتيجة ، اذ تقضى على الشعور بالكرامة فى جماعة من الناس ، وتجر لتعاسات كثيرة فى الأمم والشعوب . .

وخلصنى من مثل هذه الأفكار ومن الانتظار ـ أن عاد محدثى ، وفى يده ايطالى ترحب ملامحه بالتعارف السريع . . وهكذا مضينا فى سيارة « انتونى » ـ من طراز « أوبل » الى مكتبه الذى كان حافلا بالنماذج والعينات . . وشربنا لديه شايا متقنا كأنما هو بقلم « كييف » حجازى كبير ! . وتحدثنا طويلا . . وراقنى أن أتصور الترجمة بيننا كما لو كانت بين قطبين من أقطاب العالم . . انها ـ ولاشك ـ فرصة للتركيز واتخاذ القرار المناسب . . ولو بالزوغان عند اللزوم ، عدا مظاهر « الجخ » فى الترجمة ان كان أحدهم ـ أى الاقطاب ـ من « الملحوسين » أو من هواة « الجخ » أو منهما معا . .

مع موسوليني

ثم . .

ثم أسلمنى صديق الرحلة الى حلاق من نابولى . . وأسلمته رأسى . وعدت مرة أخرى لدنيا الخرس . . وهى دنيا أفضلها أحيانا على دنيا الكلام . . غير أنها لاتتهيأ

كثيرا . حتى اذا جهل أحدنا لغة الآخر لم يتعذر الكلام كيفما اتفق . . وهكذا كنت مطرقا بين يدى الحلاق . . وقد ذكرتنى ملامحه بموسولينى . . وكيف جاء ومضى كأن لم يكن . . ككل طاغية مستبد ربما عاش ذكره ، ولكن فى إطار اللعنة وباسم العظة لمن أرادها والاعتبار .

غير أن الحلاق لم يدعنى أواصل خواطرى ، وأبى الا أن يسألنى عن هويتى . . بالايطالية . . وبيديه . . حتى فهمت فأجبته ثم فضلت ان « ألخمه » فى الحال بموضوع موسولينى . . ولكنه أخذ يرطن مع ايطالى آخر كان فى انتظار دوره بعدى . . وأنهى فى هذه الأثناء حلاقة رأسى كيفما اتفق .

ونفحته دولارين . . فانحنى وقال : جرات سى . . (اى شكرا) وكنت قد حفظت الجواب . . من قبل بحكم الخلطة . . فقلت وأنا أنحنى أيضا : ـ بريقو . . (اى العفو) . ثم . . ثم مضينا أنا وصديق الرحلة وشربنا قهوة رائعة بالحليب وهو يحدثنا عن ضعف السوق وكساده فى الوقت الحاضر . . أما فى الماضى فقد كانت التجارة نشيطة ، وكانت الحالة الاقتصاديةفى ازدهار وتقدم . ولم يواصل كلامه فقد أدبر النهار . .

بَيْت شعر

ومنذ وصلت أسمرا لم أسهر ليلة خارج البيت . . بل كنت أظل فيه أقرأ . . أو أكتب أو أتأمل . . نفسى . . وسيوم . . وليتىّ . . وأدريانا . . وكيف جمعتنا المقادير ؟ فيطيب لأحدهم أن يسألنى عن موضوع التأمل ، ويغلبنى الضحك وأنا أشرح لهم بالاشارة وما اتفق من الكلام ما أتامله وأفكر فيه . ثم قد يجرى ـ عفوا ـ على لسانى شىء من الشعر أومن النثر الفخم أحيانا . . كالذى حدث وأنا أنفض يدى من العشاء « وليتى » تغسل الصحون أمامى فى حوض المطبخ . . إذ قدمت اليَّ « ادريانا » صحنا آخر لأ ضرب فيه . . ولكنى قلت وأنا أضع يدى على بطنى :

امتـلأ الحـوض فقـال قَطْنِى ..:.. مهـلا رويـداً قـد مـلأت بطنى

فتراجعت أدريانا الى الوراء . . ثم سألتنى ترجمة ما قلته لها كالمعتاد . . غير اننى سرحت فى غيبوبه طويلة . . وحاولت جهدى أن أتذكر مناسبة البيت فى علم النحو . . أو اسم الشاعر الذى نظم هذا البيت العجيب . . ولكن بدون جدوى . . وكانت أدريانا قد مضت لشأنها فى هذه الأثناء . .

يوم عُطلة

اليوم هو يوم الأحد . . يوم العطلة هنا . . وفى بلاد أخرى ربما كان حقا عليها أن لا تتخذه يوم عيد او عطلة ، لولا ما يلوح من سلطان للعادة أو التقليد الشائع فى العالم ، منذ كان أصحابه هم الأكثرية ، وعندما يكون السلطان يوما لأصحاب الجمعة ، فان يوم عيدهم . . وأعيادهم كلها تسود العالم حينئذ بنفس السلطان .

اننى أستبعد أن يدرك جيلنا هذا اليوم . . غير أنه من يدرى ؟

ومضت تأملاتى فى مثل هذا الاتجاه . . كالدقات التى كنت أسمعها بانتظام ، ثم رجحت أنها دقات أجراس الكنيسة ، وأَيَّدَتْ ذلك « أدْرِيانا » وقالت انها كنيسة جماعة « ليتى » أي الاحباش . . لا الايطاليين ، فأولئك لهم كنيسة خاصة ! . وظللت أسمع هذه الدقات كل النهار على نحو ربما بدا فيه معنى التذكير الحزين بأن هذا اليوم هو يوم الكنيسة ، وفضلت أن أظل فى بيتى . . وبين كتبى . . لولا أن « أنتونى » ـ الايطالى صديق الأمس ـ جاء لزيارتى ، ومعه يمنى . . يمثلان ـ ولعل معهما آخرين ـ عدة وكالات لبعض الشركات والمصانع العالمية . . وربما افتتحوا فروعا فى جزيرة العرب . . أو غيرها ، فالمهم أن الناس عموما فى هذه الأيام يبدوأنهم فى كفاح مضن فى سبيل العيش . . كفاح يربط اليمنى بالايطالى . . وأطراف الدنيا ببعضها دون أن يكترث بأية حواجز او اعتبارات أخرى الا اعتبار المصلحة . . كفاح أعتقد أن الأجيال السابقة لاتغبطنا عليه فى القرن العشرين .!

عيد الجمعة

وبدا الشارع ـ وأنا أنظر اليه من حديقة بيتى ـ طروبا فرحان ، كالذين كانوا يدبون فيه بنشاط ومرح ، لأن اليوم يوم عطلة وعيد .

وتذكرت أننا ، نحن أصحاب يوم الجمعة ، لم يعد يبدو علينا مثل هذا المعنى ـ معنى النشاط والفرح ـ فى يوم عطلتنا ، كما يبدو على أهل عيد الاحد . . بل كأننا أبطلنا معنى العطلة تقريبا فى هذا اليوم . . حقا . . ماذا يكون لو عطَّل الناس ـ فعلا ـ فى بلادنا . . وأغلقوا حوانيتهم كليا قبل ظهر يوم الجمعة . . إن لم يكن بعدها، لنمسح عن أعصابنا غبار الحياة ، وعرقها ، بعد الكفاح المضنى فى كل ستة أيام ؟ واذا كان الموسم هو الحجة ـ بضم الحاء ـ فان البلاد التى تعطل يوم الأحد فيها مواسم كأضعاف موسمنا ، ولكن الناس هناك رتبوا حياتهم على أساس أن يوم الأحد يوم عيد ..

ثم ربما كان هذا عاملا اقتصاديا مهما فى حياتنا اذا نحن نظمناه حقا . . ماذا يكون لو عطلنا جميعا ـ وبلا استثناء ـ فى يوم الجمعة . . وجعلناه لأنفسنا . . وللأواصر التى حطمها معنى القرش والريال . . ؟ ! . ليتنا نتفق ـ ولو يوما ـ على مبدأ صحيح !

وأفقت من خواطرى هذه وقد لبست كامل « البدلة » وخرجت وحدى عصرا . . وكنت أشعر بأننى فى حاجة الى الشجاعة كلما مررت بنفر من أسمرا ، وبفضول نظراتهم ، وتعليقاتهم بعد الفضول . . فى رطان سريع . . غير أن حدائق الشوارع كانت تسترعى اهتمامى . . كاللوحة التى علقت فى كل حديقة . . وعليها بخط عربى كبير : « حافظوا على الأشجار والأزهار» عدا الحدائق الكبيرة التى يتنزه فيها عامة الناس . . وأشهد أن الناس كانوا يحافظون حقا على الأشجار والأزهار ، بل على الحدائق . . والشوارع أيضا . . وفى مقدمتهم الأطفال الصغار .

اننا مع الأسف نفتقد شيئا كهذا فى بيوتنا غالبا لافى الشوارع . . او الحدائق المنتظرة بعد عمر طويل ! .

في الكنيسة

وكانت الكنيسة التى تدق أجراسها ماثلةً أمامى . . ومنذ استقر بى الحال فى أسمرا كانت هذه الكنيسة هى العلامة التى أميز بها خط اتجاهى الى البيت . . وهكذا وجدتنى مشوقا لرؤيتها . . وكنت أجهل طريقها . . حتى تبينت أن بابها مفتوح على الشارع الكبير .. شارع الامبراطور .

وحسبت أن لدخول الكنيسة تقاليد خاصة ربما منعت مثلى من الدخول .

وكان على الدرجات التى تفضى اليها مصورون فى خدمة هواة الصور والذكريات . . فسألت أحدهم عن مدخل الكنيسة فأشار الى باب صغير ظننته أول الامر مغلقا . . وصعدت اليه درجات كثيرة اخذت تقصر بالتدريج . . حتى وصلت . . وفى أثرى سيدة على يدها طفل صغير . . ووراءها أبوه فيما يبدو ، فأفسحت الطريق ، ودخلت فى أثرهم . وانحنى الرجل عند الباب . . فى مواجهة مايبدو كالمحراب فى صدر الكنيسة . . وانحنت المرأة على الطفل ، ثم لم تطل وقفتهما . . ومضيا فى معنى كالخشوع مع الاحترام .

وكان الى اليمين فى ممر طويل ـ رجل ساكن فيما يشبه الاستغراق أو « الغفوة » فقد كانت لحيته الى صدره . . تحت أضواء خافتة ، وصور كثيرة معلقة على اليمين وفى المحراب . . صور فنية كان جوها يملؤ النفس والمكان ، لولا انها تمثل أوهام القوم .

وكانت هناك ردهة فسيحة رصت فيها مقاعد كمقاعد الدراسة المستطيلة . . فى صفوف متتالية يفصل يمينها عن شمالها ممر طويل يفضى الى المحراب الذى كان عاليا عن مستوى الارض .

وعلى المقاعد بضع نساء فى نفس الاستغراق أو الغفوة .

كنَّ أكثر من الرجال فى الكنيسة ، ولكن ـ والحق يقال ـ فى منتهى « الحشمة » وتذكرت غيرهن ، فأسفت للخطأ حيث كان يجب الصحيح ! .

وكان جوا هادئا ، وخطر لى أن أصلى ركعتين ، منذ كانت الصلاة فى الكنيسة من السُّنَّة ان لم تخنى الذاكرة . . غير أنها كانت على البلاط . . ثم كان الوقت عصرا ، مما لاتجوز فيه الصلاة الا لسبب . . ولا ادرى ان كان دخول الكنيسة سببا يبيح الصلاة فى مثل هذا الوقت ؟

ملامح

وذهبت أضرب وحدى فى الشارع الكبير . . ومحلاته مقفلة . . وقد غصت « الفاترينات » بلعب الاطفال وهدايا عيد الميلاد .. أتَوَقَّف عندها مع الآخرين ، ثم أمضى خليَّ البال من هم أية علاقة تربطنى بأى أحد فى « شارع الامبراطور » اللهم الا علاقة الانسانية . . وكانوا أناسا قليلين ينسجم كل منهم فى غرضه بهدوء .

وكانت حركة المرور عموما غير صاخبة أو مزعجة مثلها فى القاهرة ، أو بيروت . . أو فى جدة . . ربما لضعف الحال فى أسمرا ، فانها تبدو كما لو كان فيها فراغ كبير يتطلب المزيد من الناس . . والسيارات . . وأسباب الحياة .

وهكذا مضيت ، مطمئنا ، فى امتداد الشارع . . الى النهاية . . أتامل على جانبيه أكثر من طراز واحد من العمارات التى كان بعضها شاهقا . . ولكنها طرازات حلوة على العموم . . فيها شيء من كثير من الذوق والاناقة . . وكان الشارع بها وبالمحلات التى تحتها ، وبالشوارع التى تتقاطع فيه ـ شارعا واسعا . . يفصل الرائح عن الغادى . . بنفس السعة . . فى كل امتداده الطويل . . وكان نظيفا حقا كأنما هو مصقول . . وتتوفر هذه المزية فى معظم شوارع أسمرا . . فكيف وهذا هو الشارع الأول أو الكبير . . شارع الامبراطور ؟ وأسلمنى اتجاه الشارع الى مرتفع تمتد عليه قضبان السكة الحديدية التى تربط أسمرا بما عداها من الجهات .

ووراءها منظر رائع من الشجر والزرع ، وقد امتد ملء البصر فى ظلال الغروب . . وتناثرت هنا وهناك فى لوحة المنظر بيوت ريفية متواضعة كالذين كانوا يتحركون بينها من الناس . . والحيوان .

كان منظرا رائعا حقا . . آخر النهار . . ثم عدت أدراجى أضرب فى الشوارع ، وأتامل حدائق البيوت التى نسقت على اليمين والشمال . . وكأنها تشير لجهد الاستعمار الذى حقق الحلم ، ليطير منه فى الحال ، ثم يسكن البيوت قوم ، وان كانوا فقراء ، الا أنهم أهل أسمرا !

وكانت أشعة الشمس الغاربة تمسح أمامى وأنا فى طريقى الى البيت ـ أفقا ممتدا من الشجر الباسق ، يشكِّل لوحة رائعة أخرى ككل غابة . . أو فضاء ملؤه النور والتهويم فى أطراف أسمرا . .

الرعب بالموسيقى !

وبدأ شعورى بالوحدة يتحرك وقد هبط الليل . . وقريبا من بيتى قد اجتمعت حركة خُيِّلَ إليَّ أنها وطنية أول الأمر . . ثم اتضح أنه ضجيج فى شكل طبول وغناء .. كان هناك مقهى بلدى يغص بنفر كبير تدور أقداح عليهم ، وقد انسجموا فى غناء يصاحبه طبل شديد ..

كانوا فى ذروة الانسجام الموسيقى فيما يلوح .

وترددت كثيرا في أن أقتحم المقهى ، فقد كانت مع بعضهم عصى طويلة تمزج الرعب بالموسيقى ..!

إذا اضطرب المزاج

مالذى أصبح عليه مزاجى اليوم قرفان .. زاهدا .. حمقان ؟ لا أدرى ؟ غير أننى قد أصبح وأمسى هكذا فى غير أسمرا .

والحياة ـ غالبا ـ هى موضوع « النق » فى مثل هذا المزاج ، اذ تبدو كالوهم أو كالسراب مما يخدع الناس ، حتى لقد يظن احدنا اذا تحرك أو فكر وصال أو جال أنه شىء مذكور .. وأنا فى الواقع لا أدرى من أنا أو أنت على وجه التحديد ؟ حقا .. من نحن أو أنتم ؟ الماضى الذى ذهب ؟ أو المستقبل الذى ربما كان هو كل شىء ؟ أو الحاضر ؟ ولكن أى حاضر ؟

انه وهم : انه بمقدار النَفسَ .. من الصدر واليه ، فالذى يليه نَفَسٌ فى عالم الغيب .. ربما ظل فى الغيب للابد .

أو لعلىِّ هذه المجموعة الضخمة التى لا أعرف لها عددا ولا حسابا .. مما يعيش فى داخلى !

مجموعة انفعالات سريعة مدهشة يبدو أن بينها أكثر من التناقض ومن الصراع ، وكأنه لايربطها ببعضها أى شىء مطلقا الا كيانى أنا وأنت .. والكيان نفسه مجموعة أخرى ، يلوح كل شىء فيها غير الآخر شكلا ومعنى ، ولكنها جميعا محزومة فى هذا الكيس العجيب من جلد الانسان .. حقا .. من أنا .. أوأنت بين هذه « الخلطة » من المجموعات والتفاصيل ؟؟

وهكذا قد يصبح المزاج أو يمسى كما أصبحت اليوم فى أسمرا ، وقد يطيب لى فى عنفوان هذا المزاج أن أتصور « الهجولة » بين كل بلد وآخر ، فى هذه الدنيا الواسعة ، علاجا للمزاج « القرفان » غير أن صدرى يضيق وأنا أتصور روابط شتى تشد الانسان الى جهة معينة من الارض !

وقد أكْتَشِفُ فجأة .. وأنا فى مثل هذه التصورات .. أن أحوال المعدة ليست على مايرام ، وحينئذ قد أضرب عن الطعام كما حصل اليوم ، فلم أتناول الا قدرا من السوائل .

وبدأ مزاجي يرق ويهفو لمشاريع اليوم فى أسمرا .. وبدأ يخفق من جديد للحياة التى كانت ماكانت فى مزاجى قبل لحظات .

هوَايـَة المتَاعِبْ

وكان قد مضى عليَّ فى أسمرا نحو ستة أيام لم أسمع فيها مطلقا أيه أخبار ، ولم أقرأ صحفا ، وكان « الراديو » من نواقص بيتى الجديد .. وظننت أن من أسباب الهدوء وسكينة الأعصاب والنفس أن ينقطع الانسان عن أية أخبار فى الدنيا ، ليعيش فى أخبار نفسه فقط ، غير أن دائرة هذه الأخبار تتسع تدريجيا .. حتى تستوعب العالم كله كما لو كان يعنى كلا منا على حدة ، ولهذا كانت الصحف والاذاعات .. والفضول الذى نتعقب به الاخبار والمتاعب كأية هواية نمارسها ونحن نعلم وجه الضياع فيها .. كالتدخين مثلا أو « الأدب » !

وهكذا خيل الىَّ بعد أن رَقَّ المزاج أننى كمن ارتكب خطأ كبيرا فى حق نفسه والعالم الذى انقطعتُ عن أخباره ستة أيام . وبدا الامر كما لو كان خطيرا بالفعل وأنا أتصور أى طارىء ربما جد على العالم فى هذه الاثناء .. من الجائز ـ مثلا ـ أن يكون قسم من الكرة الأرضية قد طار بأكمله فى لحظة صراع بسيطة بالسلاح الجديد .. و .. ومددت لسانى وأنا أحشر نفسى فى « البدلة » واتأملها فى « المرآة » وخرجت وحدى اتأمل ما حولى بطمأنينة .. وكان لسان الحال يقول يكفى أننى فى أسمرا ، وأنها بخير ، حتى انتزعنى من أفكارى « سيوم » وقد جاء لنتصاحب كالمعتاد فى كل ضحى .

قـمَامـة أسـْمَرَا

وذهبنا للبحث عن صحف بقيادة « سيوم » غير أننا اندمجنا فى مشروع آخر ، فقد راقتنى معروضات محل كان فى طريقنا ، ولما اقتحمناه راقنى فيه من ظننته مصريا أول

الأمر .. ثم ظهر أنه يونانى أقام فى مصر من أيام الحرب العالمية الثانية .. ويقيم الآن فى أسمرا .. ثم صحبنا فى سيارة الى المكتب الذى يعمل فيه ، ودهشت ونحن فى دهليز العمارة التى صعدناها الى هذا المكتب ، لأن رجلا طويلا فى زى كزى الفرسان ، كان فى يده شيء كالبوق ينفخ فيه ، وفسر سيوم صوت هذا البوق بما معناه أنه نداء مهذب رقيق من الفارس الرشيق لسكان العمارة ، أن يرسلوا اليه القمامة .. وبدأت ترد فعلا معبأة كالبضاعة فيما يشبه الكرتون ، ويأخذها فارس آخر فى نفس الرشاقة ، وليصبها فى عربة صغيرة .. وصدقونى أن القمامة نفسها ـ فضلا عن العربة أو العمال ـ لم تكن قذرة الى هذا الحد . !

ثم .. ثم لم اجد صحفا جديدة عند بائع الصحف الذى ذهبنا اليه آخر الأمر .. وكان يمنيا .. وهو الوحيد الذى يبيع صحفا عربية فى أسمرا .

وعدت أدراجى الى البيت بطمأنينة لم يزعجها الا سؤال السائلين اذا ألحوا فى السؤال .. وقد مضى أحدهم يلح ويطاردنى فيما يشبه الخصام بالحبشى .. ولزمت الصمت .. حتى فضَّل أخيرا بعد اليأس أن يتركنى .. ولكن بعد تحديد موعد جديد للصدقة .. وقال بلغة الاستفهام التقريرى .. بكره ؟

وهززت رأسى بمعنى الموافقه على الموعد الذى هو بكره .

وسألنى آخر بعربية ضعيفة عما اذا كنت أريد شيئا ! وفهمت ما يعنيه غير أن الحاحه لم يطل كالحاح السائلين !

ذكاء الكلاب

مررت مع صديق الرحلة « وسيوم » عصرا بمعمل « مكرونة » من المعامل التى تزاحم معامل ايطاليا فى أسمرا .. وربما فى غير أسمرا ، وان كان أصحابها غالبا من الايطاليين كمعاملهم .. وجاء صاحب المعمل بقامته الفارعة ، وكلبتين فى حجم ضخم وشكل فظيع ، أو لم تهش له نفسى على الأقل .. فرجوت أن يحجزهما عنا ، فمضى بنا الى مكتبه وأقفل الباب .. غير أن الكلبتين أو أحداهما فتحت باب المكتب من مقبضه العالى ، ولم يكن سهل التناول ، ولكنه لم يستعص على ذكاء الكلاب !

وبدى على صاحب الكلبتين معنى الحب والاعجاب .. وهو يربت على كلبتيه ويرطن لها أيضا بالايطالى لئلا تبدر منهما أية بادرة مزعجة .. حتى انصرفنا وأنا أتصور الجلد الناعم الذى ربما كان مغسولا بالماء والعطر .. مصقولا كالحرير على الكلبتين !

****

ومضينا الى « محطة العربات » التى كانت ـ أيام ايطاليا فى أسمرا ـ تنقل الأحمال بين مصوع وأسمرا على أسلاك معلقة فى الجو وعلى أعمدة تمتد كل هذه المسافة الطويلة .. وقد تعطلت بعد ذلك الى اليوم .

وأخذ صديق الرحلة يحدثنى رواية عن جده أن أسمرا كانت قبل **١٩٣٥** أقل من قرية ، بحيث لم يكن يتجاوز عدد سكانها نحو مائة شخص ، حتى اذا ارتفع صوت أحدهم بالنداء سمعته أسمرا كلها التى تلوح اليوم مدينة كبيرة ذات ضواحى ومنتوجات زراعية ، ربما كان من الممكن أن تتضاعف الى ماشاء الله فى تلك الضواحى المترامية الأطراف ـ عدا مظاهر العمران والتنسيق الذى لم يشذ عنه شارع أو بيت كما رأيت فى أسمرا .

لقد اجتهدت ايطاليا كثيرا فى أن تستغل أسمرا والحبشة بأقصى ما يمكن من السرعة .

غير أنها سقطت بنفس السرعة التى تخيلتها للنجـــاح .

بَرْدُ أسمرا

خرجت الى المدينة مبكرا ، أترقب طلوع الشمس ، كمن خيل الى أنهم كانوا يترقبون طلوعها على الأسطحة المجاورة ، وفى الشارع .. وعلى رؤوسهم أغطية خفيفة يتقون بها البرد .. وهو يشبه برد الطائف اذا اشتد أو تضاعف .. غير أنه برد طرى بعامل الماء ، والشجر والزرع .. المتوفر فى أسمرا ..

فليس هو بردا مزعجا ، بل لذيذا اذا ارتفعت الشمس ، أو اذا تدثر النائم بالأغطية الثقيلة فوق السرير ، فى غرفة مقفلة ، جوها طبيعى كالتى أنام فيها ضمن ثلاث بطانيات ، والصوف فى قدمى وعلى جسمى كله احيانا !

تعمل لتعيش

ومضيت فى صحبة سيوم .. نجتاز شارعا بلديا كبيرا قد اكتظ بأنواع الفاكهة والخضار والحبوب .. ورجال ونساء يبيعون ويشترون .. بالجملة والقطاعى .. فى جو هادىء لا صخب فيه ..

ولقد رأيت معمل البيض ـ بفتح الباء ـ وهو المعمل الذى يصدر البيض الى جدة وموانىء اخرى من العالم .. ان تسعين فى المائة من خدم المعمل وعماله نساء صغيرات وكبيرات ، يقمن بمختلف الأعمال .. من عزل البيض الفاسد عن الصحيح ، بعد نقده فى ماكنة تكشف داخل البيض بالكهرباء ، إلى التصرف فى البيض المكسر بعمليات فنية كثيرة تهيؤه للاستغلال والشحن لموانىء أوربا .

فالمهم أن هذه العمليات ـ أو معظمها ـ فى يد النساء ، تحت رئاسة نفر من الايطاليين والايطاليات .. ولم يرعنى ما كان يبدو عليهن من ضعف وخصاصة ، منذ سمعت أن أجر العاملة ـ نظير هذا الكفاح الشاق طيلة النهار ـ لايزيد عن نحو دولار ونصف بالعملة الحبشية ، أى ريالين ونصف يوميا ، بعملتنا ..

وهكذا لم تكن المرأة هناك عاملة ، بلغة المرأة العصرية التى تحب أن تتطور وأن تزاحم الرجال فى كل ميدان .. بل بلغة الحاجة الى أن تعمل .. وتبدو عاملة .. لتعيش لافى ثياب انثى تتبرج للرجال !

انها تعيش ـ وتعول غيرها أيضا ـ فى حدود ذلك الأجر التافه البسيط .. بينا هناك حيوانات أخرى ، تعيش فى منتهى الترف والدلال ، ككلاب صاحب المعمل التى رأيتها بالأمس ، وحدثنا اليوم بعض موظفيه أنه لم ينجب أطفالا .. وهكذا كان لها خادم .. تصور الانسان ـ أى الحيوان الأرقى ـ فى خدمة كلاب يغسلها فى « البانيو » ويتولى أمرها .. من الأكل الناعم اللذيذ .. الى النوم .. بجوار سيدها .. ربما على الأَسِرَّة .. الى كل مايحقق هناء كلبتين . وصحيح أنها تؤدى لسيدها خدمات بالغة ، وأنها ذكية .. فى وسعها أن تفتح الباب .. وأن تميز صوت سيارة السيد الكبير بين عشرات أصوات السيارات من نفس النوع والطراز كما رأينا .. وكنا فى انتظاره عندما قفزت احدى الكلبتين من نافذة المكتب .. وظهر أنه جاء فعلا .. الأمر الذى قد لايتبينه ذكاء الأنسان من مجرد صوت سيارة قادمة فى الطريق من بعيد .

ودخل السيد مكتب الأمس .. وأغلقه .. وظلت احدى الكلبتين فى الانتظار .. وكان باب المكتب الذى نحن فيه يفتح الى الداخل .. فأقْعت أمامه فيا يشبه البكاء حتى أشفق عليها أحدهم وفتح الباب .. فانطلقت لباب سيدها .. وهكذا كانت احداهما تجيد القفز العالى .. والأخرى تجيد فتح الباب الممكن فتحه .. والذكاء بينهما على مستوى عال ممتاز .. وقال محدثنا : انهما أحسن من المسدس .. فى صيانة السيد الكبير .. كما لو كانت الواحدة بمثابة تأمين على حياته ضد الأخطار .

غير أن كل هذا قد لا يبرر وجود حيوانات تعيش فى مثل هذا الترف والمتاع ، مع وجود قسم كبير من الحيوان الارقى .. الانسان .. يعيش على فضلات الحياة .. كيف

يمكن ان تشق المبادىء الهدامة طريقها لو لم تكن هذه الحظوظ التى يلوح ان بينها صراعا ابديا لايكاد احد الطرفين فيه يلقى السلاح .. بل قد يغمده فقط .. لفترات تطول أو تقصر .. ولكنها لا تدوم ككل حال وكحالة الجو فى أسمرا ، فانه لم يكن باردا على النحو المزعج الذى بدى به الآن ، وقد ترامى الضباب والمساء معا على أطراف أسمرا .. فاخذت طريقى الى البيت ، غير متماسك من البرد .

١٠٠ سنة

رأيت امرأة عجوزا ، فى لون الحطب بل وشكله .. وربما معناه .

كانت تمازح أبا صديق الرحلة فى مكتبه وتقول له بالايطالية : أنت رجل عجوز .. ولم يكن عجوزا بل كهلا ، جَمَّ الحركة والنشاط ، غير أنها كانت تتظرف بعمرها .. وقد تجاوز المائة .. كان فى وجهها مايشبه رسما محفورا لشجرة كبيرة عجفاء تمتد فروعها وتتشابك أغصانها الكثيرة العارية الا من الشوك والجفاف .

ولم أدهش كثيرا وهى تمشى على قدميها لأغراضها ، كما لو كانت امرأة دون الستين .. فلقد عمَّر الكثيرون والكثيرات نحو ذلك وأكثر بنفس النشاط والعافية .

ولا أدرى ان كان جيلنا ـ فضلا عن الذى يليه ـ قد تطول فيه الأعمار ، كما يزعم المتفائلون بالعلم واجتهاد العلماء فى هذا السبيل .؟ أو لعلها سوف تقصر وتأخذ دائما فى القِصرَ كما يظن أى عقل رجعى أو سطحى فى نظر اولئك المتفائلين ! حقا .. لقد ظهرت الاختراعات العلمية وتظهر دائما ، بنتائج فيها وهم اطالة العمر أو تجديد الشباب .. أو .. أو .. الى آخر ماهناك ..

غير أن الذى يلوح أن هناك قوة أكبر لها قدرتها على ايجاد أسباب ونتائج أخرى تؤدى الى عكس مايخترعه العلماء .. حفظا للتوازن ..

ان شيئا كالدمار فى نفوس أبناء هذا الجيل ، من رواسب القلق الذى يحياه ، كاف لأن يكون سبب الكارثة فى أعصاب كل جيل .. مع الاحترام العميق لنتائج العلماء !

وقال لى سيوم ـ ونحن كعادتنا نتخبط فى الشوارع ـ مامعناه ! فى مثل هذا اليوم جئت .. قلت : نعم .. وفى مثله الآتى سأعود ان شاء الله .. وأنكر استعجالى ..

وانتقل البحث الى الشوارع الفسيحة التى تمتد طولا وعرضا .. ويبدو كل يوم فيها ، كما لو كان هو « يوم النظافة » المشهور .. والناس فيها مع هذا يمكن احصاؤهم قبل الظهر .. غير أن سيوم يؤكد أنها كذلك ، لأن هذه الأيام ، هى ايام استعداد الاجانب لأعياد رأس السنة .. كأنما المفروض ـ لولا هذه الايام ـ أن أعدَّهم بالاشتراك مع سيوم ـ عدّاً على الأصابع .. أو كأنما المفروض هو أن الأجانب هم الذين تمتلىء بهم الشوارع الفخمة ، لا المواطنون أهل البـلاد .!

قـَوم .. و قـَوم !

ومررنا عصرا ـ فى ضاحية من أسمرا ـ بجمع كبير من السيارات دون المائة أو حواليها .. صغاراً وكباراً .. يلمع « الالمنيـوم » فى مظهرهـا غالبـا .. فى طراز موحـد مدهش ، وقد رصت الى بعضها فى شكل دائرة واسعة ، أو مخيم كبير نصبه هناك قوم أمريكيون فى رحلة حول العالم .. وفى سياراتهم كل ما لذ وطاب .. حتى المطبخ .. والحمام .. وقاعة الرقص .. ومقاعد الاسترخاء فى شمس الغروب . وهكذا .. كما يلوح شيئا عاديا أن يوجد قوم فى الدنيا ، لديهم من الفراغ والامكانيات مايساعدهم على القيام برحلة هادئة حول العالم ـ يلوح عاديا أيضا أن يوجد قوم آخرون يزحفون كالنمل ، فى طلب فتات العيش !

ومضينا باصرار محدثى صديق الرحلة على أن يرينى أول بدائع الطريق الممتـد بالأسفلت بين مصوع وأسمرا .. وربما بدا أى عمران فى أسمرا غير مدهش ، كهذا الطريق الذى يلوح مشدودا فى منتصف الجبال الممتدة الشاهقة .. وترتفع بها أسمرا عن سطح البحر حوالى ٢٦٠٠ مترا اذا صدق الراوى .. فكيف ومتى عَبَّـدَتْ ايطاليـا

ورصفت هذا الطريق الذى يتسلق كل هذا الارتفاع الطويل ؟ وكم انفقت فى هذا السبيل .؟

حقا انه جهد رائع كجهدها فى طريق القطار ، منذ خرقت له نحو عشرة أنفاق فى الجبال ان صدق الراوى ..

أحـلام الشـعراء

وأروع من الجهد الرائع هذا الفضاء الذى يشرف عليه خط الأسفلت من أعالى الجبال ويلوح عميقا كالأسرار ، واسعا رهيبا ملء السمع والبصر والفؤاد ، ويلـوح بعض الرعاة والبدو كالأشباح فى هذا الفضاء الرهيب ... لقد هانت عندى خطورة الارتفاع فى جبال لبنان والطرقات الممدودة عليها كالحبال أو كالثعابين وأنا اتأمل هذا الطريق الرائع ككل ماحواليه .. من فضاء .. وشجر .. وسحر ــ بين أسمرا ومصوع ، عدا أنه يلوح كالفرصة الذهبية لأحلام الشعراء ، منذ كان هادئا لا تزعجه مواكب السيارات الطائرة فى جبال لبنان .. ربما لزحمة الحياة هناك ، وهدوئها هنا ..

****

وبدى أننا كما لو كنا معلقين بين السماء والارض ، وقد هبط المسـاء .. وهاجمنـا الضباب .. والبرد الشديد .. فلم يسعنا غير أن نعود أدراجنا الى البيت لنقضى سهرة هادئة بجوار المدفاة .

—□■—

مَصيف عالمي لو ..

يذكرني جو « أسمرا » بجو « الطائف » .. لاشك فى ان أسمرا أشد بردا وارتفاعا عن سطح البحر ، غير أن أسلوب الجو وأثره فى النفس والأعصاب هو نفس الأسلوب والأثر فى كلا البلدين .. والبيوت ، أو معظمها ، من طبقة واحدة على الأرض ، تُذَكِّرُ بأمثالها فى ضواحى الطائف الحبيب ، ولكن الحدائق تزين البيوت فى أسمرا وتزين شوارعها الفسيحة التى تلوح كما لو كانت مغسولة بالماء والصابون ، وقد اصطفت الاشجار فى كل اتجاه رائع النسق والتخطيط .. تذكرت الطائف .. وبكى قلبى لبلد كان فى وسعه ان يكون أحلى وأرشق من أسمرا ومن لبنان وأن يكون مصيفا عالميا رائعا لو أدركته العناية ، وجهد كالذى أنفقته ايطاليا فى إنشاء اسمرا .. جهد اسمه المال والكفاح المخلص .. وربما كان فى الامكان توفير واختصار نفقات ضخمة فى كل موازنة مضت .. الى آخر موازنة مما قد يلوح الترف واضحا فيه كالشمس .

وتصور هذا الفائض الكبير .. وكيف كان الطائف به سيغدو مدينة خالدة ليس هو فحسب بل والبلاد كلها ايضا .. فاذا لم تفعل ذلك الحكومة لأسباب أهمها أن هذا أمر الله ، فلماذا لايفعله القادرون من الشعب لبلادهم وفى بلادهم ؟ وبعضهم قد يتطوع فى الخارج بأرقام كبيرة من ثروته التى هى ولاشك من هذه البلاد .. وإليها يجب أن تعود ثم فَلْيتطوَّعوا بما يفيض عن حاجتها ـ إن فاض ـ ولْيُبدِّدُوه كيفما اتفق ان لم يجدوا من يحاسب على مثل هذا التبديد ..! ونبهنى من افكارى الحامية صوت سيوم ، وهو يكح بشدة كأنما ليجذبنى إلى مناظر ليست مؤذية .. حوالينا فى الشارع ، ونحن نعبر ضاحية رائعة يسكنها الأمريكان ، ولها حرمتها المقررة الى حد بعيد ! ثم .. ثم عدنا فى نفس الجو البارد الطرى .. جو الشجر ، والزهر ، وظلال المساء .. كنت ألتمس فى هذا الجو نزهة اليوم ، وأتمنى مثلها فى بلادى !.

غـرام جامعيـة !

ومررنا بعش غرام .. فيه نهاية القصة التى ابتدأت من قبل سنين ، وكان أولها لهوا يطارد به الفتى العربى فتاة ايطالية فى الجامعة .. حتى أحبته .. وأحبها ولم تحفل بثورة اهلها على هذا الحب .. وضيقوا عليها الخناق .. حتى هربت ثم هددتهم بالانتحار اذا لحق « مجنون ليلى » أى شر منهم .. الى آخر القصة الطويلة التى انتهت باصرار الفتاة على أن تتزوج فتاها ، رغم انه متزوج من أخرى .. يقسم بينهما بالأسبوع .. وترضى الحياة معه فى ذلك الكوخ متمردة على أهلها ، بل وفى طريقها الى أن تخرج على دينهم .. وتسلم .. فتاة أوربية جامعية رضيت أن تدخل نطاق « الحريم » فى القرن العشرين . والمفروض أن نغمة « المرأة » وتحرير المرأة بألحانها الفاجرة أوربية المولد .. ولكنه .. الحب !

مـوّال حـبشي

ولم يحصل قط ان استجوبتنى « أدريانا » كما حصل الليلة ، فقد أخذت تطارحنى الأسئلة بالايطالى عن الأهل والعيال ، وعن الجو والحالة لدينا .. وكنت اجيبها كيفما اتفق ، لأكتب أو أقرأ .. وتأبى الا أن تفهم اذا لم يكن جوابى فصيحا بلغة الخرس .. وسألتنى عن عدد السكان وعن المساحة ، وعن المستوى الاقتصادى عندنا وعن معدّل المصرف الذى لم أعْن كثيرا بتحديده من قبل .. وأرهقتنى الأسئلة والأجوبة .. وأخذت أتمطى وأتثاءب .. عندما ارْتفع صوت « ليتىّ » بموال طويل ، خيل إلى أننى منه فى أعمق أعماق جبال أفريقيا ..

—□■—

كغثاء السيل

ليس هنا ما يدل على دين الرجل أو المرأة ، إذ المظهر واحد كما لا أحتـاج أن أقول ..

والتساهل الذى ابتلى به المسلمون فى أمور دينهم ، لم يجعلهم مسلمين شكلا أو اسما فقط ، بل لعله كان العامل الرئيسى فى أن لا يكون حظهم هو الحظ الأول بين مختلف الأديان والجماعات ، فليس غريبا أن يكونوا فى حكم الأقلية وان كانوا أكثرية .. كغثاء السيل .. كما قال صلوات الله وسلامه عليه ..

وربما كانت خطبة الجمعة التى سمعتها اليوم فى مسجد اسمرا صرخة من الصرخات الكثيرة الضائعة التى تلتهب حماسا ضد ما ابتلى به المسلمون ، بل لقد ظننتها خطبة جريئة ، منذ كانت تندِّد بأحوال الفساد .. والرشوة .. والفسق .. والضلال .. ومعان صريحة كهذه قد لا يستسيغها الا الوسط الذى كان يصغى إلى الخطبة باهتمام وسكون عميق .. على أنه قد يترك المسجد إلى البيت أو الشارع بأية انفعالات أخرى لا علاقة لها بما كان يصغى اليه .. وليس غريبا أن تساهم ايطاليا فى بناء مسجد لأهل أسمرا ، ليتخيل السذج أن عواطفها ايجابية نحو ديننا إلى هذا الحد . كما أنه ليس غريبا أن توجد هنا ـ عدا الاسلام والمسيحية ـ أقلية من اليهود .. والوثنيين .. أو عباد البقر .. يتمتعون بمزايا المواطنين ..

اليهودي [1]

ولقد زرت مصنعا كبيرا ينتج ألوان العصير والشراب ، واستغرقنى بعض ما رأيت من فن وجمال هناك عندما استقر أمامى على المكتب رجل تبدو عليه الكهولة .. وبدأ يتحدث بالعربية التى حسبتها ايطالية أول الأمر ، وبدى كمن يصر على أن يتحدث بالعربية فقط .. ولاحظت على لهجته شيئا من لغة أهل المغرب وأهل مصر معا ..

قلت : هل سكنت مصر ؟

قال : نعم .. قبل الحرب ..

قلت : والأصل ؟

قال : من بنغازى .

قلت : والأسم ؟

وبدا كمن يتذكر شيئا ضائعا ورجحت أن السر هو ثقل العربية على لسانه .. ثم أشار لطرف شاربه ، وهو يقول بصعوبة :

ـ شوارب .. أو إسما على هذا النحو ، لم أتبينه ..

وغمزنى صاحبى فى يدى ونحن نغادر الرجل ، وقال :

ـ يهودى ..

قلت بسذاجة : ولكنه من بنغازى .!

قال : ولو ..

ثم ذكرنى بصمته وقد سألته عن الأسم ، وقال : إنه لم يذكره كاملا بوهم إخفاء . الحقيقة ، لأن اسمه « يوسف شيرب » وأسماء يوسف وموسى ويعقوب وما اليها ، هى أكثر أسماء اليهود ..

وهذا كما يبدو ضرب من الذلة والمسكنة ومن شعور اليهودى بالهوان .. الأمر الذى يكاد ينطق فى ملامحه .. وتحت جلده أيضا ..

وأحسست ما يشبه القرف .. والسخط معا .. وأنا أتصور الرجل والجو حوله كما لو كان مشبعا برائحة السم .. والبغضاء !!

بَـاعـُـوم

ثم شاقنى أن أزور رجلا من الحضارمة ، عندما قال صديق الرحلة : إن عمره ١١٥ سنة . وكنت أتخيله مسجى على الفراش فيما يشبه الاحتضار .. غير أن مائة وخمسة عشر عاما أقبلت علينا فى قوام رجل شائب لا يبدو عليه أنه يتمتع بمثل هذا العمر المديد ، فقد كان يمشى كما لو كان فى الخمسين ، وفى يده عكاز ، لا لأنه فوق المائة ، بل لحادث قديم فى احد ساقيه لولاه لما حمل العصاة ..

والغريب أنه نشأ فى مكة ، وفى « سوق الليل » بالـذات .. وأخـذ يروى بعض الحوادث .. والأسماء القديمة جدا ، ممن لعل أحفادهم فى منتهى الشيخوخة .. ويسألنى عن بعضهم ، كما لو كنت أعرفهم من باب المداعبة ..

ويتحدث عن « الشريف الحسين » كما لو كان بالأمس .. وعن الشريف عون كما لو كان قبل الأمس .. وعن البطولة و « المْشَاَكِلَة » .. وعن الرخاء فى تلك الأيام .. تصور أنه يذكر قيمة « السمن البلدى » الذى أصبح خيالا فى أيامنا ، وأنها كانت نحو ٦٠ « برمًا » أى ما يعادل نحو قرشين من قروشنا « للأقة » .. ويذكر السيل الذى بلغ باب الكعبة فى عهد « الحسين » .. وقصص الخوف والاضطراب فى تلك الأيام ..

وكيف كان يمشى بالذلول بين مكة والوادى أو جدة .. وأسماء أصحابه .. وأيامهم .. لقد كان الرجل تاريخا حيا أمامى .. تاريخ مائة وخمس عشرة سنة .. ومع هذا يلوح بنيانه قويا لا خلل فى أى جزء من جسمه أو عقله الواعـى العجيب ، ولا ينقصـه الأسلوب اللذيذ فى العرض والكلام .. ولما سالته : لماذا تركت الحجـاز ؟ قال بهـذا النص : مكة خطرة .. وأخذ يشرح الخطورة التى يتصورها فى ضخامة الذنوب .. الأمر الذى قيل إنه كان سبب اقامة ابن عباس رضى الله عنه فى الطائف ، إلى أن توفى فيه ، وتصور أنه لم يراجع طبيبا قط .. كان ـ حتى بعد أن تجاوز المائة بسنوات ـ كان يخرج من بيته قبل الفجر بقميص خفيف إلى ضاحية من ضواحى أسمرا ، يملؤها برد الفجر بين الماء والمروج الخضراء .. ثم يمكث هناك حتى تطلع الشمس ، فيعود مثقلا بالجوع الشديد .. كانت هذه الرياضة الصباحية هى الدكتور أو الطبيب المداوى كما

يسميها عبدالله باعوم .. وعرك يمناى فى يمناه ليرينى أى نشيط هو ؟ كان سجلا طويلا وددت لو استوعبت فيها قصة الماضى الحى .. غير أنى نسيت الحى والميت وقد ودعنا الرجل ، واستقبلنا برد شديد أخذت أتقيه جهدى فى الشارع وفى السيارة المقفلة .

ما أحلى العافية

اننى أصحو هنا قبل الفجر .. ربما لنشاط الجو .. غير أن هذا النشاط نفسه قد يصدنى عن الحركة ، وكل ما حولى فى برودة الثلج ، الا ما فوقى وتحتى من الغطاء الثقيل ..

ومشيت فى حديقة بيت « أدريانا » أطل على الشارع قبل أن تشرق الشمس .. وليس غريبا أن تدب فيه الحركة فى مثل ذلك الوقت المبكر .. حتى « البار » المواجه لنا يبدو كأنما هو لم يقفل إلى الان ، أو كأنه قد فتح أبوابه قبيل الفجر .. إن الذين يحيون بكفاحهم وسواعدهم لابد أن يستيقظوا وأن يتحركوا مبكرين .. ويلوح بعضهم من جنود المرور ، فى سيقان طويلة عارية الى ما فوق الركبة .. ثم لا شىء الا « بنطلونا » قصيرا و « صديرية » بلا أكمام ، دون أن يبدو عليهم الا النشاط ، وكأنهم فى صباح يوم رائع من أيام الصيف ، لا الشتاء ، وما أحلى العافية ..

ثم تقلبت كعادتى فى دنيا البيت .. وقد يحلو لى أن أتحدث مع أدريانا وليتى خادمتها الصغيرة كما لو كانت احداهما تجيد العربية باتقان .

وقد أنادى إحداهما باسمها ولكن بأسلوب أحدنا لو نادى فى أطراف « القرارة » وقال : يا واد .. أو يا ليتى .. غير أن هذه كانت لا ترد الا اذا ناديتها بأسلوب « أدريانا » فانها تقول : « ليتى » بنغم ممطوط رقيق ..

وذهبنا ـ أنا وسيوم ـ بين عدة أغراض .. ومظاهر حلوة ومالحة وبين بين .. ولا أدرى كيف علقت على شىء من ذلك بكلام بدى على سيوم ما يشبه الخشوع وهو يسمعه ويتأملنى باستغراب ـ الأمر الذى تحدث نظائره مع سواه ، ثم قد لا يزيد شرحى لما قلت الا غموضا .

ثم عدت الى « البانيو » كعادتى قبل الغداء ، وأشعر اذا دخلت « البانيو » بتطور كبير .. لا فى صحتى فحسب .. بل فى عقليتى أيضا. كالتطور الذى أحسه فى مشاعرى كلما قضيت مساء رائعا فى أسمرا ، حيث تبدو المدينة اللامعة ساكنة هادئة كأن أهلها قد خرجوا للضواحى فى يوم عيد ..

هدوء يسرى فى النفس والأعصاب ، أستقبل به الضواحى بأنفاسها العطرة ، وبالبساط الأخضر الذى يلوح مدَّ النظر وحقول الزرع فيها أكواخ .. وألوان من الناس .. والحيوان .. والشعر ..بين جو ريفى لذيذ تحوطه الأشجار السامقة ، فى لون الشفق قبل الغروب . لوحة كاملة ربما وقف أحدنا يتأملها طويلا لو رسمها مصور بارع .. وهى هنا فى ضواحى اسمرا .. حلم على الأرض .. مشرق كالنهار .

ويبدو الضوء الخافت ـ اذا هبط الليل ـ فى شوارعها وكل البيوت والمحلات ، كأنما هو اطار الحلم ، وكأن عامل الأقتصاد لم يكن هو سبب الضوء الخافت فى أسمرا منذ كانت أسعار الكهرباء فيها ، كأسعارها فى جهات أخرى طال بها ليل أحلام الرخاء .. والعدل .. والرحمة .

أهل إيطاليا

ان ظاهرة اللغة العربية هنا شائعة فى اللوحات وأسماء المحلات ، وعلى الألسنة ، وفى الدوائر .. وحتى على أبواب الغرف التى يشغلها بعض الأجانب من الايطاليين باسم « مستشار » أو « خبير » .

غير أن اللغـة التـى تحتـل مكان الصـدارة فى المدارس وفى المخاطبـات ، هى الايطالية ، ويبدو أنها أسهل على اللسان من لغات أخرى .. كما يبدو الذين يتكلمون بها أحيانا وكأنهم فى خصام مستمر لا يتوقف .. غير أن بعضهم لا يخلو من جمـال مخيف .. فيه شعر .. وسحر .. وغموض .. وأحلام .. وشىء آخر لا أدريه .. ولقد أشار أحدهم اشارة معينة ذات مدلول سيء عندما أقبل علينا رجلان فى زى كزى القُسُس والرهبان يعلوه رأس مكشوف ، ولحية كثة مستديرة ..

وكانت حركة تخدش الذوق والحياء ، ولم أفهم شيئا ، غير أن محدثى لم يتردد وهو يقول بحماس : يهود .. كلاب .. ثم أضاف أنهم ـ أى اليهود ـ قد تعودوا مثل هذه التحية ، وما هو أفظع منها وأخدش للذوق ، حتى من المسيحيين ، الأمر الذى يدل على أن اليهود منبوذون عالميا ، غير أن لغة المال والمصالح لم تمنع بعضهم من النفاق لليهود وباسم اليهود .. نفاقا ظاهره العطف والمؤازرة ، وباطنه دفع هذه اللعنة الحائرة .. من الغرب .. الى الشرق .. باسم (الوطن القومى) لليهود الذين يبغضهم الناس كلهم .. لولا النفاق !

وهنا شيخ لليهود تبدو البغضاء فى وجهه وحواليه أوضح كثيرا من العربية التـى يتقنها ، منذ كان يمنى الأصل !

ان شكل الخنزير كاف لاعطائه جملة صفات ومعان سيئة فى النفس .. إنه شكل

حقير يلوح ثقل الدم فيه إلى حد البشاعة والقذر ، ولهذا كانت الاشارة اليه وإلى خلائقه بين الناس أفظع من الاشارة إلى أى حيوان آخر .. وربما كان فى الامكان هضم إعتبارات كثيرة فى دنيا الأخلاق ، الا القذارة فانها لا تطاق .. أليس تحريم مثل هذا من « ابجديات » الذوق ؟

لمحات

رفضت أن تجلس على المائدة معنا للغداء ، ثم رضيت ـ بعد الحاح منى ـ أن تجلس فى طرفها بمنتهى الخجل .. والأدب .. وقالت بصوت خافت : إنهم لا يحبون أن نجلس معهم على الأكل ..

قلت : من هم ؟

قالت : الايطاليون

قلت : ولماذا ؟

قالت : إنهم يريدون ذلك .. كأنها لا تفهم ولا تريد أن تفهم ..

وهكذا ينعدم .. حتى الشعور بالاعتراض والهوان فى نفس الانسان ، بعد أن يتحول إلى ذليل ..

***

لقد حدثنى بعضهم عن الاحتياطات والحذر ضد النشالين والمحتالين ، غير أننى لم أجد هناك ما يبرر الخوف مطلقا ، وان كان الاحتياط ضروريا فى كل مكان ..

***

لم أر فى شوارع أسمرا أى خروج الى الأرصفة والشوارع من داخل المحلات .. الأمر الذى يدل على أن الناس يحترمون النظام .

***

يؤكد العارفون أن جو اسمرا أطيب وأجدى فى الشتاء ، من جوها فى الصيف لارتفاعها الكبير عن سطح البحر ، غير أنها موعودة فى الصيف بالأمطار دون الشتاء .. ولهذا تتحول إلى « مدينة أحلام » كلما سقاها الغيث ، وغسلها المطر ، فبدت مصقولة .. كالمرآة ..

القسم الثاني

في بلاد المارك والفولدر

- من جدة الى هامبورغ
- الشعب الحي
- على شاطئ الراين
- في دنيا المصنع
- من بون الى برلين
- الطيار الذي سقط في البحر
- الهولنديون بين البحر.. والألمان
- رحلة اليوم في أوتوبيس
- ليلة في القطار
- ذكريات في ميونيخ
- الوحدة عبادة
- على هامش الرحلة



مِن جـدّة إلى هـا مبورج

(١)

تحركت الطائرة كعادتها فى أرض المطار ، ثم توقفت لتجرى وتنطلق فى الجو .. غير أنها لم تجر إلا قليلا ، ورجعت الى حيث كنا فى مطار جدة .. وسألنا عن الاسباب .. انه ولا شك مما يثير هواجس الخوف ان تتحرك الطائرة .. ثم تعود .. ان هذا معناه الخلل .. واحتمالات الخلل .. ولطف الرب الكريم .. وبدى جو الطائرة خانقا بعد الوقوف .. واتضح السبب .. انه خراب فى جهاز الأجنحة والعجلات .. ولن تطير الطائرة الا بعد اصلاح الخراب .. وكان المهم فى نظرنا ليس اصلاح الخراب ، أو أين كان الخراب قبل أن تتحرك الطائرة !؟ .

كان المهم هو أن نخرج سريعا من جوف الطائرة ..

لقد أحسست كأننا فى جوف سمكة كبيرة على « الصاج » ! غير أن الطائرة كانت تنتظر السلم .. كان الباب مفتوحا .. والسلم مفقودا .. والتفاهم مع الحاضرين فى الطائرة لا نتيجة له فى احضار السلم لننزل كما لو عدنا من سفرنا الى المطار ..

وأخذ بابا عباس[1] يصيح باسم الاطفال الذين معنا فى جوف السمكة .. وهو على باب الطائرة ..

غير أن الذين كانوا يتحركون على أرض المطار ممن يلوح أنهم منتسبون للعمل فيه كانوا يقابلون بابا عباس بمنتهى الهدوء والتثاؤب فى شمس الضحى وجوه الرقيق ..

---

(١) هو عباس غزاوى الذى كان يشرف على ادارة برامج الأطفال بالاذاعة السعودية ويشغل الآن منصب سفير بوزارة الخارجية .

واتضح أن عمال السلم لم يلبوا طلب السلم ـ كما روى المضيف ـ حتى جاءوا به أخيرا بعد الكرب الشديد ، وبعد ان تسلل من مقدمة الطائرة من تسلل منها بأسلوب القفز .. ببراعة ! وانتظرنا .. وأفطر منا من أفطر فى بوفيه المطار القديم .. وأخذ الشك يعبث ببعضنا فى صلاح الجهاز الذى كان عطلان ، وفى صلاح السفر بطائرة تعرضت أول الأمر لخراب وان كان غالبا فى منتهى البساطة ، فقد استدعينا الى الطائرة بعد لحظات لم تطل .. ولكنها بددت مشاعرى وأنا أفارق الوطن .

(٢)

الطائرة مجتمع صغير يسوده الأمن والسكون والاستسلام العميق لمفاجآت القدر .. وبمجرد ارتفاع الطائرة تتحدد علاقة الذين فيها بالارض .. فى شكل جوازات وأوراق .. وخيالات لا أهمية لها مطلقا فى المجتمع الجديد ، فهو مجتمع صغير منفصل عن الأرض ، هائم فى الفضاء .. يعيش افراده لهدف واحد ـ كما أظن ـ وهو الاتصال مرة أخرى بالمجتمع الكبير فى الارض .. ولهذا يلوح أنهم مثاليون فى المجتمع الصغير . ولقد تتبعت انفعالاتى كلما دخلت هذا المجتمع وركبت الطائرة .. انها ـ غالبا ـ تدور حول نفسى .. ومن حوالىَّ فى المجتمع الصغير ، اذ يلوح أننا قد ارتبطنا بمصير واحد معلق بهذه الطائرة فى يد القدر .. وكل ما حولنا .. كالجبال .. والسحب .. والصحراء .. يبدو معلقا بنفس المصير ..

وهكذا ينعقد فى ضمائرنا شىء عميق كالتسبيح بالقدرة الهائلة التى تمسك الكون .. وكأنما هى تتوارى بعيدا عن نفوسنا اذا كنا هناك .. على الأرض فى المجتمع الكبير !

وأضغط مشاعرى اذا هزها الخوف .. وأرسم على ظاهرى معنى التجلد كما أراه شائعا فى ملامح الآخرين .. واذا مالت الطائرة بجناحيها الى اليمين أو الى اليسار ، أحسست أننى أميل معها بأفكارى وكل ما فى داخلى ، وان كان جسمى على المقعد بمنتهى الثبات والاطمئنان .

ماذا يحدث حقا اذا أفلتت الطائرة من يد القدر ؟

لاشيء مطلقا .. إلا أننا انتهينا .. شيء تافه بسيط تحدث نظائره من حين لآخر .. وأغمضت عينى وحوقلت .. واستبعدت الخيال السخيف !

ووصلنا الظهران فى هذه الأثناء .

(٣)

لا شيء مطلقا الا الظلام منذ غادرنا مطار الظهران .. حتى وصلنا مطار القاهرة بعد منتصف الليل .. ظلام مطبق حولنا .. لا نكاد نتبين شيئا الا أننا فى جو حالم لولا انه فى طائرة « لوفت هانزا » بين السماء والارض ! بعضنا صحو .. وبعضنا نيام .. وبعضنا حيران بين النوم واليقظة فى حركة وسكون ..

وكأنما تبدو الطائرة حرفا تافها مضاء بالنور فى لوحة كبيرة لا أول ولا آخر لها من السواد .. ولهذا كان يبدو ما حولنا كالعدم .. لولا كاشح من اللهب كان يرمى جناحى الطائرة فى شكل دائرى مستمر يؤدى مهمة العلامة للطائرات فى ظلام الليل ..

كان ماحولنا ظلاماً .. لا السماء نبصرها ولا النجوم .. بل ولا جناح الطائرة إلا على ضوء كاشح اللهيب ..

كنت أنظر من النافذة فأرى وجهى وحده فى الزجاج !

ثم ..

ثم أزعجنى الظلام والطائرة تسبح بنا على البحر الابيض المتوسط .. فى الطريق الى روما ..

ولم يكن بد من النوم .. وفعلا نام الجميع فى اطمئنان عجيب لرحمة القدر .. حتى صحوت .. وتخيلت الفجر .. واخذت أرقبه من النافذة .. وشهدت مولده .. هناك فى الأفق البعيد .. كان يبدو كرأس الهلال الرقيق .. الا أنه على حافة البحر .. ثم أخذ يبدو كالابتسام مع شيء من الدلال ..

وبدا البحر رائعا تحتنا وقد تنفس الصبح فيه .. وأشرقت الشمس .. وأخذت الطائرة تحلق على أرياف وجبال خضراء كالشعر منظوما بابرع اسلوب على م إيطاليا ..

غير أننا لم نلبث أن ودعنا ايطاليا .. ومطار روما .. فى الطريق الى فرانكفورت . وقد ارتفعت شمس الضحى .

(٤)

كان تحتنا شيء من ارياف ألمانيا .. سهول خضراء .. والوان مخططة .. الفوضى فيها هى النظام والنسق الرائع البديع ..

واجتزنا قبلها بحيرات « كومو » و« لوزان » و« زيورخ » وجبال الألب التى كان يغمرها الثلج الرقيق .. وقال أحد الزملاء : ما أحلى الحياة هنا .. قلت : أين ؟ قال : فى مثل هذا السهل .. وهذا الزمرد .. وهذا الشعر .. وخشيت أن يمسك « الميكروفون » .. فقاطعته :

أنت وحدك ؟ قال : لا .. أنا ومعى كتب .. وشعر .. وما يلزم لحياتى .. وزوجة صالحة فى منتهى العقل والجمال ! قلت : ثم ..

قال : ثم أعيش .. وأنتج .. وأكتب .. وأزرع الأرض .. وأهيم فى هذا الفضاء .. وأسمع صوت الناى والعصفور وأشاهد القمر والشمس .. والشفق .. وألوان قوس قزح .. وأسمع .. وأرى .. وأحس .. حتى اختلط ما فى رأسى واخذت أتصور نفس الحلم ..

وما أكثر ديار الهوى .. والشعر .. والأحلام فى هذه الارض .. وما أكثر سكانها أيضا .. أفتراهم سعداء يتصورونها بخيال كخيالنا .. خيال الشعر .. والهوى .. والاحلام ؟ أو تحولت فى خيالهم الى مجرد مصنع يعيشون فيه بعرق الكفاح !

وصمتنا طويلا .. فان ما تحتنا من السهل الأخضر الممتد كان يدعو للصمت .. بل والخشوع ..

بساط أخضر يلوح مدَّ النظر فى نفس الروعة .. والتخطيط .. والالوان .. وأنهر الماء تتلوى كالثعابين فى ذلك البساط الكبير ..

وصحونا من الحلم فى مطار فرانكفورت .. غير ان ما كان فيه هو من جو نفس

الأحلام ..

ثم لم نزل فى نفس الجو .. حتى وصلنا « هامبورج » ثم لم تنته قصة الحلم ..

(٥)

لم تكن الرحلة متعبة كما ظننت .. كان المفروض لها فى برنامج مضيفتنا العزيزة ـ شركة لوفت هانزا ـ أربع عشرة ساعة وعشرين دقيقة ، وهو وقت يبدو مملا .. على الأخص فى الطائرة .. وهذا ـ أى الملل ـ أضعف المتاعب .. ومنها ـ ان لم يكن أهمها ـ أن يقضى الانسان وقتا كهذا فى حالة انتظار ..

يتخيل السلامة على الأرض بعد سفر ممل طويل ..

ومع ان اختلاف التوقيت بين جدة والظهران ، والقاهرة ، وروما .. الى هامبورج ، لا يساعد على تحديد الزمن الا انه قد انعقد بيننا ـ نحن ضيوف شركة لوفت هانزا ـ شبه اجماع على أننا قضينا أكثر من خمسة عشر ساعة فى طيران متلاحق سريع .. لا نكاد تنزل من الطائرة ، فى أى مطار ، الا لنرجع اليها بعد نصف ساعة او اقل فى بعض المطارات .. حتى ساد ـ الشعور ـ فيما يشبه الاجماع أيضا ـ بأن الطائرة أصبحت فى حكم البيت المألوف ، منذ اتخذت اقامتنا فيها طابع الاستقرار فى المقر المحدد لكل منا ، وان تبادلنا مقاعد الجلوس بحرية فى هذه الأثناء ، كما لو كنا فى جو عائلى حبيب ..

وساعد كثيرا على الانسجام العميق فى هذا الجو ـ أنه قد جمع بين صداقات يرجع بعضها الى عهد الطفولة والمدرسة .. فقد جمعتنى الرحلة بعبد العزيز المنصور التركى ، مدير التعليم فى المنطقة الشرقية .. وعلى ابراهيم التركى مدير الجمرك هناك .. وكلاهما صديق وزميل قديم ..

وجمعتنا الرحلة بصداقات حبيبة ، وبروابط ما أحسبها تقل أهمية عن التى بين الأهل والأصدقاء .. انها روابط الدين والوطن ..

(٦)

لقد مضى الوقت خفيفا ولم يثقل كما ظننت ، وبدت الرحلة ممتعة ونحن نتقلب بين الجو والمطارات .. وأشهد أن مضيفتنا كانت فى منتهى الذوق والكرم وأنها لم تدخر كل ما فى وسعها لراحة الضيوف وسعادتهم فى الجو .. بين السماء والارض ..

كانت الطائرة تبدو منسقة فى أحدث مظهر فخم أنيق ، وكان هذا يسرى على كل شىء فيها .. ونحن أيضا من الجملة ، فقد أخذنا نتعود احترام النظام الدقيق !

وكانت الطائرة نفسها فى ضيافتنا عند حسن الظن .. ومما شجع على السكينة فيها جو الاستقرار المنزلى الذى ألفناه .. ثم انها كانت ثابتة كالبيت حقا .. فلم نشعر ـ كما أظن ـ من بداية الرحلة الى نهايتها بأية بادرة تسبب الانزعاج ..

ومنذ دخلنا الاراضى الألمانية فى ضحى النهار دخلت الطائرة فى مناورة مستمرة بين السحاب ، اذ تعلوه مرة .. ثم تنخفض دونه .. ثم قد تهجم عليه وتشقه باصرار ، فلا تكاد ترى الا أنها تسبح بنا فى موجة عاتية من الضباب .. ومع هذا لم يكن يلوح الا انها تطير كالمعتاد .. حتى « المطب » الذى يتكرر حينئذ ، يبدو تافها ، ونحن فى سلسلة جبال من الغيوم .. وتحت الغيوم .. ووراءها .. وملء الأفق ومد النظر فى ذلك الفضاء الكبير ـ شعر منظوم ومنثور يتوِّج الارض فى لوحات متتابعة تشكل بساط الأرياف الخضراء والأنهر التى تتعرج بين الحقول ، وخطوط الأسفلت تزحف عليها السيارات كالنمل أو كما تبدو من الطائرة ..

(٧)

كان أول مطار ألمانى نزلناه بعد روما ـ مطار فرانكفورت ـ ، ولهذا صحبتنا أمتعتنا الى الجمرك ، فلم يزد موظف الجمرك على السؤال وحده ، متلطفا فى السؤال .. ثم لم تستغرق عملية السؤال .. والجوازات .. الا دقائق .. ودخلنا بهو المطار الكبير .. وكان يموج بالناس .. والنظام .. والاناقة .. وبالشعر والأحلام .. فيه .. وحواليه .. ورذاذ المطر يتساقط ، وأعواد الشجر تنتفض كالعذارى بلغة الشعراء !

ثم .. كانت الطائرة فى انتظارنا .. وعلى سياج المطار حوض مزركش مستطيل قد اصطف الناس حوله .. وأطفالهم بينهم .. أو يسبحون فى الماء .. كان يبدو عليهم أنهم سعداء بين هذه الاحلام ..

كان المطار .. وما حوله .. فى نظام رائع بديع ..

ثم لم نلبث أن نزلنا فى مطار « دسلدورف » .. فى نفس الجو السعيد ..

ثم واصلنا الرحلة الى المطار السادس ، وهو الأخير ، مطار « هامبورج » .. ولا أدرى شيئا عن الوقت بالتحديد ونحن نجتاز ردهة أوتيل « الأطلانطيق » الذى أعدته لاقامتنا « لوفت هانزا » .. غير أنه كان بعد ظهر يوم الخميس .. وكان طيراننا من الظهران فى مساء الاربعاء ..

(٨)

ربما كان حقا علينا أن نرتاح بعد سفر طويل ، غير أن الفضول كان يملؤنا لمعرفة ما هناك ..

وكنت أتفقد شؤونى وأتابع دراساتى فى مزايا المسكن الجديد ـ عندما استدعانى الزميل بابا عباس بالتليفون ، لأهبط سريعا الى ردهة الفندق الفخم الكبير .. ولطشت نفسى بالبدلة كيفما اتفق .. ونزلت مسرعا .. وكان الزميل قد التهم فى مطعم الأوتيل وجبة فاخرة من الطعام فى هذه الأثناء ، وكأنما كان هذا حسبنا لسد حاجتنا معا من الجوع !

وخرجنا نهيم مشيا على الأقدام فى « هامبورج » ..

مضينا على الشاطىء الذى يطل عليه « الاطلانطيق » وكانت تتحرك السفن فيه .. والقوارب .. وكل ما يبدو كأنه يحلم على البحر تحت السحاب .. والمطر الخفيف ..

وتحتضن الشاطىء مبانى « هامبورج » وعماراتها الشاهقة والمنضدة .. وشوارعها التى أخذنا نتقلب عليها وفى صحبتنا مرشدة من « لوفت هانزا » .. كنا نتفلت .. وقد يختلط بعضنا بالسواد ـ او بالبياض ! ـ الأعظم من الناس .. ثم نتجمع .. ونتفقد

أغراضنا فى المحلات التى أوشكت أن تقفل وقد ساد جو الشفق والغروب ..

وشعرت برعشة كالبرد فى أطرافى بعد الجوع .. والمطر .. والحركة التى طالت بين المحلات ..

وبدت الشوارع رائعة تلمع فى النور .. وكان يبدو ان كل شيء فى مجراه الطبيعى .. فى نظام متقن أبدعه العلم .. والخلق .. والأنسان الحى هنا بمعظم معانى الحياة ..

انه الوعى القوى فى شعب كل أفراده متعلمون .. فى درجة الاختصاص والتفوق ..

كانت فى انتظارنا حفلة عشاء أعدتها « لوفت هانزا » فى قاعة رائعة تذكر نقوشها وقبابها وجوها ـ بالطراز الشرقى القديم ..

وكان بجوارى على المائدة من ظننته أول الأمر عربيا ، فاذا هو من « هامبورج » وقد تعلم اللغة العربية ودرسها فى جامعة « هامبورج » وواصل دراسته فيها وفى الثقافة الاسلامية ـ عموما ـ بعد الجامعة . انه يدير جمعية اسمها « جمعية الشرق الأدنى والأوسط » هدفها مناصرة قضايا الشرق ، وتوثيق الروابط بين ألمانيا والشرق ..

كنا قد وجدنا فى انتظارنا منذ جئنا من المطار دعوة من هذه الجمعية الى حفلة شاى قبل موعد احتفال العشاء .. غير أن أكثرنا لم يذهب .. وذهب بعضنا .. وفرحت وأنا اتحدث الى الرجل .. فرحت بلغتى على لسانه الذى كان ينطقها بدون ازعاج ..

وفرحت بدراستها فى جامعة « هامبورج » وتمنيت ان تسود جامعات العالم بلا استثناء ، وأن تتفوق على سائر اللغات ، فهى ولا شك أهل ومحل لهذا التفوق ، لولا أن أهلها .. وادع لذكائكم تحديد الخبر ..!

غير أنه من يدرى ؟ ربما كان حلم التفوق فى الطريق ! ..

ثم كانت بقية السهرة بعد العشاء فى ناد ليلى كبير يلوح منه ان الناس سعداء فى « هامبورج » ربما الى حد الترف .. وأن ملء نفوسهم المرح .. والجد .. والحياة ..

وتذكرت الحرب .. وهزيمة الألمان فيها .. وكيف يبدو أنهم أكبر من الهزيمة لو سلموا قيادة العسف والطغيان . ثم غلبنى السهر .. والتعب .. وتناثر الضيوف .. ثم اجتمع شملهم فى « الاطلانطيق » للانتقال الى الفصل الثانى من برنامج الرحلة .

الشَّعب الحَيّ

الحق أن برنامج « لوفت هانزا » الذى أعدته لضيافتنا كان حافلا ، رغم أنه فى حدود سبعة أيام .. كان حركة مستمرة لم أتعودها بمثل هذه الخفة والنشاط .. من « البدلة » الى الغرفة .. ومن الأوتيل للأوتوبيس .. ثم الى المدينة أو الضاحية المقررة فى برنامج اليوم .. ثم نلف وندور فيها ونتناول غدائنا فى جهة وَنَتَعَشَّى فى جهة أخرى ، ونجول ليلا فى المدينة ونواديها ، ونعود ادراجنا الى الاوتيل الم ثمتهيأ لمغادرته ضحى اليومالتالى .. ويتعذر على أحدنا الا ان يكون جاهزا فى الوقت المحدد .. من « البدلة » الى الحقائب .. الى سائر التفاصيل .. غير أنه كان برنامجا طريفا ما أظن أنه كان يتسنى لأحدنا ولو ضاعف المدة التى حققته فيها لضيوفها « لوفت هانزا » والسر هو فى خطة الرحلة وبرنامجها الحافل السريع .. لقد رأينا أول ما رأينا « هامبورج » .. ثم غادرناها صباح اليوم الثانى الى ضاحية من ضواحى « هامبورج » اسمها « تراف موند » ولم تستغرق الرحلة اليها أكثر من نحو ساعة ونصف فى « الاوتوبيس »

وتناولنا الغداء فيها .. فى نفس جو الشعر والأحلام .. الذى يسود ألمانيا .. وتناولنا العشاء فى بعض أندية الرياضة والألعاب .. ثم عدنا الى « هامبورج » مرة أخرى بالاوتوبيس .. ثم غادرناها بالطائرة الى « فرانكفورت » فى ضحى اليوم الثالث وتناولنا الغداء فى مصانع أطعمة « لوفت هانزا » بعد زيارة « ورش » الصيانة المعدة لطائراتها هناك .. وكانت حفلة عشائنا فى فندق « بارك » .. ومضينا فى جولة سريعة بين شوارع « فرانكفورت » ونواديها العامرة بالحب .. والحياة ! ..

وقضينا ليلتنا فى الفندق الأخير .. ثم رحلنا صباح اليوم الرابع فى « الاوتوبيس » الى مدينة « هيدلبرج » وزرنا القلعة الأثرية فيها .. وكان غداؤنا فى فندق « بورباشير هوف » .. ثم غادرناه فى الحال الى « بادن بادن » .. وتناولنا عشاءنا وقضينا ليلتنا هناك ..

ومضينا منها ضحى اليوم الخامس فى «الاتوبيس » الى « استدقرت » .. وزرنا مصانع ومتحف المرسيدس .. وتناولنا الغداء فى ضيافتها .. وكان عشاؤنا فى « برج التليفزيون » .. وسافرنا مبكرين فى اليوم السادس ومع هذا لم نصل « ميونيخ » الا بعد الظهر .. وحططنا رحالنا فى فندق « الامباسادور » .. وزرنا بعض معالم المدينة وآثارها .. وتعشينا فى فندق آخر .. وكانت ليلة ممتعة بين النوادى .. والأحلام ..

ومضينا ضحى اليوم السادس عن طريق « بنهيديكتز » الى « بادتولز لينقرز » الى « فوردريس » وهى أرض الصيد التى كانت للملك ليوبولد .. ملك بلجيكا .. فى يوم من الأيام .. وتجولنا بين الحدائق ، ومحطة توليد القوى الكهربائية فى « سلفن اشتاين بيتش » ثم مضينا الى « روتاج ايجرن تيجرنزى » .. وكان غداؤنا فى فندق « باخمير » - صدقوا أنه بهذا الاسم ! - ويطل هذا الفندق على بحيرة تفوق حتما خيال الشعراء .. ثم ذهبنا فى مركب على البحيرة الى « تيجيرنزى » وتناولنا الشاى عصرا فى « هاينزفى سنت كيروين » .. ثم رجعنا مرة أخرى الى « ميونيخ » .. وتعشينا فى مطعم شعبى كبير .. وقضينا الليل كالمعتاد فى مشاهدة ما هنا وهناك ..

وكانت هذه هى الليلة الاخيرة فى برنامج ضيافتنا الكريمة من شركة « لوفت هانزا » .. وأخذ بعضنا يتهيأ للعودة الى الظهران كما فى البرنامج .. وبعضنا أخذ يتهيأ للسفر الى جهات أخرى فى أوربا ..

* * *

غير أن المهم ..

المهم هو أن هذا استعراض سريع لبرنامجنا فى سبعة أيام .. رأينا فيه عدة مدن وقرى .. ومشاريع .. وتفاصيل كثيرة .. وربما كان حقا على أن أصف كل ما رأيته

بالتفصيل .. ولكن الاجمال فى الوصف ربما يكفى فى بلاد كألمانيا بما قد لا يكفى فى غيرها اذا اختلف المستوى ولم يكن واحدا فى سائر البلاد ..

ان كل ما مررنا به يذكر ببعضه فى كل مكان من ألمانيا الغربية .. ومن المفهوم اجمالا وتفصيلا أن ألمانيا خرجت من الحرب بأتعس نصيب من بين سائر دول أوربا ..

فقد أفقدتها الحرب الملايين من أهلها ، ودمرت عمرانها شر تدمير .. وكان هذا شاملا لكل مدنها وقراها ، غير أن بعضها كان يختلف عن بعضها فى نسبة الشقاء والتدمير ..

مدينة « ميونيخ » مثلا التى حططنا فيها الرحال .. دمرتها الحرب بنسبة ٨٠ فى المائة .. و« فرانكفورت » و« هامبورج » و« بادن بادن » كانت نسبة التدمير فيها أقل من هذه النسبة .. وكذلك معظم الضواحى والأرياف .. طاف طائف الحرب بها ، فاذا هى فى تعاسة كبرى بعد الحرب ..

ثم ..

ثم أنها تبدو الآن كلها فى مستوى واحد من العمران .. لا تهبط فيه أية مدينة عن الأخرى ، وهو مستوى عال تخطت به ألمانيا شعوبا أخرى لم يكن حظها تعيسا كحظ ألمانيا بعد الحرب ..

كانت المدنية فى شوارع المدن التى رأيناها ، طرازا متقنا فى البناء والتخطيط ، والنسق الفخم البديع .. تستوى فى ذلك « هامبورج » و« فرانكفورت » و« بادن بادن » و« ميونيخ » .. الى آخر ما رأيناه .. حتى لقد كنت أحسب فى اليوم التالى اننى لم أبرح مدينة الأمس ، وأنا أتأمل الشوارع حوالى من نافذة الأوتيل فان الطراز هو نفس الطراز غالبا ، وكأن مدينة اليوم هى مدينة الأمس .. البيوت .. والمحلات .. وخطوط السيارات .. والترام .. وميادين الشوارع .. وحركة المرور .. والمشاه .. ومستوى المعيشة .. ونظام الحياة ـ كل هذا وما اليه من مزايا العمران طراز موحد فيما رأيناه من مدن بل وقرى ألمانيا ..

أما الحركة الاقتصادية فيها ، فانها أكبر من الوصف السريع ، ويكفى أن ألمانيا تعتبر اليوم الأمة الصناعية الثانية بعد أمريكا ، وأن الأيدى العاملة فى ألمانيا لا تكفيها ، ولهذا فتحت أبوابها للقادمين من دول أوربا ومن غيرها .. ويتطلب تقدم الانتاج مزيدا من هذه الأيدى ..

ويكفى ـ أيضا ـ أن « المصنع » هنا هو موضوع الحياة ، وسبق الألمان فى ميادين الاختراع والانتاج ، والكفاح والرجولة عموما ـ أمر مفروغ منه من وقت طويل ، غير أن المدهش حقا هو أن الهزيمة فى كل حرب مضت الى اليوم لم تزد هذا الشعب الا قوة هدفها السبق دائما .. والانتصار ..

وقد تنتصر يوما وان طال بها الانتظار ..

ولقد عذرت نيتشه ـ صاحب فلسفة القوة ـ فان الناس هنا ربما كانوا نواة صالحة لمثل هذه الفلسفة ..

ومن يدرى ؟

ربما كان هتلر معذورا يوم تصور « الشعب المختار » فلقد جره الى الكارثة .. غير أنه نهض من جديد كما لو لم يكن هتلر ، وكما لو لم تكن أية كارثة اسمها الحرب فى تاريخ هذا الشعب الحى ..

على شاطئ الراين

سافرنا بالقطار من « ميونيخ » فى وقت مبكر لعله قبل مشرق الشمس .. ووصلنا « ويسبادن » بعد نحو ست ساعات لم يخالطنا فيها السأم مطلقا بين جو القطار ، والدنيا التى كان يجتازها بنا القطار ..

وكان اليوم يوم الأحد .. يوم عطلة القوم ! .. وتناولنا غداءنا فى مطعم أنيق كسائر المطاعم والمحلات وككل شيء رأيناه هناك .. وكانت لحظات سعيدة فى هذه المدينة التى يلوح انها صغيرة الا أنها بدت يومها حافلة بألوان السحر والجمال .. الى حد لا يطاق ..

ثم ودعناها ضحى اليوم التالى .. وركبنا القطار من « ويسبادن » وبعد ساعتين كنا فى مدينة « بون » القرية التى اتخذوها عاصمة .. مؤقتا .. فى انتظار حلم « برلين » ! ..

ووجدنا من يستقبلنا فى محطة القطار مندوبا عن « وزارة الصحافة والاستعلامات » التى تفضلت فاستضافتنا بعد ان ودعنا ـ أو ودعتْنا ! ـ ضيافة « لوفت هانزا » ..

كان اسمه « فرانك كبس » لم يتخط العشرين من عمره ..

وكان أبوه من أسرى الأمريكان فى الحرب ..

وكان هو وأمه وأخته فى المنطقة الشرقية .. وفر منها فى احضان أمه الى حيث يعيشون الآن فى ألمانيا الغربية عيشا طيبا ، كسائر الذين فيها .. أما أخته فقد ماتت هناك بعد مرض لم يكن دواؤه موجودا فى تلك المنطقة ـ أو اللعنة ـ الشرقية ! .. ان والده يشغل وظيفة فى « العلاقات العامة » التابعة لوزارة الصحافة والاستعلامات ..

وهو ـ اى زميلنا فرانك ـ يدرس القانون واللغات الرومانية فى جامعة « فرايبورج » فى سويسرا .. ويعود فى أيام العطلة ـ فى مثل هذه الأيام ـ الى « بون » ليعمل خلالها بين اهله ، فى أية مهمة كالمهمة التى هو فيها معنا الآن بأجر يعينه على الحياة ..

وأخذ يحدثنا عن فرحه بنا وبمهمته معنا .. وشوقه الى العرب ، ولغة العرب .. وتبادلنا الاشواق والمشاعر .. والسيارة تجتاز بنا « بون » التى بدت صغيرة حقا بعد « فرانكفورت » و « ميونيخ » و « هامبورج » .. ومدن اخرى .. غير ان عليها طابع المدينة التى اخذت تتطور ، وينتشر فى ضواحيها العمران ، كالتى كنا نجتازها ـ ونحن مع فرانك ـ فى طريقنا الى « الأوتيل » بين ضاحية ملؤها الشجر .. والغاب .. وفن رائع من العمارات والتخطيط المنسق البديع ..

وبدت المسافة بعيدة بين مدينة « بون » وبين « الأوتيل » الذى استضافونا فيه .. غير انه كان على شاطىء « الراين » وشعرنا بشىء كالخيلاء عندما أكد لنا « فرانك » أن هذا الاوتيل ـ واسمه « درش » ـ قد اجتمع فيه هتلر وموسولينى وتشمبرلين يوما من الايام .. اجتمعوا ليسألوا هتلر عن نواياه وان لم تكن فى حاجة الى سؤال أو جواب ..
فقد كانت الحرب والدمار .. الى آخر القصة التى انتهت فوق التل .. على الشط الذى كان يواجهنا ، ونحن فى .. صالة الاوتيل ..

كان هناك فى أعلى التل مبنى مستدير قال « فرانك » وهو يشير اليه : انه فندق « بترسبرج » الذى وقعت فيه اتفاقية عام ١٩٥٥ بين « اديناور » وممثلى دول الاحتلال !

وربما كانت المسافة التى بين الاجتماع الاول قبل الحرب فى اوتيلنا .. وبين الاجتماع الثانى بعدها فى الفندق المقابل ـ كالمسافة التى بين الشاطئين المتعانقين على نهر « الراين » مسافة تافهة !

وذهبنا نلتمس الغداء مع « فرانك » فى مطعم لا يبعد كثيرا عن الأوتيل .. فى نفس الضاحية ..

وكان فى انتظارنا هناك رجل يبدو عليه الشيب .. والعافية معا .. فى قامة فارعة وتؤدة ، ونظرات تنم عن فهم عميق هادىء للحياة ..

قال : إن اسمه كارل مان من كبار موظفى العلاقات فى وزارة الصحافة والاستعلامات ..

وأخذ يشرح لنا برنامج الرحلة ونناقشه فيه ، ونتناول فى هذه الاثناء بعض شرائح الفخذ من لحم البقر الصغير .. وربما حدثكم « بابا عباس » عن كارل ، فان فى تاريخه

عهدا طويلا من الكفاح ندر أن سلم منه كل المانى من الجيل السابق الذى كتبت له النجاة .. وربما حدثكم عن شخصيات أخرى قال : انه سيكتب عنها .. واقترحت عليه عنوان « لقطات من المانيا » واتفقنا على جملة صور وملامح سيرسمها هو .. وأفليح ان صدق ، فانه كان يبدو عليه ـ منذ استقر بنا الحال فى المانيا ـ انه فى حالة اقرب إلى الهيام !

ومضينا بعد الغداء الى مقرنا الجديد فى اوتيل « درش » .. وكان عشاؤنا رائعا فى صحبة « فرانك » فى مطعم يطل على « الراين » ثم ذهبنا فى صحبته الى ناد شعبى لسمر الطلبة ممن هم فى مثل عمر فرانك !

وكان نومنا حافلا بأحلام المجد والتاريخ فى أوتيل قد اجتمع يوما على موائده أهم أقطاب العالم ...

فى دنيـا المصنع

كان يومنا الثانى فى « بون » حافلا بالنشاط المبكر لادراك القطار الذى سيحملنا الى برنامج اليوم فى « ديسبورج » .. المدينة التى تعج بالمصانع كما حدثونا فى « بون » . وقضينا كالعادة وقتا طيبا فى عالم القطار .. وما حواليه .. حتى بلغنا « ديسبورج » فى ضحى النهار .. ومضت بنا السيارة من القطار الى مصنع « ديماغ » فلم نتبـين الا الملامح التى فى الطريق وهى ـ كما قلت فى حديث سابق ـ ملامـح يذكر بعضهـا ببعضها فيما رأيناه من بلاد الالمان .. ملامح تضج بالعمـران الحـى .. والحضـارة .. وبكفاح شعب كأنما يسابق نفسه الى التقدم .. فى زحام شديد ، الا ان الروعة تسوده والنظام .. ووقفنا فى مواجهة عمارة ضخمة .. أمامها حوض كالبحيرة الصغيرة ، تشكل اناقتها ، وفن الزخرف عليها ، وأزياء الماء التى تتصاعد منهـا ـ لونـا من الشعـر الجميل ..

ودخلنا دنيا المصنع الكبير .. الى اعلى طابق فيه ..

ان ادارة المصنع وحدها هى التى تعيش بين جدران ذلك البناء الضخم .. ورغم ان الموظفين والموظفات بالمئات والآلاف هناك ـ الا ان كل شيء كان يبدو ساكنا ، او كما لو كنا نجتاز شارعا قد خلا من الناس ، فى كل طابق عبرناه .. حتى إستقر بنا المجلس فى الطابق الاعلى ..

كان هناك صالون فخم كأنما ابتلعتنا المقاعد التى رصت فيه حول مائدة كبيرة يلوح انها معدة لما هو أهم فى دنيا الاجتماع والصفقات !

وأخذنا نصغى الى الموظف المختص الذى تصدر المائدة ، وهو يحدثنا عن تاريخ المصنع .. وكيف سلم من دمار الحرب .. وانتاجه من الصلب .. والأسواق العالمية التى يحتل فيها مكان الصدارة .. الى آخر الارقام والايضاحات ..

ثم ساد القاعة ظلام .. وتحولت بفن الازرار الى صالة عرض لعمليات المصانع على « الشاشة » وفى مقدمتها انتاج الحديد بواسطة الذرة .. وأفرانها المخيفة .. ثم كيف يتطور الحديد .. والصلب .. الى انتاج سريع بين عدد كبير من العمليات التى تجرى وتتم وحدها .. ليس وراءها الا عباقرة فى ثياب عمال يعدون على الاصابع ، مهمتهم الضغط على الأزرار ، ومراقبة تلك العمليات ، وهى تجرى بنظام أدق من نظامنا فى الاكل والشرب .. وتبديد اليوم والعمر !!

وثقل رأسى من الجو العلمى الهادىء الذى نحن فيه ، وغلبنى ما يشبه النعاس ، فكنت أقاومه بشده ، حتى انتهى العرض .. ومضوا بنا الى اسفل العمارة الضخمة ..

كان هناك مخزن للذّرة التى تستهلكها المستشفيات .. وهناك نماذج صغيرة لكل صورة من صور انتاج مصنع « ديماغ » منها الرافعات الضخمة التى تنقل اثقل السفن والحمولات بين البحر والشواطىء .. وحدثونا انه قبل الحرب كان ثلاث منها على شواطئهم ، ثم بعد انكسار المانيا ، أخذت احداها أمريكا وأخذت الثانية فرنسا ، وطلبت الأخيرة من الالمان ان يرسلوا من يقيم لها الرافعة المغتصبة ، فأبى الالمان المنهزمون ... وكان ان جازفت فرنسا الخائبة باقامتها .. وكانت النتيجة ـ لما حدث فى ذلك من اخطاء فنية ـ هى أن هوت الرافعة الى البحر ..

وقصة فرنسا مع الالمان قصة طويلة !

* * * *

ثم انتقلنا من دنيا الادارة الى دنيا المصنع .. ورأينا عيانا بعض ما قد رأيناه .. خيالا على « الشاشة » .. فى قسم واحد من اقسام المصنع فحسب ..

آلات ضخمة فظيعة ، وجسور فى الهواء .. وأفران .. وجهنميات كثيرة تضع انتاج الحديد فى قوالبه التى قد يلوح بعضها تافها كحجم الثلاجة الصغيرة ولكن قيمته تزيد عن خمسين الف مارك ..

ثم كيف ينتقل الانتاج من مكان الى مكان .. ويتطور فى هذه الأثناء .. ثم كيف يبدو العمال عددا تافها بين ذلك العدد الهائل من الالات والانتاج ؟ .. وكيف يمارس العامل اختصاصه .. ولا يتعداه .. الى آخر ما قد لا يجدى فيه الحصر والاستيعاب بالأرقام .. والأسماء .. كما قد تجدى الفكرة وحدها باجمال .. وهى أن العقل الانسانى

صنع الشىء الكثير .. غير ان قسما منه لايزال كالقسم الذى يقال انه غير مضىء فى عالم القمر ! ..

وكان الجوع قد بلغ منا فى هذه الأثناء ، وقد حانت عطلة الغذاء للعمال .. واخذ ذلك العدد الضخم الذى يشبه النحل ـ أخذوا ينصرفون فى اناقة ، وأدب ، ونظام الى مطعم خاص بهم .. فى جناح من المصنع الكبير .. الا أنه كأفخم المطاعم فى بلادهم ، والغذاء فيه من أحسن الغذاء هناك .. وكنا مدعوين الى الغداء عندهم .. وكان مندوبهم يحدثنا ونحن فى طريقنا الى المائدة عن عمليات الاختراع وكيف ترسمها عقولهم داخل الغرف الصامتة ، ثم ترسل من قسم الى اخر فى المصنع ، لدرس الاختراع ، واعطاء الملاحظات عليه ، وكيف يتطور الاختراع ، فاذا هو انتاج جديد فى أسواق الصلب .. ليس فى ألمانيا وحدها .. بل فى العالم ..

قلت لمحدثنا ، ونحن على المائدة : هل تخترعون الاسلحة ؟

قال : لا .. ولمعت عيناه ببريق عجيب ليس من معانيه الفشل واليأس مطلقا ..

وتسلمتنا ادارة الميناء .. أو لعلها ادارة البلدية ـ فما أذكر الآن .. وقد كان يشغلنى عن التسجيل أن أعيش ما أنا فيه ..

وذهبنا فى ضيافتها .. الى « الراين » ..

وكان جوا شعريا على المركب الذى هام بنا على النهر فيا يشبه الاحلام ..

العلم هناك فى المصنع .. وعلى الشاطئين تقذف الدخان كالحمم آلاف المداخن التى يعيش تحتها العقل والمصنع ..

وهنا على النهر .. ومد البصر .. شعر .. وسحر .. وخلق رائع صوره الخلاق البديع ..

كيف لا يتطور شعب فى تاريخه ذلك العقل .. وهذا الشعر ؟ .

* * * *

وعدنا أدراجنا .. بعد العشاء فى نفس الضيافة التى امتدت بنا .. حتى ركبنا القطار الى « بون » ..

وبلغنا الأوتيل فيها حوالى منتصف الليل .. ومضى « فرانك » زميل الرحلة فى بون .. وذهبنا نلتمس عشاء آخر .. وكان الجوع يساور بعضنا هناك فى شكل المفاجأة أحيانا بين الوجبات ! ..

وفى المطعم الذى تغدينا فيه أول يوم فى « بون » تناولنا ما تيسر من الطعام الذى نظل فى حيرة طويلة قبل اختيار اصنافه ، لأن لحم الخنزير أو دهنه شائع فى الطعام هناك بمعدل كبير ! . وهو لحم فيه معنى القذر والنجاسة .. وربما كان شىء من هذا المعنى شائعا هناك .. وان صقلته الحضارة فى ثوب بهيج لماع ! ..

* * * *

وكانت موائد المطعم قد خلت الا من بعضهم .. فى انسجام .. وأدب .. تحت الأضواء الخافتة على الموائد .. وفى الزوايا ..

وكنا عرضة للسؤال والتعليق فى كل محل ندخله هنا وهناك ، غير أن الأمر لم يكن يعدو حدود الفضول المؤدب .. فلم نشعر بما قد يكرب الغريب من مثل هذا الفضول فى بعض البلاد ! .. بل كنا نشعر بالطمأنينة .. وبالجرأة ايضا والاعتداد .. أوكما لو كان كل منا رب المنزل .. فى بيت الشاعر المعروف ..

وعندما خرجنا من المطعم فى وقت متأخر من الليل ، أخذنا نبحث عن « تاكسى » والبحث عن « تاكسى » هناك معناه المشى الى مواقف « التاكسى » المعينة التى نجهلها ، أو مخاطبة تلك المواقف بالتليفون من حيث نكون ليجىء « التاكسى » ..

وهكذا ظللنا نمشى ونتوقع مرور « تاكسى » بلا جدوى .. حتى قادتنا المصادفة وحدها الى موقف تجمع فيه سائقو « التاكسيات » ينظرون الى السماء .. وانحشرنا بينهم نسال عن الخبر .. وانطلق كل منهم يشير بأصبعه الى اتجاه معين فى الفضاء .. كان هناك الصاروخ الأمريكى الذى لا أدرى متى أطلق .. ولكننا رأيناه ليلة الاربعاء (٨٠/٢/٢٤ ـ ١٧ أغسطس ٦٠) .. كان يبدو كالنجمة ، وكأنما يسير فى اتجاه مضاد لسير النجوم .. كما لاح اذ عبرت به على البعد نجمة أخرى .. وقال سائق التاكسى ما قاله عن الصاروخ والمرات التى دارها ـ كما قال ـ حول الأرض .. الى آخر ما قال .. فقد كنت فى شبه اغفاء .. بعد يوم .. حافل .. طويل ..

مِن بُون .. إلى برلين

يومنا اليوم رسمى فى « بون » فقد ذهبنا فى صحبة « فرانك » بعد التاسعة والنصف صباحا الى وزارة الصحافة والاستعلامات .. التى تفضلت مشكورة بدعوتنا كما سبق .. ولم تكن تبعد كثيرا عن الأوتيل الذى سكناه .. كانت فى نفس الضاحية .. وهناك ايضا كان بيت « ادیناور » وغيره من كبار أهل المانيا .. وقد يتندر بعضهم بأن السر فى اختيار « بون » عاصمة ـ ربما كان هو أنها مسقط راس « أديناور » ! .. غير أن الحق كما أبداه بعضهم هو ان مدنا كثيرة تتنازع المجد والحق فى أن تكون هى العاصمة بعد « برلين » . وهم يعتبرون هذا الوضع القائم الذى يشطر ألمانيا الى شطرين ـ يعتبرونه مؤقتا .!

ولهذا كان اختيار « بون » .. فضا للاشكال ، أو لأى نزاع بين المدن موضوعه العاصمة .. فى انتظار الوضع الصحيح .. بعد المؤقت !..

وكان مقر الوزارة فخما وجيها ككل شىء هناك ، وان تفاوتت النسب حتما بين المقامات .!

وظللنا ننتظر عودة « فرانك » الينا فى ردهة العمارة الضخمة التى تسكنها الوزارة ..

ثم أخذنا فى « أسانسير » الى الدور الاول أو الثانى ـ لا أذكر الآن ـ الى غرفة من الغرف الكثيرة التى أغلقت أبوابها على من فيها ممن يعملون بهدوء يشمل الدور .. والعمارة كلها بلا استثناء ..

كان فيها « كارل » موظف الاستعلامات الذى تغدينا فى صحبته أول يوم فى « بون » ..

وهناك تلقينا تعاليم الزيارة بأدب رقيق ..

وبدأت دورتنا بين الغرف الصامتة .. من غرفة لأخرى ..

وحسبى الايجاز هنا ، فان التفصيل لم أدونه ، وهو أقرب الى أن يكون من اختصاص الزميل عباس فائق غزاوى ، فقد دخلنا غرفا كثيرة ملؤها من الأرض للسقف ، أجهزة ضخمة مهمتها الأخذ .. والارسال .. والاذاعة .. والاستعلامات ... وسلسلة فنيات دقيقة .. ليس بينها الا عدد قليل من الموظفين والموظفات ، كان كلٌ منهم ، جهازاً، أو أجهزة البث من كل مكان.. وأجهزة تترصد اذاعات مخصوصة

كاذاعة موسكو مثلا !.

وأجهزة توزع .. وأخرى تجيب على الاستعلامات .. وكلام كثير ليس فى وسعى تفصيله .. وربما كان فى وسع الاستاذ عباس ، فقد تبادل الحديث معهم كثيرا فى تلك الغرف .. وكنت أقف مندهشا أمام عبقرية سائدة هناك .. اسمها العلم .. والنظام .. والخلق .. وأذكر أنه سألهم عن اذاعتنا .. هل تسمعونها أو يترصدونها ... أو نحو هذا السؤال .. ولا أدرى على وجه التحديد ماذا كان جوابهم .. غير أننى أذكر فقرة منه معناها أنهم يسمعون أخبارنا من اذاعة اسرائيل .. واسألوا الزميل عن التفاصيل .. ولعلهم قالوا فيها : أن ضعف صوتنا هو المسؤول ! المهم اننى شعرت بالملل بعد طواف مستمر لا جلوس مطلقا فيه ، بين الغرف والاجهزة .. وايضاحات المختصين ـ نحو ساعتين ..

ثم مضينا الى قسم اخر مهمته الصحافة .. بنفس الأجهزة .. والنظام .. والاستعدادات ..

ثم مضوا بنا أخيرا الى مدير مكتب الشرق الأوسط للاستعلامات .. وكان كريما فى استقبالنا .. قال : انه يعرف اللغة العربية قراءة ، ولكنها ثقيلة على لسانه فى النطق .. وضرب لنا مثلا عمليا بكلمات نطقها وتبادلنا الود والمجاملات ..

ثم لم يطل جلوسنا ، فقد كان عنده فى المكتب محمود كامل المحامى ، وهو كاتب مصرى معروف .. ويبدوانه كان فى مهمة قطعتها زيارتنا ، وقد تأخرنا عن الموعد الذى كان محددا لنا بضع عشرة دقيقة كما يلوح ..

* * * *

ثم ذهبنا الى سفارتنا ..

وقضينا لحظة طيبة فى جو الوطن الحبيب بين الاساتذة محمد عبد الرحمن العنبر وغيره من الاصدقاء .. وتحدثنا عن الألمان وتبادلنا الأشواق .. اما الأخبار فلم يكن فيها جديد ..

كان آخر عدد وصل الى السفارة هناك من جريدة « البلاد » قد وزع قبل أن نسافر من البلاد .. أى قبل نحو خمسة عشر يوما ! .. واتصل ليلنا بيومنا ، فقد كنا مدعوين الى العشاء فى دار الصديق الاستاذ العنبر .. وكانت ضيافة كريمة من ضمن اصنافها « السليق » .. عدا أنها جمعت كل ، او معظم ، رجال السلك العربى .. والأصدقاء

القادمين حديثا من موظفى وزارة الخارجية الى السفارة فى « بون » والذين سينزحون منها الى جهات اخرى .. وبعض المواطنين العرب أيضا ..

وكان كل من لقيناهم ـ من موظفى وزارة الصحافة والاستعلامات التى استضافتنا فى مقدمة من حضروا حفل الصديق الكريم ..

وكان الجو عربيا يسوده الصفاء والود ..

وتحدثنا عن العرب .. وتطور الألمان .. وموقفهم من العرب .. وكيف أجدى ويجدى التكتل ..

ولعل الاستاذ العنبر هو الذى روى لنا أمثلة لموقفهم ـ أى ممثلى العرب ـ مجتمعين ضد بعض المناسبات ، مما اضطر الألمان الى احترام تكتلهم وتحقيق رغبتهم فيه ، كرفضهم بالاجماع الحضور الى حفل تقدم عليهم سفير اسرائيل فيه .. فقد اضطرهم الرفض الى تأخير من قدموه فى الحال ، ليحضر الممثلون العرب .. وكموقفهم ـ ايضا ـ ضد اجراء كان يهدد سلامة الجزائريين المقيمين فى المانيا بالخطر ، ويعرضهم لفتك العصابة الفرنسية التى تقتل الجزائريين فى كل مكان ، فيما لو استجابت المانيا لطلب فرنسا اغلاق الدار التى كان فيها معنى الحماية لهم هناك .. لقد اضطرهم موقف ممثل العرب لرفض طلب فرنسا ..! ومواقف اخرى ..

* * * *

وانفض السامر قبل منتصف الليل .. وقد طاب الكلام فى جو عربى لذيذ ..

وأخذ « كارل » يصافحنى ، ويؤكد لى أن موعد السفر غدا الى « برلين » هو الساعة الثامنة قبل الظهر .. ويهز رأسه .. ونظارته الأنيقة تلمع على عينيه بمعنى ان موعد الطائرة لا يحتمل التأجيل ، كأى موعد آخر مما تعود قصورنا عن مجاراتهم فيه بالدقيقة كما يفعلون .. ويحبون ..

ومع هذا فاتتنا الطائرة التى كان محجوزا لنا فيها الى « برلين » .. كنت أظن أن موعد حركتنا من الأوتيل الى المطار هو الساعة الثامنة .. وصح أنه هو الموعد الذى يجب أن نكون فيه .. فى المطار .. وعدا ذلك فقد استغرقنا أكثر من ساعة فى الطريق ، من الأوتيل الى المطار .. كان الطريق طويلا ، والمطر يتساقط غزيرا .. بل لقد كان السائق يسرع بنا فى غمرة من الضباب والمطر الغزير ..

وفى اللحظة التى وصلنا فيها المطار كانت الطائرة تتحرك لترتفع وتطير الى

« برلين » ..

وقيل لنا ـ بعد الشعور بالخيبة .. وبالأسف العميق ـ أننا سنذهب فى طائرة أخرى قضينا نحو ساعتين فى انتظارها .. غير انه كان انتظارا غير ممل فى مطار « بون » ..

ثم حلقت بنا الطائرة فى زوبعة مستمرة من الأمطار والغيوم ، كنا لا نرى معها الا ان الطائرة تسبح فيما يشبه البحر ..

وبعد ساعة ونصف نزلنا فى مطار « دسلدروف » وظللنا نصف ساعة فيه ..

وعلى « البوفيه » الانيق تعرفنا أو تعرف الينا شاب مكافح من لبنان يحيا فى جنوب افريقيا .. والوحدة العربية تتعارف هناك بملامحها قبل الكلام ..

ثم ركبنا الطائرة مرة أخرى الى « برلين » ..

وكان فى انتظارنا زميل جديد للرحلة ، جاء لاستقبالنا فى المطار .. ثم أخذنا للأوتيل الذى أعدوا نزولنا فيه .. وهناك التقينا بالأساتذة صالح جمال وحامد مطاوع .. كانا يستدبران المطعم ، وكنا فى استقباله جائعين .. كما استدبرا « برلين » فى نفس اليوم الى « ميونيخ » فقد كانت رحلتهما توشك على الانتهاء .. ثم مضى بنا « أوده » ـ وهذا هو إسم المرشد او الزميل الجديد فى « برلين » ـ الى مكاتب وأبراج « التليفزيون » .. واذا هى نفس النظام .. والأجهزة .. والعلم .. الى آخر المزايا القوية فى كل عمل هناك ..

وبعد حفلة شاى قصيرة فى المقهى الخاص بموظفى وعمال « التليفزيون » ـ ذهبنا الى مكتب الاستعلامات الذى كان من موظفيه زميلنا الجديد « أوده » وقضينا وقتا طيبا فى زيارته .. ثم غادرناه .. وقد أوشك المساء .. وقضينا سهرة رائعة فى فندق « هيلتون » ..

كانت « برلين » تحتنا بأضوائها اللامعة ، ونحن فى الطابق الأعلى من الفندق ..

وعلى البعد كانت تلوح أنوار قال « أوده » انها على الحدود بين برلين الشرقية .. والغربية .. او ـ على حد تعبيرهم ـ « ايست برلين » و « ويست برلين » !

ومضينا الى الأوتيل على أقدامنا .. ومررنا بشارع كبير كانت آثار الخراب والحريق فيه .. وقال « أوده » : ان هذا الشارع وقعت فيه أكبر معركة على أرض برلين بالأيدى بعد الهزيمة .. حقا لقد كانت فيه ـ بل فى برلين كلها ـ رائحة المعركة .. بل ورائحة الحرب .. وكأنها وقعت قبل أيام .. ومن يدرى ؟ ربما اشتعلت أيضا من هناك ! .

الطيّار الذي سقط في البحر

اسمه « هارتنق » ووظيفته قائد مكتب الاستعلامات والصحافة فى « برلين » .. ومعذرة ان كان فيما رويته ، أو ارويه شيء من الخطأ او من التحريف ، فأنا أروى عن الذاكرة غالبا .. وقد كان همى أن أعيش واقعا كالحلم ، لا أن اكتب ـ ولو رؤوس أقلام ـ الا فيما ندر . وأحسن الرجل استقبالنا وقد ذهبنا لموعد زيارته المحدد فى برنامجنا بعد عصر يوم الجمعة .. اليوم الثانى من أيامنا فى برلين ..

ومضى ونحن فى اثره ، نجتاز الممر ، ثم غرفة الجلوس ـ الى شرفة تطل على البحيرة من بيته الأنيق .. وكان الجو يفوق الخيال ..

فيه المطر .. والضباب .. والبساط الأخضر .. وأسراب من الطيور .. بيضاء .. يبدو كأنها تلثم البحيرة فى شكل هندسى بديع ، ثم تحلق هياما فى الفضاء .. وقوارب الصيد على الماء و .. الى آخر الشعر الحالم .. فى جو غائم رقيق ! ولاح « هارتنق » وافر الشخصية فى قامة ممتلئة فارعة ، كأنما هو بها أحد أبطال الرياضة أو الحرب .. وكان حقا من الأبطال ..

كان من قواد الطيران فى الحرب العالمية الثانية ..

وبدا استغراقى وكل اهتمامى يتحول اليه .. والى قصة ماضيه يوم أسقطت طائرته فى البحر الأبيض المتوسط وكانت جيوش رومل تحاصر « العلمين » وظل يسبح ، بمنتهى اليأس والكفاح ، نحو عشرين ساعة .. حتى اذا بلغ اليابسة لم تطل سلامته كثيرا وأمسى وأصبح فاذا هو من الأسرى فى قبضة الانجليز ـ فى قصة طويلة ـ كقصة إمرأته التى كانت خطيبته حينذاك الا انها كانت من نصيب الأسر الشيوعى فى أواخر الحرب .. وكانت على درجة عالية من الدراسة والشهادات فى علوم الطبيعة الى حد « الدكتوراه » بتفوق .. غير أنها رفضت ان يستغل الروس موهبتها العلمية .. وبعد قصة كفاح مرير ، آوت هى وزوجها الى حيث كتبت لهما حياة جديدة فى القطاع الغربى من برلين .. هو فى « قيادة الاستعلامات والصحافة » وتمارس هى مهمة التدريس الجامعى بنشاط كبير .. ووجدت ضالتى فى رجل عاصر العهد القديم والجديد ، وقد كنت أبحث عن مثله فى درجة الوعى والحس ، للتعرف الى حقيقة الشعور الناضج بالعهد الذى كان .. أيام هتلر ..

ورق الجو .. ولمح هو تخوفنا من البرد فى الشرفة المطلة على البحيرة .. وقد خفت ضوء النهار فاستجبنا لدعوته الى غرفة الجلوس التى كانت تبدو ، كسائر البيت ، نسقا هادئا لا فضول مطلقا فيه ..

ثم أبدى استعداده للجواب على كل سؤال ..

نيتشه بداية الكارثة

وجرى الكلام ـ أول ما جرى ـ عن العهد القديم .. كيف هو .. ومشاعر القائد الذى كان طيارا محاربا فى ذلك العهد ؟ ..

هل حارب عن ايمان بهتلر وبمبادىء هتلر ؟ اوكان جنديا مسخرا يلعن المبدأ اذ يجرفه طغيان المبدأ للحرب .. مكرها .. غير بطل ؟ ..

ثم .. ما هى حقيقة مشاعره فى العهدين .. قبل الحرب وبعدها .. الى اليوم ؟ ..

ولم يطو الرجل شيئا من سريرته .. والحق يقال ..

كان يبدو عليه أنه كمن يرجع لأغوار بعيدة فى نفسه وهو يتحدث باسهاب ، وبانفعال عميق عن هتلر .. وعن عهد هتلر ..

لقد بدأ من « نيتشه » الفيلسوف الذى يلوح أنه مات حقا فى أذهان الألمان ، الا قليلا من طراز « هارتنق » فى ثقافته ومستواه ..

كان يبدو على معظمهم أنهم لا يتذكرون شيئا بهذا الاسم .. مع أن فلسفة نيتشه ـ كما حدث « هارتنق » ـ كانت بداية القصة .. دينها القوة .. وسحْق الضعف .. ومن هنا جاءت ابادة هتلر للملايين اليهود ـ الأمر الذى استطرد اليه « هارتنق » ثم عدل عنه بعد أن رجوته الاستمرار فى قصة الفلسفة التى كانت تدين بالقوة ، وبمبادىء التفوق ونظرية الشعب المختار ـ مما تشبعت به أحلام هتلر ، فأخذ يترسمها اذ تقلد زمام الأمر والسلطان ..

وكان راسبا فى شعور الألمان أن جزء من أرضهم قد اغتصب بعد الحرب الأولى ، فاستغل هتلر هذا الشعور فى ضوء تلك المبادىء .. وبدى أنه حل أزمة العاطلين التى كانت قبل ان يتسلم الأمر ، وإن كان الحل هو تجنيدهم للحرب .. ولاشك أيضا فى أن المانيا قد تطورت حينذاك ، الا ان معظم تطورها كان موجها لصالح الحرب ! ..

ثم لم يكن يعلن نواياه منذ صار دكتاتورا ..

كانت خططه تفاجىء الألمان اذ تفاجىء العالم معا وفى نفس الوقت .. غير أنهم كانوا يتوقعون فيه الاخلاص .. ومقدمات الحرب كانت ترجح الانتصار .. وتاريخ الهزيمة بعد الحرب السابقة فى أعصابهم ، ولهذا لا يبدو خطأ أو شذوذا أن يكون هو - اى هارتنق ، او معظم الالمان - قد حاربوا بكل ايمان وإخلاص للهدف .. وهو التفوق والانتصار ..

ثم جاءت الهزيمة الساحقة .. فى شكل نهاية للبداية الفاشلة التى كتبها نيتشه .. واحتضنها هتلر .. واتضحت نوايا وحماقات الزعيم المستبد حينئذ .. ولكن بعد فوات الأوان ! ..

هجرة اللاجئين

ثم ..

ثم .. تحدثنا عن اللاجئين .. وقيل يومها لنا ونحن فى زيارة مدينة اللاجئين ان عددهم اليومى أربعة آلاف .. قلت : ان هذا العدد ضخم كبير اذا استمر يعنى جلاء السكان بالتدريج من ألمانيا الشرقية الى الغربية .. ثم هل يخفى على الروس مثل هذا العدد ؟ كيف يتغاضون عنه كل يوم ؟ وكان معنى وخلاصة جواب « هارتنق » ان هذا العدد الذى قد يلوح ضخما ، انما يشكل نحو مليون ونصف فى السنة ، فهو لايبدو ضخما اذا قيس بعدد السكان فى القطاع الشرقى (وحقا .. انه فى الاحصاء المطبوع ١٧,٣ مليون نسمة) ثم ان هذا التضخم فى عدد المهاجرين لم يكن من الأساس .. انما تدريجيا .. حتى انتهى الى الرقم الاخير .. على ان هناك عددا تافها ، لايقاس بهذه النسبة ، قد يذهب من الغربية الى الشرقية .. ثم لايعود ، لعوامل شخصية أو محلية .. او لعامل الضغط والتعسف من الحكم الظالم هناك .. ومما لاشك فيه ان الروس لايخفى عليهم واقع الهجرة ، ولكن من أهدافهم أن يجلو السكان الأصليون - عن بعض المناطق المتاخمة لهم على الأخص - ليستبدلوهم بشيوعيين .. وبهذا يتحقق لهم التوسع الاقليمى والمذهبى الذى يحلمون به هناك .. غير ان أى حلم كهذا لن يلاشى الحقيقة ، وهى ان ألمانيا ستظل دائما لألمانيا ! قلت : هل تعنى الهجرة الدائمة أن الشيوعية لم تتسرب لأفكار الذين هم فى منطقة الشرق من الألمان ؟ .. وكان معنى جوابه ان المبادىء الهدامة لاتعدم فريقا من الحمقى أو من الساقطين ، قد يبلغ الايمان

بها فى عقولهم حد الهوس .. وهكذا ـ وعلى سبيل المثال ـ يرأس الحكومة هناك فى القطاع الشرقى رجل كان يدير فى ماضيه بيتا من بيوت البغاء . وكل من تعتمد الشيوعية عليهم هناك من هذا الطراز .. أو نحوه .. ان لم يكن بعضهم فى حالة نفاق لسلطان الظلم .. أما النسبة الكبرى فانها تبغض الشيوعية ، ولاتعترف بها ، والا لاستقرت الأحوال هناك ، ولما جاء هذا العدد الضخم كل يوم !. ولم يخل كلام « هارتنق » من تصوير لقصص اللاجئين ومغامراتهم فى الهجرة .. والحق ان ما على ملامحهم فى مدينة اللاجئين ، أبلغ كثيرا من أى قصص ..

لو تكتّل العَربُ

وبدأ الاستطراد فى محله ـ لقصة العرب .. والألمان .. واليهود .. بعد قصة اللاجئين .. قلت ـ وأنا أشد أعصابى عن التوتر ـ ما معناه : ان الأمر يبدو غريبا حقا ، فان رأى الألمان ، كما يظهر ، فى وطنهم المغتصب ، غير رأيهم فى وطن آخر اغتصبته شرذمة ملفقة .. اسمها اللعنة الخالدة فى شكل يهود .. كيف تكرهون الاغتصاب فى وطنكم ، ولاتكرهونه فى أوطان الآخرين .. بل تؤيدونه ما وسعكم .. والتعويضات التى تسلح اسرائيل ضد اهل الوطن المغتصب هذه التعويضات وحدها تأييد كبير . ان مأساة اللاجئين من ألمانيا الى المانيا أهون كثيرا من مأساة أرقام مماثلة من اللاجئين المبعثرين فى الأرض من أبناء ذلك الوطن .. ان الشبه فى المأساة يقضى كما أظن باحترامها ، على الأقل ، فى كل مكان . والعرب لم تكن عواطفهم من قبل ضد الألمان حتى يلقوا مثل هذا الجزاء؟ وبدأ «هارتنق» يضرب على الوتر الانسانى فى قضية اليهود!. ونغمات هذا الوتر معروفة منذ بدأ التفكير فى التعويضات .. فقد قيل مرارا وتكرارا : ان الشعب الالمانى قد شعر ـ مؤخرا ـ بوخز اليم فى الضمير مما عومل به اليهود فى أيام هتلر ، وانه يكفر اليوم عن خطاياه ، وانهم ـ أى اليهود ـ قسم من الناس قتلهم وشردهم هتلر ، والانسانية لاتسمح بهذا الطغيان .. فلا أقل من تعويض ما فات ، واستدراك الخطأ بالندم .. ان هذا شىء تحتمه الانسانية .. قلت : حتى ولو ترتب على هذه الانسانية نفس الخطأ الذى تكفرون عنه اليوم ؟ .. انها انسانية عجيبة هذه التى تذرف الدموع هنا .. وتدفن الخنجر هناك .. انها انسانية لحساب جانب واحد فقط .. غير أن « هارتنق » قال مستدركا ما معناه : ان ألمانيا لم تعترف باسرائيل ـ أى أن هذا الخاطر

العرب ! ـ قلت : هذا أغرب ، فانه يشبه الصفع باليمنى والتربيت على الظهر باليسرى فى نفس الوقت .. ثم ان عدم الاعتراف شكل فقط .. والعلاقة المجدية فيما عداه قائمة تكسب به الطغمة وكأنها لاتخسر شيئا بعدم الاعتراف .. واخذ « هارتنق » يعزف نغمة أخرى تصور قضية اليهود عادلة فى اتخاذ وطن قومى لهم ، منذ كانوا بشرا لهم حق السكن فى هذه الأرض .. وطال الجدال والسؤال والجواب ..

ثم ..

ثم ذكرنى ما قاله اخيرا بكلام سمعته فى « بون » مصدره ، كما أظن ، ذو أهمية بالغة ، ان لم يكن من كبار المسؤولين .. قال فى إثر نقاش طويل موضوعه التعويضات : انهم ـ أى العرب ـ لم يكن موقفهم حازما تجاه هذه التعويضات .. لو رفعوا صوتهم موحدا ولو هددوا ، على سبيل المثال ، بالمقاطعة أو بأى صوت فيه معنى التكتل لِصدِّ التعويضات ـ لكان توقفنا عنها راجحا ، ومن ورائنا مثل هذا التكتل يساندنا أمام العالم .. خاصة ونحن فى وضع يقدم الاعتبار الاجدى على وطننا قبل كل اعتبار ..

ثم ..

ثم لم يسعنا غير ان نلبى دعوة « هارتنق » الى مائدة العشاء ، وقد امتدت السهرة ، وطالت الزيارة وجرى الكلام مجرى النقاش فى جو ودى كريم .. حتى ودعناه شاكرين ..

الهولنديون .. بين البحر .. والألمان

ركبنا القطار السريع بعد مشرق الشمس من « بون » فى طريقنا الى « أمستردام » .. وجو الماء ، والشجر ، والسحاب. ، والجبال الخضراء ـ حولنا .. يهيم فيه القطار .. وخيالنا .. كان امتدادا لذلك الجو الساحر الذى ودعناه فى بلاد الألمان .

وقد اتضح اننا دخلنا حدود هولندا منذ جاءنا موظف الجوازات ، لأداء مهمته بايجاز فى القطار ، ثم صراف النقود فاستبدلنا بعض « المارك » ببعض « القولدر » وهو أغلى من « المارك » وكلاهما أغلى من الريال فى قيمة العملة .. وربما فى قيمة الشراء ، اذ تلوح أسعار المعيشة وتكاليفها باهظة فى أوروبا ـ كما يقال ـ وفى بلاد «المارك» وبلاد « القولدر » كما رأينا عيانا بعد أن انتهت الضيافات .. لكن ألمانيا تبدو أكثر غلاء منذ كانت تستورد الى اليوم بعض أصناف القوت والطعام .. من هولندا خاصة .. كما يؤكد الهولنديون ! وربما كانت رخاء فى نظر أهلها ، لاسيا وان متوسط الدخل حسن ، بل متقدم ، هناك .. انما هى جحيم على الغرباء .. وعلى سبيل المثال .. وجبة الغذاء التى تتألف من نصف دجاجة مشوية و « كوب » يتضخم اسمه بالانجليزية أو الألمانية الى حد الأغراء ، ثم يتضح ان فيه شيئا لايكاد يذكر من المرق .. الا انه لذيذ حقا .. ومع هذا « الزفر » المحدود شيء من « المحدقات » ـ هذه الوجبة تكلف الانسان نحو ثلاثة عشر « ماركا » فى ألمانيا .. والمطاعم ـ مع هذا ـ غاصة ليس بالأجانب السائحين ـ بل بالألمان أيضا فى سائر « الوجبات » منذ علمتهم حياة العمل والمصنع ان يأكلوا ، رجالا ونساء ، فى الأسواق !. وتكلف الوجبة من « الأكل الجاوى » الشائع فى مطاعم هولندا ـ نحو ذلك السعر تقريبا .. أى نحو أربعة عشر ريالا ، وأحسبه رقما يكفى احدنا لمرتين فى مطاعم الجاويين عندنا ، مع ان الأصناف ـ قد تساويها « الفلافل » ببعضها ، اذ تحولها الى شيء يلتهب فى الفم ـ لا أكثر ولا أقل ـ دون أى فرق يذكر ، بين المستوى العالى وما دونه ، فى معنى الطعام !. وكنا قد تناولنا عشاءنا ذات ليلة ـ لعلها الاخيرة ـ من نفس الطعام الجاوى الذى بدا وجوده غريبا فى أحد المطاعم هناك .. أما فى هولندا فقد كان انتشاره طبيعيا بعد تاريخها الذى غربت شمسه عن « اندونيسيا » كما غربت وستغرب شمس كل استعمار الى الابد .. وبحكم عامل « الوطنية » فى الطعام المذكور ، كان همنا البحث عنه بمجرد استقرارنا فى

« أمستردام » .

ولقد وصلناها قبيل الظهر بعد سفر نحو خمس ساعات فى القطار السريع .. وتوقفنا طويلا أمام مكتب الاستعلامات والاستقبال ، فى محطة القطار ، للبحث عن « أوتيل » .. وبعد التى واللتيا .. وبعد الرجوع مرارا الى الخارطة .. ثم التليفون من احدى الموظفات ـ وجد الأوتيل .. وسلفا دفعنا أجر يومه الأول ، زائداً عمولة الاجر للمكتب النشيط حقا ، واخذنا الوصل والعنوان ، وتظاهرنا بالفهم وهى تشير الى مقر « الأوتيل » على الخارطة التى كان ما عليها يشبه النمل ..

ولا أدرى ان كان هو من اوتيلات الدرجة الثانية أو الثالثة .. الا ان الغرفة التى دفعنا أجرها تتألف من سريرين يملؤ احدهما ـ أو الغرفة بأسرها ـ « بابا عباس » .. وكانت صاحبة « الاوتيل » أو من لعلها كل شيء فيه ـ كانت تبدو فى منتهى « الأنيظة » .. والدلال !. وعندما لوحنا ببعض طلباتنا اشارت الى « الدرج » والسوق ، بما معناه ان نعول على رجولتنا كل التعويل فى قضاء تلك الطلبات ـ الأمر الذى استدرجنا الى الشوارع فى الحال .. وبسهولة تامة اشار احد الهولنديين وقد استرشدناه ، للمطعم الذى كان غير بعيد عن « الاوتيل » .. فى قلب « أمستردام » .. وكان المطعم خاليا أول الأمر .. ثم لم يمتلىء كثيرا ربما لأننا ذهبنا مبكرين او لأن هذا حال السوق هناك .. وكان غذاء حافلا ملؤه الالتهاب .. والدموع .. ثم ذكريات الأكل الجاوى الشهير فى الوطن ..

* * *

ومضينا بعد الذكريات نتأمل شوارع « أمستردام » .. وبدى على ملامحنا وألسنتنا مايقرب من الخيبة ونحن نقارنها بزحمة الشوارع وأناقتها فى مدن الألمان ، ربما لأن البلديات كسائر الجهات قد يختلف نشاطها فى كل مكان ! ولم يكن هناك بد من العودة الى الاوتيل .. إياه .. للاستجمام .. ثم كانت سهرتنا رائعة ونحن نضرب فى الشوارع كيفما اتفق ، وكان المطر يهطل غزيرا يتقيه الناس بالمعاطف التى لاتغادر جيوبهم .. وبدا ان ليل « أمستردام » احفل من نهارها فى المطاعم وفى المنتديات التى تضم ألعاب الشطرنج وسواها .. وكل أو بعض ما لذ وطاب .. وقضينا ساعة نتأمل الوجوه ، ونتساءل عن الهولندى فيها من الايطالى والدانمركى ، والأمريكانى .. الى آخر ما لايجدى فيه التساؤل .. انها كسائر الوجوه خلق رائع قد يستوى فى مظاهر الشكل

والألوان .. الا ان كل وجه يلوح عالما قائما بذاته كأى عالم مستقل ، وطاب السمر فى منتدى رقيق يتلو فيه البرنامج أخاه ، ثم كانت نهاية البرنامج قصة ترمز لحرية الهوى .. والمزاج .. عند المتقدمين !.

* * *

وبفضل صديق لم نلبث ان تعرفنا به هناك فارقنا أوتيل « الانيظة » والدلال ظهر اليوم الثانى ـ الى ضاحية شعرنا ونحن نستقبلها بأن حكم الأمس اقرب الى الارتجال ، فقد كانت الضاحية رائعة تذكر بضواحى الألمان التى كان مايزال هائما فيها الخيال .. وضواحى أمستردام أو معظمها على هذا النحو مما شمله التجديد بعد كارثة الحرب .. تجديدا متقنا والحق يقال .. وهناك طاب نزلنا الجديد فى أوتيل يجلب العافية ، نظير أجر للغرفة ذات السرير الواحد أظنه عشرة فولدرات « أى نحو أحد عشر « ماركا » بينما كان أجر الغرفة نفسها بتفوق بسيط ـ فى أوتيل « الامبسادور » فى « ميونيخ » ثلاثين « ماركا » مع أقصى المراعاة .. الأمر الذى يؤكد انخفاض مستوى المعيشة وتكاليفها فى هولندا اذا قورن به فى ألمانيا .. وربما فى أوروبا .. كما أظن ..

لقطات مِن هُولنـدَا

كان يبدو على الهولنديين وبلادهم شىء كالعقل ، ووقار الشيخوخة ونشاطها معا .. فى قصة كفاح طويل هدفه السلامة .. لا التفوق !. والحق ان لهم العذر كل العذر بالبحر يطوقهم ، وهم منذ كانوا وسيظلون فى صراعه دائما بعزم لايتطرق اليه الملل والتراجع .. على كر الليالى والأيام .. ولا حيلة لهم أمامه الا السدود .. أفنوا اعمارهم وعبقريتهم ـ فى مثل هذا الكفاح .. والألمان جيرتهم .. فهم والهولنديون كالأشقاء بحكم الأصل واللغة وملامح التاريخ .. ويبدو عليهم الآن انهم أصدقاء ، الا ان ما فى القلوب شىء آخر دلالته البغضاء خاصة فى قلوب الهولنديين الذين ذاقوا مرارة الاحتلال الألمانى السريع أول الحرب .. وقد أخذ الصديق الهولندى يحدثنا عن كارثة هذا الاحتلال بأسى شديد .. ومما رواه انهم أى الألمان ، ذبحوا أربعمائة شخص فى قرية صغيرة من قراهم التى احتلوها ، يقدر مجموع سكانها بألف وثمانمائة شخص ـ قتلوهم .. هكذا .. كمن تأبط شرا هدفه القتل والابادة ، وعذرت الرجل فى أساه .. وتذكرت وداعة الحمام فى ملامح واخلاق الألمان ، ثم لم يدهشنى ان تتطور الى ماترمز اليه القصة من الشر

وضراوة الافتراس ، منذ كان الانسان ـ اى انسان كان ـ جِلْداً أو « كيسا » عجيبا ملؤه الغرائب والمتناقضات .. لقد تصورت ما كان يبدو على وجوه من عرفناهم من الألمان كلما تحدثوا عن الماضى ، أو أشاروا الى تمثال النصر الروسى عند حدود القسمة بين الشرق والغرب فى برلين .. وغير بعيد عنه تمثال شامخ لذكرى انتصار ألمانيا على فرنسا سنة ١٨٧١ ! كان يبدو أن نفوسهم مضغوطة على مايشبه البخار ، وملامحهم وألسنتهم تنطق بمعنى الاحتدام المرير .. وتصورت لو هب الألمان اليوم أو بعد اليوم .. فجأة ـ وربما وقع هذا الذى يلوح الآن كالمعجزة أو كالمستحيل ـ ثم طردوا الروس واحتلوا ديارهم ، فماذا ترون أنهم فاعلون بهم وفى أعصابهم كل هذه الحميً وكل هذا التاريخ ؟ !. ولقد كان حظهم فى الحرب العالمية الاولى نفس الحظ وهو الهزيمة .. ثم انتصروا فى بداية الحرب الثانية ، فاذا أساءوا الى الهولنديين أو الى الشعوب التى جرفها احتلالهم يومذاك ـ فان هذا ، كما أظن ، من عمل الانتقام الطائش فى أعصاب من وسعه الانتقام والظلم .. الانتقام الأهوج فى أعصاب القادر بعد هزيمة ألحقت به الخزى والهوان .. وأين هم الذين احتلوا وأنصفوا من البغاة المستعمرين والاحتلال نفسه عدو الانصاف .. أو ـ كما قيل ـ ليس بعد الكفر ذنب ؟ .. ان الذين يغفرون عند المقدرة ليس هؤلاء المستعمرون منهم على كل حال ..

وسكت محدثنا الصديق الهولندي بعد النقاش فى قضية صراعهم مع البحر .. والألمان .. ثم أخذ يقارن المعيشة ببعضها فى البلدين .. وكان مما استشهد به على تفوقهم توفر اليد العاملة عندهم ، بحيث لاتزاحم المرأة بها فى كل ميدان كواقع الحال فى المانيا .. ثم استطرد الى تأكيد انهم ـ اى الهولنديين ـ ممن يرون ان ميدان المرأة هو البيت .. لاالسوق .. لاأدرى ان كان قد قال هذا من باب المجاملة ؟ أو أنه هو الحقيقة ؟ . غير ان فى مقدمة مايلفت النظر أسراب العاملات فى أوقات الحضور والانصراف من دوائر العمل ، اذ يلوح موكب الدراجات يملؤ الشوارع والطرقات .. والدراجة هناك فى مقدمة المواصلات الشائعة الى حد بعيد .. والحق أن المرأة قد تؤدى عملها لديهم بمثل مايؤديه الرجل ، ان لم تتفوق عليه أحيانا بالجد والمثابرة أو كما يزعمون .. الا ان هذا ـ اذا كان ـ انما يتم على حساب التضحية بأقدس الواجبات نحو النظام العائلى الذى اخذ ينهار فى كل مكان خدعته فكرة المساواة بين الرجل والمرأة ، ولم يقدِّر ـ بالتالى ـ خطورة التضحية فيها ولن يقدرها ـ غالبا ـ الا بعد

الكارثة ، منذ كان النظام العائلى هو بذرة النظام الاجتماعى ، ان لم يكن هو بعينه فى شكل حلقات لابد لاستمرار ترابطها من الصيانة الدقيقة لكل حلقة منها ضد التصدع والانحلال !.

* * *

وذهبنا بعد النقاش فى جولة نهرية طويلة لم نعد منها الا آخر النهار .. وقصة الماء .. والقنوات .. فى هولندا قصة خالدة ، وقد حدثكم عنها بعض الزملاء الذين كانوا هناك ـ بما لا محل لها فى ذكريات خاطفة كهذه عن جولتنا التى كانت ممتعة ، ونحن بين خليط من الناس على ظهر باخرة صغيرة فى شكل « اوتوبيس » عائم يقف عند بابه رجل تلمع نظراته بذكاء الشيخوخة ونشاطها معا ، ليتحدث الى ركاب « الاوتوبيس » فى « الميكروفون » عن ملامح التاريخ فى شواطىء هولندا وعن صراعها مع البحر .. الى آخر ما لم يتوقف حديثه عنه الا فى نهاية الرحلة التى استغرقت نحو ساعتين ..

صُورَة .. للمُسْتَقبل

وجلسنا بعدها نلتمس تجديد النشاط فى « مقهى » بارز على الرصيف .. لم يزدحم بعد بالناس . ولا أذكر الآن كيف أو من أين هبط ذلك « الفنان » ؟ . نعم .. لقد كان فى عينيه شىء بين العقل .. والفن !. وعلى يديه ، أو كتفيه ، أو ما لاأذكر الآن ريشة .. ولوحة .. وأصباغ .. الى آخر أدوات الفن ! وتعرض لنا بالكلام .. يغرينا فيه بالرسم وبعد حوار بسيط بدا مايشبه النخوة على ملامح « بابا عباس » قلت : حقا .. على الأقل .. من باب تقدير الفن .. يجب ان نأخذ بيد الرجل ، واعتدل فى جلسته « بابا عباس » وأخذ « الفنان » ينقل بريشته منه ، ثم يرسمه خطوطا على اللوحة ويصدر اليه تعلياته فى نفس الوقت برفع الرأس ـ رأس الأستاذ عباس ـ أو إمالته الى اليمين أو الى الشمال ، مع شىء من الحملقة فى الفضاء بانسجام وتؤدة !.. وذهبت لقضاء حاجة داخل المقهى .. ثم عدت .. واذا الرسم قد كمل .. وتبارك الله أحسن الخالقين .. كان رائعا حقا .. الا انه لم يصور حاضر الأستاذ عباس .. بل مستقبله اذا تسلق الأربعين .. وبدا على الأستاذ شىء كالخيبة . الا ان فكرة المستقبل الذى تخيله الفنان

لملامحه ، جددت حفاوته بعبقرية الفن .. واقترحت انا عليه ان يتوج الرسم أو يذيله بهذا النص : « بابا عباس فى المستقبل .. كما تخيله فنان شهير » ! وسألنى الفنان وهو يتقاضى الأجر من يد الزميل أو من يدى ـ لا اذكر الآن ! ـ هل يرسمنى ؟ .. قلت : لا .. وَبَرَمَ الرسم جيدا وقدمه لبابا عباس فى جو عاصف من الضحك .. واحترام الفن .. والرسم حاليا لدى الزميل .. أدركوه قبل أن يمثله حقا فى الأربعين ..!

— ●●● —

رحلة اليوم في أوتوبيس

كان يومنا الأخير رائعا فى هولندا ، فقد أخذ المطر يتساقط غزيرا من الصباح المبكر ونحن نتهيأ لمغادرة « الأوتيل » فى تلك الضاحية الأنيقة الهادئة ، التى كانت تبعد بنحو نصف ساعة عن « أمستردام » .. وأخذنا نتبين ملامح الطريق بصعوبة من نوافذ « التاكسى » بين المطر والضباب .. ونستحث السائق لئلا نصل بعد فوات الأوان .. والحق اننا بدأنا نحسب حساب دقة مواعيدهم الى حد الخوف .. ليس من الموعد غالبا ، بل من ضياع ما لعله أغلى من الوقت ، كثمن تذكرة الرحلة التى ارتبطنا بها ذلك اليوم .. وبدى مكتب السياحة هادئا الا من حركة موظفة نشيطة فيه .. ثم آخرين أخذوا يتقاطرون اليه .. وحسبتهم أول الأمر لاجئين بالمكتب من المطر الذى كان مدرارا فى هذه الأثناء .. ثم اتضح انهم زملاء رحلة اليوم .. وظللت أرقبهم .. وأتأمل الشارع الذى كان الناس يتجارون فيه تحت وابل المطر ، حتى اكتمل عددنا كما ظهر من اشارة المكتب لنا بأن نمضى الى « اوتوبيس » كبير .. ومضى « الاوتوبيس » ومضى الخيال فيما حوالىَّ .. هؤلاء فى ملامحهم .. وفى اختلاف ألسنتهم وألوانهم وان بدت ناصعة البياض ـ مثلا ـ أو السواد .. وجو المطر .. والشجر .. والبقر .. والبساط الاخضر الذى يلوح مدَّ النظر .. وفى مقدمة « الاوتوبيس » مندوب المكتب ، يحدث الركاب فى « الميكروفون » عن مصانعهم وآثارهم ومايصادفنا فى الطريق من مفاخر المجد والعمران .. وأحسبنا قد مررنا بعدة قرى وأرياف تهيم فى نفس الشعر والخيال ، غير ان « موسم الجبن » كان هدفا رئيسيا من أهداف رحلة اليوم ..

وبعد سفر نحو ساعتين وصلنا القرية التى يقام فيها « موسم الجبن » كل عام .. وبدت صغيرة حالمة فى جو الرذاذ اذ يقطعها نهر متواضع كان بعض الناس شبه عراة يُجَدِّفُون من بعض القوارب التى تسبح عليه .. وتبعثرنا خلف مندوب المكتب ، وهو يؤكد لنا وللزملاء ان نعود بعد ساعة الى « الاوتوبيس » . ثم انطلقنا الى « موسم الجبن » .. كان يتوسط الميدان ، وقد ازدحم الناس وتكاثروا عليه ، كما ازدحم هو بصفوف الجبن والعربات الأنيقة التى يحملون منها أقراص الجبن ، ثم يرصونها فى الميدان بنظام سريع .. وبدا المنظر تافها لايستحق عندى كل ذلك الجمع والاهتمام ، ثم لم أفهم شيئا عن عملية المزايدة التى كانت تجرى هناك فى ميدان الجبن .. بين ألوان من التجار .. خاصة وقد تحول المطر الى مايشبه أفواه القرب .. وفضلت أن أعود وحدى الى « الاوتوبيس » أو الى حيث أقضى بقية الوقت فى انتظار معقول ، غير هذا الذى كان تحت السماء لأتأمل « مزاد الجبن » الهولندى الشهير .. وأخذت أبحث عن مأوى أنيق أول الأمر غير اننى اندسست ، كيفما اتفق ، تحت مقدمة بسيطة على بعض الدكاكين .. ضمن من تجمعوا ، وقد غسلهم المطر مثلى هناك .. ثم انحشرنا فى مقهى يعج بالناس اذ يطل على « ميدان الجبن » خلف برج عال تدق بعض النواقيس فيه ، وهناك حلقة من تماثيل الخيول تبدو من النوافذ فى أعلى البرج كلما مر الحصان تلو الحصان .. ثم لم يكن بد من العودة الى « الاوتوبيس » فى الموعد المحدد ، برغم أفواه القرب ! وذهبنا الى « السدود » التى تمثل كفاح الهولنديين ضد البحر ، مع صبرهم وبراعتهم فى هذا الكفاح .. وتوقفنا كثيرا عند بعض المظاهر الصناعية .. أو الطبيعية الخالدة فى رهبة تسبِّح بحمد الخالق الكبير .. ثم تناولنا غذاءنا فى مطعم قروى أنيق .. وتجولنا فى بعض معامل الجبن ومحلات قروية بسيطة الا أنها تصنع نقوشا وأخشابا بديعة الشكل والاتقان . ثم ألقى أحدهم على الذين كانوا يواصلون السمع ، فى مكتب صغير هناك ، عدة ايضاحات بالانجليزية ، على الخارطة ، عن قصة كفاحهم ـ ولاشىء غيره ـ مع البحر .. والحياة !. ثم عدنا .. وكان الوقت عصرا ونحن نثب من « أوتوبيس » الرحلة ، لندرك القطار ..

ليلة في القطار

ركبنا القطار قبل مغرب الشمس من « أمستردام » وخالطني شيء كالأسف للزمن القصير الذى أمضيناه .. أربعة أيام مضت سريعا ، كما أخذ يمضى القطار وأنا احلم بوقت أطول كثيرا .. ليس فى « أمستردام » وحدها ، فان بعض من تعرفنا بهم من الهولنديين قال : ان بعض المدن ـ كروتردام ـ ربما تفوقت على العاصمة فى بعض مزايا النشاط والعمران والانتاج ، أو فى بعض مزايا الشعر والجمال .. واذا تفوقت المدن على بعضها فان هذا ليس معناه ان أتفه مدينة او قرية تعيش متخلفة هناك ! . انها ـ بما فيها القرى والأرياف ـ تحتل المستوى اللائق بمن يعيشون فى القرن العشرين ! . ولقد رأينا على حافة القنوات التى تخترق « أمستردام » عمارات تبدو قوية ورائعة أيضا ، رغم أنها من الطراز القديم الذى يرجع الى ما قبل نحو أربعمائة عام ، كما روى الدليل الهولندى الذى كان يرافقنا فى رحلة النهر قبل يومين ، وهذا ـ كما أظن ـ يرمز للتفوق من وقت طويل ! .

وأخذ القطار يتعرج مسرعا بين الحقول والضواحى المترامية ، فى جو المساء الشاحب الرقيق ، وكأن شيئا يظل فيه من ضوء النهار ، فى مثل لون السحاب الأبيض الى وقت متاخر من الليل .. بينما النهار عندنا ـ كما كنت أتذكر هناك ـ ينطوى فجأة ، ثم يسود الظلام فى الحال ، او بلا فاصل طويل .. ربما كان السر طبيعيا .. او فنيا .. فى الشرق والغرب .. وربما كان مجرد خيال ! . وأخذت أتفقد شؤونى فى عربة القطار .. وكانت من الدرجة الاولى ، وان كنت لم أجد فرقا يذكر بينها وبين الدرجة الثانية .. اللهم الا فى ثمن التذكرة .. وشكليات تافهة ما أحسبها تبرر فرق الثمن ، الا اذا تشبث الانسان احيانا بوهم الشكل والاعتبار . ثم كان القطار خاليا الا من الركاب الذين قد يزيدون او ينقصون بين المحطات .. وكنت قد تصورت انواع البارد والساخن من الطعام

والشراب ، منذ كنت اقرب الى الجوع بعد رحلة النهار التى مضت بين « موسم الجبن » والسدود . وبقية الرؤى والاحلام .. الا ان القطار لم تكن فيه عربة طعام ، بل ولا الماء المعتاد الا فى دورات المياه .. وبدا هذا ثقيلا اول الامر ، غير اننا تصورنا المحطة الآتية فرجا محققا لكربة الظمأ والجوع ، فاخذنا نتهيأ لها بحرص شديد ، وفى الوقت نفسه نناقش مفتش القطار ، وهو يفحص تذاكرنا ، فقد كان السفر طويلا مدى الليل كله .. كيف لا يحتاطون اذن بالطعام ، او بالماء البارد ـ على الاقل ـ ان تعذر الطعام .. فى مثل هذا السفر الطويل ؟ !. وكان جوابه ـ الغريب ايضا ـ ان عربة الطعام سوف تلحق بالقطار بعد ان يدخل حدود الالمان ... أى بعد منتصف الليل .. وظل السر فى حالة القطار قبل ، ثم بعد « حدود الالمان » شيئا غير مفهوم عندى الى اليوم ... ثم أخذ القطار يتوانى ويتريث كعادته كلما شارف محطة فى الطريق .. وتهيأت للقفز السريع .. ثم لم أناقش بائع « السندوتش » و« القازوزة » وأنا أحمل ماتيسر من الزاد كيفما اتفق ، بل ولم يتقاضى الثمن الا من نافذة القطار ... انه لاينتظر الا دقائق يواصل السير بعدها ولو ظل كل ركابه على الارض ...

واذا ساد الليل جو القطار هدأت الحركة الا من مسافر يكتب أو يقرأ ، أو يتمدد فى العربة ، أو يذرع ممرات القطار ـ للنظر والتأمل ... وكان يبدو على بعضهم شىء كالانسجام المؤدب فى جو غرامى رقيق ... ولا أذكر الان كم كان الوقت فى ذلك الليل . عندما فتح باب الغرفة رجل أو أكثر .. وَخِلْتُ انهم من أهل عربة الطعام التى ستلتحق بالقطار فى نصف الليل .. وربما تلهفت فى سؤالهم عما اذا كانوا من الالمان ؟ والحق ان الدم يكاد يكون واحدا فى أولئك وهؤلاء ، لاسيما وانهم من سلالة واحدة كما يقال الا ان فى دم الالمان خفة .. عدا انها قد تكون طابعهم على وجه العموم ، منذ جروا العالم ـ وهم فى المقدمة ـ الى الهاوية مرتين .. والله يكفينا شر الثالثة .. وتحرك الدم فى وجه أو وجوه من فتحوا الباب ، بعد السؤال الذى تخيلوا فيه اللهفة مع الهيام بالالمان .. والحق انه كان حينئذ هياما ، فى الدرجة الاولى ، بعربة الطعام المنتظر بعد ان نبلغ حدود الالمان ... ورغم إن إعتذارنا كان رقيقا لاولئك الهولنديين حاولنا فيه شرح فكرتنا بمنتهى الوضوح ـ الا إنهم قد انصرفوا ، كما اذكر الان ، ونظراتهم تُشَيِّعُنَا ببعض الانفعال لما خيل لهم من الخيبة فى مشاعرنا منذ ظهر انهم ليسوا من الالمان .! وأسفت لخيالهم اذ عذرتهم فيه ، خاصة وأنا أتذكر ما فعله هؤلاء ببلادهم قريبا .. غير بعيد ..

ومضى الليل الا أقله .. وجاءت عربة الطعام .. وكان خدمها من الألمان .. وذهبنا اليها فى الحال ، فأكلنا كما لو كنا جائعين من وقت طويل ، ثم عدنا .. ومررنا فى طريقنا بغرف مهيأة للنوم .. فيها سرر بعضها على بعضها ، وقيمة النوم فى احداها ثلاثون ماركا وجدت انها فى غير محلها مطلقا ولو لم نكن من الليل فى الثلث الاخير .! وخيل إلى ان النوم فى عربتنا أمتع كثيرا من النوم ضمن آخرين ، قد يختلف فيهم المزاج .. وأسلوب النوم ! .. غير أننا وجدنا زميلا ثالثا جد ، بعد انصرافنا للطعام فى العربة .. وبادله التحايا والأسئلة والأجوبة « بابا عباس » كما لو كان معه فى برنامج « الطريق » الاذاعى المعروف .. ثم لم نلبث ان استلقينا على المقاعد التى تحولت الى سرر مريحة فى هذه الأثناء .. ثم استيقظنا قبيل الفجر وقد ذهب الزميل الجديد ، واحتل المقاعد الشاغرة بعض الناس .. غير أننا مضينا كما لو لم يكن اى أحد هناك - فى نوم لايبعد كثيرا عن الصحو ، ودوي عجلات القطار تحتنا عنيف ، يرج الأرض فى سكون آخر الليل ..

وكان الصبح قد تنفس ، ونحن نطوى المقاعد ، ونشرئبُ عليها لنتملى بدائع الخلق فى صبح يوم جديد .. كانت .. هى هى .. الدنيا الخضراء .. فى الشجر .. والجبل .. والحقول .. ثم فى أحضان المطر .. والسحاب .. غير أن النقاش الذى ساد جو الغرفة ، قد بدد الشعر والخيال .. كان موضوعه التدخين .. هل هو مباح أو ممنوع فى العربة ؟ وكان أحدهم يؤكد المنع ، والآخر يؤكد جهالته بلغة المنع منذ كتبت بالألمانيه ، وحدها ، على رأس باب العربة .. وأخذ القطار يتريث ويتمهل .. وبدت ملامح المدينة فى مقدمة عمرانها الكبير .. ثم غدت الأبنية الشاهقة فى مواجهتنا .. وفى مقدمتها مبنى المحطة الضخم .. محطة « ميونيخ » .. عاصمة البافاريين .. وكان الوقت حينئذ حوالى مشرق الشمس ..

ذكريات في ميونيخ

كان الوقت ضحى ونحن نمضى فى « التاكسى » الى فندق » الأمبسادور » وهو لا يبعد كثيرا عن محطة القطار فى « ميونيخ » وتدور حركة العمل .. والحياة .. بنشاط عجيب هناك من قبل مشرق الشمس ، اذ يلوح النـاس وكأنهم فى سبـاق على « الدراجات » والمواصلات بأنواعها ـ الى العمل .. والكفاح .. لا يتسكع أحدهم على الأرصفة ، أو يبدد ولو ثانية من الوقت ، الا فى الجد الذى يعنيهم جميعا بلا إستثناء . كان الجو يومها ـ يوم السبت ٢٧ اغسطس سنة ٦٠ ـ أقرب الى الحر الشديد ، ولأول مرة شعرت بجو كجو بلدى هناك فى ذلك اليوم . وكنت اشتريت بعض الهدايـا فى « برلين » بعد تأكيد « أوده » رفيقنا هناك : ان أنتاجها يصدر الى مدن ألمانيا ، وهذا يرمز الى الرخاء ـ غالبا ـ فى مصدر الأنتاج .. ثم رحب الرفيق ، مشكورا ، باعفائنا من اصطحاب تلك الهدايا ـ وكنا سنرجع الى « بون » ثم نغادرها الى هولندا ـ وقال : انه سيبعثها أمامنا الى « ميونيخ » باسم فندق « الأمبسادور » أو مكتب « لوفت هانزا » منذ كانت عودتنا الى الظهران ستبدأ فى خطها الجوى من « ميونيخ » التى كنا بها فى نفس الفندق ، يوم انتهت ضيافتها ، وذهب الضيوف .. بَدَداً .. فى أوربا ، الا الذين عادوا ، وفق البرنامج ، الى الظهران حينذاك . وكنا قد تركنا أغلب الأمتعة فى « بون » بعد عودتنا اليها من « برلين » ذلك لأن رحلتنا التى كانت ستبدأ من « بون » الى « أمستردام » لم نقدر لها الا أياما قلائل يكفى المسافر أثناءها اقل المتاع .. وقد كانت بالفعل أربعة أيام .. وكان وعد « فرانك » زميلنا فى بون ، وعدا مماثلا لوعد الزميل فى « برلين » أى بأن تسبقنا الأمتعة كلها الى « ميونيخ » .

وهكذا كان هدفنا الأول ـ وقد دخلنا فنـدق « الأمبسـادور » ـ أن نسـأل عن الأمتعة .. وأجاب الموظفون بعد تبادل التحية والأشواق باشارة مؤدبة الى عدة حقائب فى جانب من ردهة الفندق كانت بينها الحقيبة التى تركناها فى « بون » أما الأخرى فلم يكن لها وجود هناك ..

وكان برنامجنا ان نطير فى غد يومنا ـ أى الأحد ـ الى روما ، ثم نمكث الى الخميس فى مهد الشعر والجمال ، كما وصفها الشعراء ، لاسيما وأن دورة « الألعاب الالومبية » كانت قد ابتدأت حينذاك .. ثم نواصل السير فى نفس خط « لوفت هانـزا » الى القاهرة ونظل بها الى الخميس التالى ، لنعـود يومـه فى نفس الخـط الى الظهـران . وأحسست أن برنامجنا يتعرض للانهيار بعد افتقاد أمتعة برلين .. ثم لم يكن بد من الاتصال تليفونيا بها ، لنتساءل عن الامتعة التى لم تصل .. الا أن يوم السبت عندهم كيوم الأحد فى واقع العطلة التى تبدأ من السبت فى منتصف النهار .. وهكذا حضرتْ على التليفون « برلين » فى الحال ، غير أن « أوده » المطلوب لم يكن هناك .. ثم لم يكن بد ـ ونحن نتداول مشاعر الخيبة ـ من الذهاب قبل منتصف النهار الى مكتب « لوفت هانزا » فلعل الأمتعة قد أرسلت اليه .. غير أنها لم تكن فيه أيضا .. وطفقنا نتذاكر الأمر مع من يلوح أنه مدير المكتب ، أو لعله موظف رئيسى فيه .. وكان شابا لطيفا ، أحسن مقابلتنا ، وأصغى الينا طويلا ونحن نتناقش أمامه أنا والزميل « بابا عباس » فقد كان من رأيه أن نمضى كبرنامجنا المتفق عليه من قبل ـ الى روما .. ثم اذا جاءت الأمتعة الغائبة ألحقتها بنا الشركة المستضيفة الى الظهران .. ورغم أن الموظف الرقيق أبدى استعداده لذلك ورحب به اذا قررنـاه ـ الا أننـى ترددت فى مغـادرة « ميونيخ » ما لم تصل الأمتعة لاسيما وأن بيننا وبينها أسبوعا كان المنتظر أن تصل فيه قبل التى تركناها فى « بون » منذ أربعة ايام ـ الأمر الذى قد يثير هواجس القلق والظنون ..

وبدا على الزميل أنه كمن يعانى الحرج بين اصرارى .. ورغبته فى السفر ، اذ تبدو مصادرة الحرية عناء كبيرا ربما كرهه أحدنا وان تظاهر ببالغ البشر والامتنان .. اللهم الا من يتقبلونها كما لو كانت مصادرة لحرية أنفسهم بأى طارىء من طوارىء القدر ، كتأخر وصول الأمتعة من برلين .. والحق أن هؤلاء ممن تحظى الصداقة لديهم بالأفضلية وبالاعتبار الأهم دائما لاسيما فى دنيا المشاركات ـ أحسبهم قلة نادرة بين الناس ، أو لعلهم البقية الباقية ممن يطلق عليهم اسم « الدقة القديمة » فى هذه الأيام .. والحق ـ أيضا ـ أن التحرر من القيود فى عالم الصداقة قد يبدو أكثر ضمانا لراحة المزاج ... كما قد يرمز الى النضوج والصراحة معا .. فى تكييف العلاقات على الأساس الأصح .. ولا

أدرى ان كان شيء من هذه الأفكار قد خامرنى وانا أطلق للزميل حريته فى السفر، قبلى، الى روما .. وكان تردده واضحا .. والحق يقال .. غير أن الرغبة فى السفر، كانت فى عينيه أقوى من التردد .. أو كما خيل الى .

قلت ـ وأنا أتذكر الانجليزية التى يتقنها ـ لا تتردد من أجلى ولا تخف على فسأخارج نفسى . وبعد شيء من الصراع بين الرغبة والتردد ، لم يلبث أن حزم أمره وقرر السفر . وتحدد لموعده صباح الغد نهائيا ، وفق البرنامج الذى حالت دون اشتراكى فيه أمتعة برلين ، وان تقرر يومها أن أواصل اللحاق بالزميل فى طائرة الثلاثاء ، حيث كان المنتظر أن تصل الأمتعة فى هذه الأثناء غالبا ..

غير أننى أرجأت البحث فى أمر سفرى ، وفضلت بحث موضوع أهم ، وهو موضوع الوزن الزائد عن المقرر لراكب الطائرة .. وكان بعضنا قد أثار هذا الموضوع قبل أن تنتهى الضيافة فى « ميونخ » غير أنه لم يَبْدُ مهما فى نظرى ونحن فى بداية الرحلة الاضافية التى استغرق حسابها منا كل الاهتمام !. ثم اننى كنت معولا على مبدأ الضيافة ، وانه سيشمل ـ بحكم هذا التعويل والعشم ـ أية زيادة على الوزن المقرر ، فلم أفكر فيها بجد حينذاك ، كما أخذت أفكر الآن .. ونحن على أبواب الرحيل .. وطرحنا الأمر بين يدى الشاب الرقيق .. ومما لاشك فيه أنه قد اهتم اهتماما طيبا بموضوع الوزن الزائد عن المقرر ، ونحن نسأله الرأى فيه ، ثم أخذ يقلب أمامه بيانات كان يود أن يستخلص منها الجواب .. ثم ظهر ـ أو هكذا تخيلت ـ أنه لابد من رجوعه لرأى الآخرين فى الموضوع ، ولهذا ـ كما أظن ـ وعد بالجواب ، وبكل مساعدة ممكنة فيه .. ثم ودعناه شاكرين .. وذهبنا الى الفندق وقد شَكَّلَتْ أمتعتى الغائبة ، وموضوع الوزن الزائد ، وسفر الزميل ـ حيرة عميقة فى نفسى ، وان كان ظاهرها الصمت .. والتشاغل أحيانا بما هنا أو هناك .

وبعد العصر كان « أوده » على التليفون من « برلين » .. وقال بعد السلام والأشواق: انَّه أرسل الأمتعة فى الطائرةَ يوم الخميس ـ أى قبل يومين ـ وبدا كما لو أنه نسى ارسالها فى القطار ، منذ تسلمها ، والحق أنه كان أقرب الى مزاجنا فى التسامح وفى النسيان .. وترجح لدىَّ أن الأمتعة قد وصلت « ميونيخ » الا أن غدا الاحد ، فسوف لا أتسلمها قبل يوم الاثنين .. وخرجنا مساء كعادتنا للعشاء ، والبحث عن طالب عربى من دمشق كنا تعرفنا به فى « ميونيخ » قبل أن نغادرها بعد انتهاء الضيافة .. وكنت قد

أخذت أحلم به رفيقا بعد سفر الزميل .. غير أننا لم نجده .. وكان متوقعا أن لانجده كالآخرين فى ليلة كليلة الأحد لها معناها الراقص هناك .. ثم لم تطل سهرتنا .. وأحدنا يتهيأ للسفر فى الصباح المبكر ، وقد كان الجو ممطرا ، وكنا متعبين من ليلة البارحة فى رحلة القطار من « أمستردام » حتى « ميونيخ » .. غير أن هذا لم يمنع تصور الوحدة غدا بعد سفر الزميل ، وأنا أتهيأ للنوم بشعور ملؤه القلق .. والتعب ، وظللت أتخيلها تجربة عنيفة .. أن أظل وحدى فى بلد من طراز « ميونيخ » واللسان الأعجمى ينقصنى الى حد قد يبرر الاهتمام .. خاصة بعد افتقاد من يؤانس الوحدة هناك .. غير أن سهرى لم يطل ، وان ذهبت أحلامى فى نفس المعنى .. والخيال .. وصحوت مبكرا قبل أن تشرق الشمس لوداع الزميل وهو يمضى فى الموعد المحدد ، الى المطار .. فى طريقه الى روما .. وأشرق علىَّ وحدى فى « ميونيخ » يوم جديد ..

الوحدة عبادة

ظننت أنها ستكون تجربة عنيفة أن أظل وحدى فى ميونيخ .. فى انتظار الأمتعة الغائبة من برلين .. وأخذت أتصور أنه قد يطول الانتظار ، وربما اقتضى الأمر الدخول فى « معاملة ! » تدور بين ميونيخ وبرلين .. موضوعها الأمتعة ، فمن يحل الأشكال فى لغة « المعاملة » أو أى كلام هام لايجدى فيه الا اللسان الضليع ؟ هذا .. بالاضافة الى مشكلة الوحدة التى قد لاتطاق فى هذه الأثناء . ؟ ثم لا أدرى - على وجه التحديد - كيف لمعت فى رأسى حينذاك فكرة الاستمرار فى ميونيخ .. حتى ولو جاءت الأمتعة ؟ والحق أنها مدينة رائعة ، لاتقل متعة اكتشافها ، أو قضاء أيام فيها ، عن اكتشاف أية مدينة رائعة هناك . ؟ وبصرف النظر عن مئات الماركات التى دفعتها آخر الأمر لأوتيل « الأمبسادور » كنت أتمتع بسكن مريح خلال الأيام الخمسة التى قضيتها فيه .. اذ كنت أشعر - كلما دخلت الغرفة وأغلقتها على وحدى - بمعنى الهدوء .. والاناقة معا .. لم يكن لقدمى صوت على الأرض وأنا أمشى كيفما اتفق . وكنت اذ أهم بالنوم انتقل الى ركن من الغرفة يحجبه ستار مصقول ثقيل ، لايكاد ينبىء عن الوكر المعد خلفه للمنام .. وهناك يستوعبنى فراش ظننته أول الأمر عاليا ، كالوسادة المنتفخة عليه فوق السرير .. غير أننى ، وقد غطست فجأة ، تبينت معنى السعادة اذا خالطها التيه كلما كان الفراش دائما هو الفراش الناعم الوثير .. ونوافذ الغرفة عليها نفس الستار .. بعضه أرق من بعضه .. وكنت اذ أزيحه ، وأفتح النوافذ ، أشم - غالبا - رائحة المطر .. وهو يجرى ويتقطع .. وأتأمل السحب .. لاتكاد تتكشف الا نادرا .. عن شمس رقيقة الخجل ، بادية الحياء .. أو عن بقايا الليل والنهار .. فى الأفق .. والناس يتحركون فى الشارع الذى يلوح هادئا ، برغم حريتهم فيه - خاصة فى يوم كيوم الأحد - الى حد الغزل والعناق .. وهناك غرفة صغيرة كالمطبخ لايزيد عرضها عن نحو متر فى نحو مترين .. يجد « الزبون السعيد ! » فيها كل ما لذ وطاب داخل « الثلاجة » اللامعة ،

كما يجد كل استعداد فى الدولاب المقابل .. من أدوات الطهى .. الى أدوات الشرب والطعام .. وكنت ، لغبائى ، أظن أن كل هذا معد لاستهلاك « الزبون » ـ ضمن رقم الأجرة ـ من باب التوسعة والاكرام ، مع الاعتماد فى نفس الوقت ـ على حسن تصرفات « الزبون » الذى يندر أن يتصرف الا بكل « ذوق » يحس أنه ملزم به هناك .. وهكذا كان من حسن الحظ أننى أخذت الاحتياط ـ من باب هذا الذوق ـ فى استهلاك بعض ما كانت تعمر به غرفة المطبخ الأنيق الصغير ، اذ تبينت انهم « يجردون » الباقى اذا أخطرهم « الزبون » بالرحيل ، ثم يحسبون الناقص عليه بعد الجرد ، ويضمونه الى الفاتورة .. بمنتهى اللطف والابتسام .. وهناك أيضا التليفون الذى لابد منه فى كل طلب ، والحق انه قد يتأخر أحيانا ، الا أنه إن تأخر يرمز الى التقدم فى ترتيب الطلبات ، وتقدير أهميتها .. الأمر الذى لم يسعنى معه ، ومع الاحترام ، ومع تقدير مزايا التقدم ـ الا أن أظل طويلا فى انتظار الفطور ، بعد أن بذلت جهدا بليغا فى افهام من على التليفون رغبتى فى أصناف الفطور ! وكنت أظن لغبائى أيضا أن الفطور متدرج بشكل طبيعى فى الأجرة بما فيه البيض الذى كنت أطلبه ، عطفا على الجبن أحيانا ـ أما الزيتون فهو نادر الوجود هناك ـ كنت أظن أن هذه الاضافيات ليست الا من صلب الفطور ! كانت مجرد ظنون فى شكل مخاوف من احتمالات اخرى ، أخذت من أجلها أفكر فى التماس مسكن آخر .. غير أننى اشترطت فى نفسى أن تتوفر المطالب ذاتها .. ونفس الجو السعيد .. انما بأجر أرق .. هذا ان قررت الاستمرار فى ميونيخ !.

وكنت بالأمس ـ وأنا فى صحبة الزميل الذى سافر الى روما ، وبعد أن أعيانا البحث عن بغيتنا من الطلاب العرب ـ كنت قد علقت أهمية كبرى على طالب ظننته أردنيا .. لقيناه صدفة على الرصيف ، حيث رحب ، بعد التعارف ، بأن يزورنى فى « الأمبسادور » قبل العاشرة .. وهكذا ظللت فى انتظاره بين الفطور .. والشاى .. والحركة الهادئة فى جو الغرفة .. ونافذتها .. وأفكارى التى أخذت تستطيب فى هذه الأثناء مشروع الاستمرار فى ذلك الجو .. ثم أخذت أتهيا للخروج ، واستوثقت من رباط العنق جيدا ومرارا ، وأنا أتدلى فى « الأسانسير » حتى وصلت ردهة الفندق .. وأمام المكتب بدى أحدهم بقامته المديدة ، وعيونه الزرقاء ، كما لو كان فى انتظارى مرحبا بابتسام .. ومذ ظننته من أصحاب « الأوتيل » أو موظفا رئيسيا فيه ، تذكرت شاغلا كان من أهم مايشغلنى ـ ومازال وهو فحص ذراعى .. ودرس ما قد أحسه فيه ..

بعد الحادث القديم .. وأخذت أستحضر ، بين يدى الرجل ، ماوسعنى من الألفاظ والاشارات ، حتى استطعت أن أعبر عن رغبتى فى البحث عن « بروفسور » كبير فى طب العظام .. وفهم الرجل حقا .. بل ونطق التأثر فى وجهه بمعنى المشاركة ، وهو يتأمل ذراعى ، وَيَعِدُ باجابة الطلب غدا .. الاثنين .. وكانت الساعة تجاوزت العاشرة .. وأنا أجلس وحيدا فى ردهة الأوتيل ، وعلى الموائد المجاورة أشكال من الناس .. بعضهم فى حالة نقاش هادىء ، ويتهيا بعضهم للخروج بعد اختيار البرنامج المناسب لعطلة اليوم !. ثم رجحت أن أجلس الى « البوفيه » لاواصل كتابة بدأتها من قبل .. غير أن رجلا جاء واحتل مقعدا مجاورا ، ثم لم يمهلنى طويلا ، وابتدرنى بالكلام وتبينت ان موضوعه السؤال عن الأحوال وعن هويتى .. ورغم أننى استطعت أن أجيبه ، وأن أسأله بالمثل ، غير أننى شعرت بضياع شىء من الوقت فى انتظار الطالب الذى لم يصل .. فلم يسعنى الا أن أنطلق وحدى .. من الأوتيل ..

وكان من أهم مايشغلنى أن أعرف طريق العودة اليه آخر الأمر .. وكان من عادتى أن أتواكل فى هذه المهمة على من لايعانون ضعف الذاكرة مثلى ، ممن كان يكفى أن نصل أية مدينة أو قرية فى برنامج ضيافة « لوفت هانزا » لينطلق بعضهم توا الى شوارعها ، ثم يعود بطرائف الأخبار ، وكأنه لم يكن يجهلها كما أجهلها كل الجهل .. غير أننى حفظت اسم « الأمبسادور » جيدا .. وقد عرفت الشارع الذى سلكناه مرارا .. وينعطف الى شارع رئيسى كبير يغص بالواجهات الأنيقة ، ومعروضاتها التى تغرى ـ على الأقل ـ بالتأمل ان لم يكن بالشراء ، لاسيما وقد كانت مغلقة كعادتها يوم الأحد .. وهكذا مضيت أمشى بطمأنينة ، وقد عرفت طريق العودة الى الأوتيل ، مذ خيل الى أننى ميزته بالشرق والغرب ، ثم بمحطة « الترام » التى توقعت أن أجدها أمامى اذا استدبرت مشرق الشمس .. ثم يبدو الأوتيل ـ هكذا .. بمنتهى البساطة .. غير بعيد عن محطة « الترام » .. وعندما تذكرت « التاكسى » وهو الدليل المنقذ فى حالات الضياع ـ زايلتنى المخاوف برمتها .. وظللت أتعقب المشاة على الأرصفة ، بفكرة احتمال الفضول فيهم ضدى ، مذ يلوح اجمالا ـ وربما بالتفصيل ـ أننى من الغرباء .. الا أن بعضهم كان يتأملنى ، ثم يبدوأنه مشغول بما هوأهم .. وشجعنى ذلك على المشى بخطوات ثابتة .. رصينة أيضا .. كأننى بها أعرف البلد من وقت طويل .. ثم عدت أتغشاهم بفضول نظراتى وبمعانى الشفقة والطمأنينة فيها الى حد الاعتداد .. انما باتزان أتحاشى به نفس الفضول .

ويصب الشارع الكبير الذى انتظمتُ ضمن مشاته الكثيرين ، فى ميدان لعله أهم ميادين المرور فى ميونيخ .. وهناك يقف بناء ضخم كالمدينة الصغيرة ، يطل على الميدان فيه المحلات الشهيرة باسم « كاوفون » وهى من طراز متفوق ، شامل لكل مطالب الحياة .. غالبا .. لولا أن أصحابها ـ كما قيل لى ـ من اليهود الذين يتمتعون بحياة طيبة هناك بعد عطف الألمان عليهم .. لدرجة الذوبان .. فى العهد الجديد .. وفى رحاب « كاوفون » مقهى صغير عرفنا فيه من قبل بعض الطلاب العرب المقيمين هناك للدراسة .. وللعمل فى أيام العطلة ، فأخذت مجلسى الى مائدة منه .. أتطلع الى الوجوه التى حوالىَّ.. غير أن أحدا فيها لم يكن يَـمُتُّ الى العربية بنسب فيما استنتجت بعد التحرى الطويل .. والدم ـ كما أظن ـ يتعرف الى الدم بمجرد التقاء النظرات أحيانا .. أما أن يتم بعدها أو لا يتم التعارف ، فتلك مسألة أخرى موضوعها السلوك .. وهو شىء غير التجاوب الفطرى بين الدماء .. وجاءت « الجرسونة » وكانت ـ تبارك الله أحسن الخالقين ـ خَلْقا سويا بارعا .. ليس فى الجمال والقوام .. بل فى الذوق ، وأيضا فى الخلق الذى يلوح متماسكا اذ تؤدى المرأة عملها ، وتزاحم الرجل ـ إن لم تتفوق عليه ـ فى بعض ميادين العمل والانتاج .. غير أن التحلل هناك .. فيما وراء العمل والكفاح .. فى خط طويل أوله البيت الذى تهدم .. وآخره .. فى أسواق « اللحوم ... » ! وشربت كأسا من الليمون .. ثم جاءت وقبضت الحساب سالما من أى « بقشيش » والحق أنهم لايكرهونه ـ أى « البقشيش » انما قد يعتبرونه « حقا » أو شيئا من الحق ، لايتنزلون فى انتظاره الى الوقاحة .. أو الاستجداء ، وشعرت بأطراف الجوع ، وكان الوقت عندها ظهرا ، فعدت فى نفس الطريق الذى جئت منه ، حتى اقتحمت مطعما فى واجهته الدجاج ، مشويا على الأسياخ ، من وراء الزجاج .. وهو ـ بالاضافة الى السمك والى أى صنف مشوى أو مسلوق من اللحم والخضار ـ فى أمان من لحم أو دهن الخنزير الذى يشيع غالبا لديهم فى كل طعام .. وهكذا ظللت فى انتظار طبق الدجاج الشهى بعد الشواء ، أرقب الناس حولى على الموائد فى زحام شديد .. من كل جنس قد لايتميز عن الآخر الا باللهجة منذ كان اللون الأبيض هو الشائع هناك .. وقد كان معظمهم ـ ليس فى ذلك المطعم وحده بل فى سائر المطاعم ـ من الألمان الذين يضطرهم نظام العمل لارتيادها ، والتماس الطعام فيها .. غالبا ... منذ كانت المرأة الى جوار الرجل ..

فى ذلك النظام .. ومنذ كان فى الواقع نظاما صارما يدورون فيه .. كالالة .. بنفس الدقة والاتقان .. ونفضت يدى من الطعام .. فى جو من الحركة .. الا أنه هادىء لايتطور الى الضجيج والارتباك مهما اشتد أو تفاقم الزحام !. ودفعت الحساب ، وهو يتراوح بين عشرة وخمسة عشر ماركا عن كل وجبة تناولتها هناك ..

وذهبت مرة أخرى الى الشارع الكبير .. وكانت حركة المرور فى بعض الشوارع التى تتفرع منه ، تافهة اذا قيست بصخبها فى الشوارع الكبيرة ، غير أن اشارات المرور محترمة برغم التفاهة ، اذ يقف عابرو السبيل عندها فى انتظار الاشارة الخضراء .. بامتثال عجيب .. ورغم أن المرور يعتبر مخالفة فى مثل هذه الحالة ، الا أننى كنت لا أحفل بها غالبا اذا خلا الطريق ، منذ كان التوقف حينئذ - فى رأيى - أقرب الى « الجليطة » فى النظام ، وفكرت فى أن أواصل السير .. انما من شارع غير الذى كنت قد ميزته من قبل ، مذ خيل إلى أن الاتجاه واحد فى الشارعين ، يؤدى الى « الأمبسادور » .. ومضت لحظات تبينت بعدها اننى غدوت فى شارع جديد لا علاقة له بما مضى اطلاقا ، غير أننى ظللت امشى فيما خيل الى أنه نفس الاتجاه .. ثم طالت « لخمتى » فى الشوارع التى يلوح الشبه بينها قويا الى حد يدير الرأس .. غير أننى كابرت اذ تابعت خطواتى بنفس الطمأنينة .. وباسم التأمل والاكتشاف .. وان شعرت بالتلاشى .. وأنا أتخبط وحيدا فى مدينة كمدينة « ميونيخ » بين العمارات الشاهقة ، والشوارع التى يدب فيها مئات الناس .. حقا أى شأن لمثلى بينهم ان لم يكن هو التلاشى فيما عدا كيانى المحدود بتفاهة ، وهو يتقلب على الأرصفة حينذاك . ! .. وتذكرت المبدأ القائل بأن « الوحدة عبادة .. » وانسربت مشاعرى الى الله .. حيث عرفت صحة المبدأ وما يرمى اليه ، مذ شعرت حينئذ بمعنى الله فى قلب الانسان .. وتذكرت « التاكسى » الدليل المنقذ .. فلم أجده حوالى ، وتشجعت واستوقفت أحد المشاة .. ولعله انحنى فانحنيت .. ثم قلت كلمة « أوتيل الأمبسادور » وحدها بلهجة المستفهم !. فلم يزد على أن انحنى مرة اخرى .. وواصل السير بنشاط كأنما يعوض به اللحظة التى قضاها بين السؤال .. والانحناء ، وبعضهم كان يعتذر بكلمة « سورى » ويمضى مسرعا بنفس فكرة التعويض !. وكان بعضهم يتأملنى إذا سألته .. ثم يمضى .. وفى عينيه معنى الدهشة لأن فى الدنيا انسانا يسأل عن أوتيل اسمه « الأمبسادور » ..

وكنت أنا فى هذه الأثناء ماشيا لا أتوقف .. الا لأتأمل بعض الميادين أو المحلات الأنيقة على اليمين والشمال .. ثم أستمر بنفس الهمة .. ونفس السؤال .. والفشل .. وعندما رفعت رأسى الى السماء لأتبين الشرق والغرب ، والاتجاه الذى رسمته بين المحورين ـ لم أتبين سوى الضباب .. لا الشرق .. ولا الغرب ولا أنا .. فى تلك المتاهات .. حتى اذا شارفت اليأس عدت أبحث عن « التاكسى » باستهداف ولكن بدون جدوى .. فلم يكن حوالى أى موقف لسيارات « التاكسى » .. ولايسعها أن تقف فيما عدى موقفها بمقتضى النظام ..

وكان يمشى على أحد الأرصفة الهادئة رجل يلوح أنه من مخلفات الحرب الأولى .. وأن شيئا من آثارها فى حياته ، فقد كان أقرب الى التهدم .. بما يعطى معنى التعب من مواصلة الحياة !. واستوقفته .. وأرسلت كلمة « الأمبسادور » فى وجهه بلا مقدمات ، وبرنة أقرب الى السخر منها الى الاستفهام .. ودهشت اذ أخذ الرجل يتلفت يمينا وشمالا ثم يهز رأسه ، ويكرر كلمة الأمبسادور .. غير أنه كان لايعرف من الانجليزية شيئا ـ الأمر الذى جعلنى أتظاهر بالأسف لأنه كذلك ، وان كنت قد أخفى شيئا من الغبطة ـ لأن الصمت سيسود غالبا مثل هذا الجو .. فيما عدا اشارة الخرس !. وبهذه الاشارة سألت محدثى الكهل عن موقع « الأمبسادور » وبها أجابنى بما معناه أنه ذاهب فى اتجاهه ، وأن ألحق به .. ثم لم يواصل اشارته ، فقد استأنف خطاه الهادئة ولم يكن بد من متابعته بدون قيد أو شرط .. ودار فى نفسى احتمال أن يكون فى الأمر ما يشبه المجازفة ، وأنا أسير فى ركاب رجل لاتشدنى اليه الا علاقة واحدة . هى الآدمية فحسب .. حقا .. كيف أمضى فى اثر الرجل ؟ ربما كان يهوديا ؟ ماذا يكون لو فعلها .. اية مغامرة أجدنى قد تورطت فجأة فيها .. وقد مضيت فى أثره سهل القياد ! وهكذا تحركت ظنون السوء فى نفسى بالرجل مذ تخيلته غامضا حينذاك .. واحتمال اليهودية وحدها يثير المخاوف .. عدا احتمالات أخرى قد يتصورها الغريب ـ مثلى ـ اذا ضل مغداه .. فى مدينة كمدينة « ميونيخ » .. لقد توقف الرجل فجأة وهو ـ يتأملنى ـ كما تخيلت ـ باهتمام .. ثم لم ينصرف كالآخرين كلما نطقت باسم الأوتيل الذى كنت أتحراه .. بل تطوع لانقاذى .. وسار عمليا أمامى .. وكان بعض الشوارع خاليا الا من آحاد الناس ، منذ كان يومها الأحد .. ماذا لو انعطف بى لأى زقاق فيه من أوكار

اليهود أو غيرها مايثير الرعب ؟ وزين لى الوهم أننى سأكتشف ملامحه بالكلام .. ولم يكن بد من استعمال الاشارة ـ كالخرس ـ باجتهاد كبير .. وهكذا سألته عن إسمه .. وبلده .. وعما اذا كان متزوجا .. وكم عدد أهله وولده ؟.. وكان يجيبنى بنفس الأسلوب .. ثم فضلت نقل الكلام الى السياسة العالمية ، ليكون مجراه ، فى مثل هذا المستوى العالى ، ادعى للطمأنينة ،وكان حسبى أننى نطقت كلمة « هتلر » فقد بدا على الرجل مايشبه القرف ضد السياسة العالمية كلها .. بما فيها العهد الجديد .. وكان هو ينتقل بى فى هذه الأثناء .. من شارع لآخر .. الأمر الذى كنت أتصور معه الكارثة فى الشارع الآتى باستمرار .. وبرغم كل شىء وفجأة .. وجدت « محطة الترام » والأوتيل المنشود .. غير بعيد عنها .. وحينئذ .. لم أخجل من مصافحة الرجل .. بل من سوء الظن فيه .. وهكذا قد يثير التصرف البرىء والعمل الفاضل هواجس الانسان .

على هامش الرحلة

(١)

عندما وصلنا « فرانكفورت » قدمنا جوازاتنا لموظف الجوازات فى المطار .. كان واقفا على الباب الذى يدخل منه المسافرون فى ذوق واحترام .. ثم لم يزد على أن أمسك الجواز وقلبه .. ورده فى الحال .. لاختم ، ولاتوقيع ، ولاسؤال عن محل الاقامة أو إخطار بمراجعة قلم الأجانب ، ولا أى اجراء على الجواز فيه معنى أن المسافر قد دخل ألمانيا يوما من الأيام .. وعدا ذلك أظن أنها الدولة الأوروبية الوحيدة التى يدخلها المسافر بلاتأشيرة .. كل هذا معناه أن الأجنبى فى وسعه أن يقيم فى ألمانيا بدون أى حساب ، أوأية مطاردة من دوائر الجوازات والاقامة .. وبدى هذا غريبا ، والمفرزض أن ألمانيا لم تنهض على قدميها الا قريبا ، وأن كيانها موزع بين معسكرين .. بيد أن وجه الغرابة يبدو أوضح كثيرا فى تعاملهم مع الأجانب كما اكتشفناه أثناء اللف والدوران فى ألمانيا الغربية . انهم يطلقون الأجنبى فى بلادهم بدون حساب .. ثم يبحثون له عن عمل ، منذ كانوا فى حاجة الى الأيدى العاملة بلا تحديد .. وهذا سر العمران الضخم الذى يزحف بقوة فى ألمانيا الغربية .. إن هذا العمران يبلع الأجنبى الصالح ثم يحوله الى عصارة طيبة فى دمه الحى .. أما الأجنبى التافه ، فانه سيهاجر حتما .. أو يموت بعد التسكع الطويل .. ولهذا يفتحون الأبواب للأجنبى .. انهم لايخافون قوته .. وضعفه لايعيش بينهم .. اما أن يصلح ، واما أن يذهب .. شعب قوى يلوح أن معدته تهضم الحديد !

(٢)

كان الوقت قبل منتصف الليل عندما ضغطت زر الجرس من غرفتى فى الأوتيل ، فأجابنى جرس التليفون .. وكنت أريد ماء باردا فقط ، وهى كلمة أو كلمتان لا مشقة فى حفظهما بالانجليزية أو بغيرها من اللغات .. وقلت لمحدثى : ماء .. بارد .. بهذا الايجاز والتحديد .. طبعا بالانجليزية . ووضعت سماعة التليفون .. وجلست فى حالة

انتظار .. وسمعت الطرْق المعتاد على الباب قبل الدخول .. واذا هو « الجرسون » أو النذل على حد تعبير بعضهم .. كان فى يده « سطل » وفى داخل « السطل » زجاجة ، ونسيت ما كان فى يده اليسرى ، فقد أدهشتنى المفاجأة .. وكان من حسن الحظ أن « الجرسون » لايعرف الانجليزية .. ولكنه استطاع أن يفهم المقصود بذكائه من اشارتى للماء .. واصرف وفى يده « السطل » .. وبعد لحظات رن جرس التليفون وأجرى المتكلم فيه بحثا طويلا معى ، تخيلت ان موضوعه الماء .. أو « السطل » فأخذت أجيب محدثى بنفس الكلمتين .. ماء بارد .. ووضعت السماعة .. وفى الحال طرق الباب وتقدم الىَّ رجل قصير كأنه فى حلقة السبعين ، وفى يده قاموس صغير ، وعلى عينيه نظارة أنيقة ، وأخذ يتكلم بحماس فى الموضوع ويقلب القاموس الذى كان يترجم من الانجليزية الى الألمانية ، ليرينى تفسير ما لا أدرى وجه الأشكال فيه .. وغلبنى الضحك ، غير أننى ضغطته وأنا أشهد حماس الرجل ، والقاموس فى يده ، وقد يسهل استعماله لأى غرض بعيد عن اللغة .. فى رأسى مثلا .. اذا اشتد الحماس .! وأخذت الرجل من يده الى الحمام .. وأشرت الى الماء فى القسم البارد من الحوض .. وبدا عليه أنه فهم .. ومضى بالقاموس ثم .. جاءنى « الجرسون » يحمل فى يده « صينية » عليها ، زجاجة .. ما الذى تظنونه فيها ؟ صوده !

(٣)

مع الرُقِىِّ والحضارة تعرض المرأه فى « هامبورج » كلحم البقر والضأن والدجاج فى « فترينات ! » غير أن هذا لم يمنع الرجل مطلقا من الأخذ والعطاء فى سوق اللحم .. يقلب « البضاعة » بنظرة .. ربما للتأمل .. وربما ليشبع غريزة يلوح أنها حينئذ أحط من غريزة الجوع فى أحقر حيوان .. وربما كانت « البضاعة » فى شىء من الصبا والجمال ، غير أن شيئا يظل يلتهب فى عينيها .. كأنما هو الحقد .. الحقد ضد كل شىء .. حتى القدر .! ويتجسم الحقد فى ملامحها كلما استعرض « البضاعة » فضول أختها حواء ، فلسائحون والسائحات يفعلون هذا .. وقد لايجد بعضهم حرجا فيه ، منذ كان لون المهنة طابعا عصريا على مثل هذا السقوط !

غير أنها ـ أى المرأة ـ تمارس المهنة بجسمها .. فما أحسبها ماتت الى الأبد .. انما الذى مات هو كل شىء فيها الا قلبها ..

انه مازال حيا ينبض .. ولكن بالحقد والرغبة فى الانتقام ..

وقد تبتسم البضاعة فى « الفاترينة » وقد تُلَوِّنُ ملامحها بكل اغراء ، غير أن المعنى الذى يظل الأوضح دائما هو الحقد .. يتقد فى شكل لعنة تنصب .. حتى على المتفرجين ! .

ورحم الله مصطفى صادق الرافعى يوم قال :

يالحوم البحر .. « سلخك من ثيابك جزار .. »

ان جزارها هو الرجل !

يا له من جزار !

(٤)

أنا هنا فى حالة لا أجد ما أطلقه عليها الا « الصرفدة » .

برنامج الضيافة ومندوب « لوفت هانزا » وراءنا باستمرار .. من الصباح المبكر الى نحو منتصف الليل ..

وقد عرف مقدار حبنا للنظام من أول الأمر ، فأخذ يتعقبنا بالتلفون بمجرد أن تشرق الشمس ، وفى الحال يجب أن أدخل فى « البدلة » وأن أطير ، والحقائب أمامى الى حيث يجلس « الرَّبْع » أو يدبُّون فى ردهة الفندق الذى نحن فيه ..

ثم نستقل « الأوتوبيس » ويهيم بنا فى الطرقات ..

والحق أننا لانمل النظر فى كل ما حولنا ، وربما غلبنى النعاس ، أو حب الكلام ، غير أننى أقاوم كثيرا لأتأمل الشعر والجمال .. حولنا ..

ثم نبلغ الضاحية أو المدينة التى نقلنا اليها « الاوتوبيس » ..

وننتظم فى برنامج اليوم .. ثم لانكاد نفترق ـ عصرا .. فى الغالب ـ باسم الراحة .. حتى يدق عندى التلفون ، لأَنْزل فى الحال ، وأندمج مع زملاء الرحلة فى الفصل الجديد .. وهو ، غالبا ، حفلة عشاء نسمع فيها بعض الخطب بالانجليزية أو الألمانية ، ويستمر العشاء بالطريقة الأوروبية زهاء ساعتين ..

ثم ..

ثم نمضى الى الفندق .. وفى رأسى شيء كالطنين من تعليمات مندوب « لوفت هانزا » موضوعها النزول صباحا قبل الثامنة ـ بتوقيت ألمانيا ـ الى صالة الفندق مع الحقائب .. الى آخر المعتاد ..

نظام لم أتعوده قط .. غير أننى أمارسه بمنتهى الدقة .. ويتهمنى « الرَّبْع » .. بأننى مهمل فى النظام . !

(٥)

رأيت حلما كهذا من قبل ..

تصورت الشجر ، والقمر ، والكوخ ، والسحاب ، وخرير الماء ، وزقزقة العصافير .. وبقية الحلم الذى تصورته يوما .. وأغمضت عينى لأعيش فيه !

لم أكن أتوقع أن يتحقق الخيال ، وكأننا على ميعاد !

لقد وجدته هنا .. فى ألمانيا ، وخيل الى أنه فى انتظارى بالأحضان ، وبلاحساب فى دنيا الهوى والعناق .. ووجدته أتفه من الحقيقة ، فقد كنت أحلم بكوخ ، وباطار محدد للكوخ .. فى واد لم يسرف فى تصوره الخيال ..

ثم .. منذ أظلتنا سماء ألمانيا ، وأقلتنا أرضها ، لم نعد نرى السماء والأرض الا كالخيال ..

السحاب فوقنا .. والبساط الأخضر يكسو الأرض كلها ، عدا العمران وخطوط الأسفلت ..

تصوروا الجبال .. كلها خضراء .. كل ما حولنا ، وكل ما نحن فيه أخضر .. وأزرق .. وأحمر .. وأصفر .. الى آخر غرائب الشعر فى الألوان .. والزهور .. مد النظر ..

تصوروا عالما عجيبا يهيم فى لوحة خضراء لا أول ولا آخر لها .. قد تناثرت فيها المدن والقرى على نحو لايكاد يذكر فى ذلك البساط الأخضر العظيم ..

لقد بدى أى كوخ هنا أرق وأحلى من أى كوخ تصورته فى حلمى القديم ..

صدقوا أنه أوحشنى وبعض الزملاء التراب .. ثم لم نجده الا قليلا فى أطراف بعض القرى والأرياف ..

لقد وددت أن أعيش فى عالم كهذا .. ملؤه الله .. والحب ..

(٦)

ركبنا عربات صغيرة تسع كل واحدة منها أربعة أشخاص ، وبدت المسافة التى سنطير اليها فى هذه العربات ـ هائلة ترتفع من أسفل الوادى الى أعلى الجبل الضخم . .

وتأملت الحبال التى تشد تلك العربات فى تلك المسافة المعلقة بين السماء والأرض . . وتصورت أن السفر فى عربة منها أقرب الى المجازفة . . أيا كان الشعر

الرائع الذى فى انتظارنا على رأس جبل يهيم بين السحاب . .

غير أن ادارة « العربات » استضافتنا ودعتنا الى ركوبها . . وفتح أحدهم باب العربة . . ولم أتردد . . وتكاملنا أربعة فيها . . وطارت بين جبلين فى المسافة التى أخذت ترتفع بالتدريج كما لو كنا فى طائرة . . حتى بدى الفضاء وكأنما لا أول ولا آخر له ، بين السماء والارض ، وبدى الجبل وكأننا لم نحاذ منه ، على البعد ، الا مسافة لا تكاد تذكر من سفحه العميق ...

وأغمضت عينى وأنا أتصور الكارثة فيما لو انقطع الحبل تحتنا ، وهوت العربة . .

وقال أحدنا : شيء مخيف . .

قلت : كالطائرة . .

قال : ما أظن ، فان الطائرة تحكمها قوانين . . و . .

قلت : ان القانون العلمى الذى يحكم الطائرة هو نفسه الذى يحكم عربتنا الآن بين جبلين . . والضمان الوحيد هو الله . . ثم . .

ثم كان الجو رائعا حقا على رأس الجبل . .

كان فيه شيء كثير من الشعر . . ومن التقدم !

(٧)

دخلنا محلا فى مدينة « ميونخ » اسمه « كاوفوف » . .

انه مبنى كبير مهمته تقديم كل ما يحتاجه الانسان ، وتحقيق رغباته فى كل شيء مما يأكل ، أو يشرب ، أو ينام ، أو يسكن . . وفى كل ما لا بد منه لحياة الانسان . . رجلا كان . . أو امرأة . . أو طفلا . . أو أى كائن من البشر . .

ويبدو النظام الذى يسود المحل ، وكأنما هو نظام دولة كبرى ذات تفوق وسيادة . .

انه يشبه المدينة الصغيرة . . فى كل دور من أدوارها الكثيرة شارع ضخم كبير تموج فيه الحركة ولا تفتر مطلقا كل أوقات العمل . .

ان كل دور فيها يمثل طائفة معينة من الرغبات .. عنوانها ملابس الرجال ـ مثلا ـ أو النساء ، أو أصناف الفاكهة ، أو أشكال الطعام ، أو أصناف

السجاد الفاخر .. الى آخر ما لم يخطر على بالى ، حتى الآن ، بعد أن فرغنا من زيارة « كاوفوف » . .

فالحق أن زيارته للاستيعاب والتفقد تحتاج لوقت طويل . . الا أن نظام العمل فيه مدهش من الألف للياء ، والا أنه محترم من رواد المحل ، والعاملين فيه ، كل الاحترام . .

تصوروا أن التدخين ممنوع فى المحل . .

وراحة الزبون لا ينقصها بعد اللف والدوران فى المحل الا أن يتهاوى على الأرض ، أو على أقرب مقعد اليه . . ولم يفت ذلك أهل المحل ، فهناك « بوفيه » كبير يجد فيه « الزبون » راحته من كل عناء !

وبدل « الأسانسير » وإضاعة الوقت فيه ـ ينقل الانسان ـ « درج » يتحرك ويطير به فى الحال من طابق الى طابق . . الحق يقال . . ان التقدم فى ألمانيا وأوروبا عموما ، يدهش ويبدو رائعا من بعض الوجوه !

(٨)

شهدنا مناورة بارعة فى جبل من أعلى الجبال

كانت سيارات « مرسيدس » تجرى هذه المناورة تحت أعيننا . . وتجريها عادة لاختبار سيارات الحمل والصحراء ، بعد اعدادها من المصنع . .

وهناك . . فى أعلى الجبل الأخضر ككل ما حواليه . . تحت المطر والغيوم . . فى جو يتفوق على الشعر والخيال ، هناك يجرى امتحان السيارة وفحصها ، بين الصخور والوهاد المخيفة ، ومرتفعات من الصخر ربما وقفت السيارة عند بعضها على عجلتيها الخلفيتين ولفت عجلتيها الأماميتين فى الفضاء . . ثم هبطت على المرتفع ، وطارت لتقفز الى وهدة يلوح أنها ستتحطم فيها ، ثم ترتفع بنصفها طولا على ما يشبه الجبل الصغير ، وتمضى بسلام ، ليلوح أنها قد انقلبت فى جرف عميق . . الى آخر المناورة المدهشة التى يبدو السائقون أثناءها كالعفاريت ، فى قيادة السيارة وتجربتها بين كل هذه المخاطر . .

وشهدنا بعد المناورة مصانع سيارات « فولكس واجن » التى يقال ان انتاجها

اليومى أربعة آلاف سيارة . .

وكما يتم اعداد وتعبئة زجاجة « الكوكاكولا » أو أى شراب مماثل فى المصانع التى عندنا ـ يتم صنع السيارة من أول الى آخر قطعة فيها . . وتنتقل السيارة فى هذه الأثناء بالقطعة الجديدة التى ركبت فيها . . الى التى فى انتظارها على يد العامل المختص ، من مكانه المحدد فى المصنع . .

وتظل فى مثل هذا الانتقال الهادىء على شريط طويل تدور معه وتتطور . . واذا هى آخر الامر سيارة من أحدث طراز . . وتبارك الله أحسن الخالقين . .

وتباركت قدرته فى كل ما خلق .

(٩)

كل شىء هناك يجرى فى بلاد الألمان . .

الرجل . . والمرأة . . والعجوز . . والولد . . والسيارة . . والترام . . كل شىء فى حالة ركض سريع . .

لم أر أحدا يتسكع فى الشوارع الا فى أيام العطلة أو فى أوقات الفراغ . .

حتى الفراغ يمتصونه الى آخر قطرة . .

والفراغ ليس هو الا ما بعد أو قبل أوقات العمل . . وهو فراغ قليل لا يساعد على « الصرمحة » ! اذ يبدأ العمل من الساعة السابعة بتوقيتهم صباحا ثم يستمر الى آخر النهار ، فيما عدا عطلة للغداء أحسبها لا تزيد عن نحو ساعة . .

ويتناولون غداءهم بمعدل تافه ، ليس كالذى تعودناه هنا ، لنغط بعده فى نومة الظهر !

الا أَنَّهُ غداء حَيٌّ يسد حاجة الجسم الى كل أسباب النشاط . .

والعطلة . . هى اليوم المقرر الذى يبدأ عادة من عصر السبت . . ويمتصونها ـ كما قلت ـ للثمالة . .

وفيما عدا ذلك لا عاطل أو فارغ هناك . .

أبواب العمل مفتوحة لا تقفل أبدا فى وجه أى قادر على العمل ، بأنواعه ، أيا كان جنسه وبلده ، فان العمل عندهم يتطلب المزيد من الأيدى العاملة كل يوم .

ومن لا يستطيع العمل والانتاج لا وجود له بينهم . . حتى ليبدو كأن كلا منهم يُهَيِّئ نفسه للعمل فى كل مجال . .

لقد أحسنوا استغلال أوقاتهم . . وحقق لهم ذلك أحسن النتائج . .

انهم اليوم فى مقدمة الشعوب !

(١٠)

هناك مرصد ، فى برج عال ، يراقب حركة المرور فى أهم ميادين « ميونيخ » اذ يسجل تفاصيلها من الألف للياء . . بما فيها حركة المشاة . . والسيارات التى تجتاز ذلك الميدان ، بمعدل مائة ألف سيارة كل يوم . . وفى نفس الوقت ينقل المرصد تفاصيل الحركة الى المركز الرئيسى للمرور ، ليلم بها ، فلا يفوته شيء منها ، ويتصرف كما يقتضيه الحال . . فى الحال !

غير أن النظام ـ أى نظام كان ـ يتخذ عندهم معنى القداسة فى الحب والاحترام .

وكلمة « نظام » تكفى لاشاعة جو الطاعة بينهم . . الى درجة الخشوع !

لقد رأيت المشاة ـ مثلا ـ يتوقفون عند تقاطع الشوارع بلا استثناء . . ويبدو عليهم منتهى الصبر والأدب فى مواجهة « العلامة الحمراء » حتى تتحول الى خضراء . . وعليها علامة السير فى شكل رجل أنيق يهم بالسير . . حينئذ يمضون فى نظام وتؤده للرصيف المقابل . .

لقد كان بعضنا يغلبه الطبع ، اذ يصرون هم على انتظار العلامة ، ولو خلا الطريق أحيانا ، من السيارات ـ الأمر الذى كان يبدو ـ فى نظر بعضنا ـ أقرب الى « الجليطة » فيمارس الانتقال . . رغم الشد والجذب . . والانكار الصامت من هواة النظام !

ولا شك أن للعقاب على المخالفة بنظام دقيق كالذى هناك ـ تأثيرا فى احترام النظام . . غير أنه ليس كل شيء . .

المسألة مسألة اخلاق . !

(١١)

مساء اليوم السادس ـ الثلاثاء ـ أقيمت لنا حفلة عشاء فى مطعم يشرف على أهم ميدان للمرور فى « ميونيخ » .

ويظهر أن « لوفت هانزا » وقد عرفت هواية الصحافة فينا ، تفضلت بدعوة ممثل رسمى لادارة النشر والصحافة من « بون » عاصمة ألمانيا الغربية . .

وكان يبدو عليه التوازن وهو يتحدث الى الزميل « بابا عباس » بالانجليزية . .

واقتضى الحال أن نوجه اليه بعض الاسئلة . . فكان يجيب عليها بمنتهى التوازن . .

وكان ماكميلان يومها قد وصل الى « بون » ربما للكلام مع أديناور حول القضية الخالدة قضية توحيد ألمانيا . .

وطال السؤال والجواب . .

وأبدى الرجل استعدادا طيبا لكل ايضاح . . ثم فاجأنا بأنه قدم خصيصا لدعوتنا ـ الزميل بابا عباس وأنا ـ الى زيارة « بون » و « برلين » فى ضيافة رسمية . .

وكنا ـ والحق يقال ـ فى شوق لمثل هذه الرحلة ، فالأولى عاصمة ألمانيا الغربية . .

والثانية هى العاصمة القديمة التى يلوح أنها كالمصفدة بالأغلال بين المعسكرين . .

انها رحلة لم تكن فى الحساب . .

وقبلنا الدعوة شاكرين . .

وغدا سنستقل القطار فى طريقنا الى « بون » .

(١٢)

ركبنا القطار من « ميونيخ » فى وقت مبكر أظنه قبل مشرق الشمس ، فأنا لا أدرى كيف ومتى تشرق أو تغرب على وجه التحديد فى ألمانيا . .

انها غالبا وراء المطر والسحاب . .

وفى مثل هذا الجو الهتون كانت رحلتنا على القطار . .

كل ما حولنا يفوق أحلام الشعراء . . والحقول تترامى مد النظر . . والجبال كلها خضراء . . وغرائب الشكل ، والألوان فى الشجر ، والزهر ، والبيوت الريفية التى تبدو كأعشاش الغرام . . وأنهر الماء تتعرج بين الزرع والشجر الباسق الطويل . .

وخطوط القطارات والسيارات فى اليمين والشمال . . لا تكاد تفتر الحركة فيها ، بين المدن والقرى التى يجتازها القطار . .

ودخان المصانع يعج فيها بمعنى الحياة وضمانها لذلك الشعر . . وألوان من الخلق . . والناس . . كبدائع الفل والزهور . . وكأنهم فى فراغ لا همَّ لهم الا الحياة . . والحب . . فى أحضان ذلك الشعر الخلاب .

حتى الأبقار التى تهيم ، بين الحقول ، وأسراب الطيور . . يبدو عليها شىء كالحب والاستغراق فى عالم سعيد صورته يد الله ، ورعته يد الانسان . .

انه عالم أكبر من الخيال . .

قال أحدهم يوما : ان الشجر يبدو كأنما يزاحم بعضه بعضا لتشق كل شجرة طريقها فى هذا البساط الاخضر العجيب . .

وقال الآخر : أخشى أن تكون هذه هى الجنة . .

قلت : ربما كان هذا مثالا تافها لها على الارض . .

وأغمضت عينى وأنا أتصور الجنة . .

وكان القطار قد وصل « ويسبادن » فى هذه الأثناء .

واذا هى حلم كسائر الاحلام فى بلاد الألمان .

(١٣)

كانوا على المائدة المجاورة . . عائلة فيها الأب والأم ، وفتاة يكاد يتفجر فيها دم الشباب . . وعلى المائدة من كل ما لذ وطاب . .

ثم أخرجت الفتاة من حقيبتها سيجارة ، وأسرع الأب الى عوْد الثقاب ، وأشعل

السيجارة لبنته بمنتهى الذوق . . والتقدم !

وربما كان هذا تافها لا يكاد يذكر اذا قيس بالتحرر الكبير فيما هو أهم . . فقد ذكر أحدهم ـ وهو من الطلاب العرب المقيمين هنا في « ميونيخ » للدراسة ـ أن الفتاة يبدأ تحررها من سن مبكر . . ربما من العاشرة . . اذ تبحث عن الحب ، وتجربه مرارا . . حتى تستقر فى أصبعها يوما « دبلة » الخطوبة . . وإذا هى وزوجها بعد أيام فى شهر العسل ! . .

قلت : هذا يعنى أنه لم تعد توجد فتاة عذراء . .

قال : لا . .

ثم أضاف : ان الخاطب الأخير يزعجه كثيرا أن يجد مخطوبته عذراء ، لأن هذا معناه أنها كانت فاشلة فى الحب . . والتقدم ! .

وكان محدثى خاطبا . . فقلت :

أو كانت خطبتك على هذا الاساس ؟ !

قال : لا ، فقد كانت فتاتى متأخرة ، فأحببتها وأحببت فيها هذا التأخر . .

وسكت لحظة ثم أضاف أن العلاقة الزوجية هنا تتحول الى مجرد تقليد محترم موضوعه البيت والأولاد . . وما على الزوج والزوجة أن يتحررا فى هذه الأثناء بممارسة الحب فى العلن . . وتمضى العلاقة الزوجية . . مع هذا التحرر فى جو متمدن سعيد ! . .

قلت : حقا . . ما أظرف التمدن فى القرن العشرين !

(١٤٠)

كان من أمنياتى أن أقابل « أديناور » . . ويوم أبديت ذلك لكارل ـ أحد رجال وزارة الاستعلامات فى « بون » ـ هز رأسه وهو يتأملنى باسما . . وقال : أنا أعرف معنى مقابلة « أديناور » فى عالم الصحافة . . لقد كنت صحفيا !

ورحب بأمنيتى . . غير أنه استدرك ، وأبدى أسفه لأن « أديناور » كان أيامها فى ايطاليا . . لماذا ؟ لقد نسيت . . لابد انها محادثات كالتى يجتمع وينفض عنها أقطاب العالم . . كل يوم !

قلت : فليكن « ارهارد » ان لم يكن « أديناور » . . انه الرجل الذى بنى دعائم الاقتصاد الحديث فى ألمانيا . .

قال كارل : انه هو الآخر فى اجازة قصيرة . .

ثم أضاف أنه قد يعود منها ريثما نعود من « برلين » . . بيد أن الامر لم يعد مهما فى نظرى الى حد الالحاح والتعقيب . . لا لشىء الا لأنى وجدت مبتغاى فى كل من لقيت من السائق . . الى النذل ـ أو الجرسون على الأفصح ! ـ الى كل ألمانـى من أى مستوى كان . . والمستوى هناك لا ينحط ، وانما يتمايز فى نسب الارتفاع !

كلهم كانوا يحدثوننا عن كل شىء ، ويجيبون على كل سؤال . . كما لو كان الوعى فى « فرنك » أو « أوده » ـ مثلا ـ هو نفس الوعى فى « ارهارد » ، أو « اديناور » !

وهكذا . . عرفت قصة الشعب العجيب الذى أشعل الحرب العالمية مرتين . . ثم . . ربما أنطلقت شرارتها الثالثة من « برلين » . . رغم أنه يلوح اليوم فى وداعة الحمام ! .

قصة طويلة . . أولها العقل . . وآخرها الخلق . . ! .

(١٥)

لم نر من الموظفين أحدا فى دوائر الحكومة ، والشركات ، والمصانع التى زرناها فى مدن أو قرى الألمان ، إلا اذا خرج أحدهم ، من غرفة لأخرى ، بأوراق أوبأية مهمة موضوعها العمل . . ولاشىء سواه . .

إنهم يعملون فى غرف مقفلة عليهم ، تبدو كأنما ليس فيها بشر . . !

وهم فى داخلها يعملون بمنتهى الصمت والجد ، والاخلاص ، وكلهم يعمل لنفسه حقا ، لامجرد عمل شكلى فيه معنى المهمة الثقيلة . . أوالراتب المنتظر . !

وأناقة دوائر العمل كلها بلااستثناء تُذكِّر بعكسها فى بعض الجهات . !

ربما تحير الانسان طويلا فى عقب السيجارة . . أين يضعه هناك ؟

وتذكرت سيل المراجعين . . إنهم لاوجود لهم على أى باب من الأبواب الصامتة فى جو تلك الاناقة . !

ثم انهم لافضول عندهم على الاطلاق . .

ولقد ظللنا فى زيارة مصنع « ديماغ » فى مدينة « ديسبورج » نحو أربع ساعات . .

لم يقدم لنا فيها أى كوب من الشاى ، أو من القهوة ، أو من المرطبات ، وقد استجمع أحدنا شجاعته إذ جف ريقه ، وطلب ماء . . وهم قد يدهشون عادة لطلب الماء فى دنيا التمدن . !

عدا أن الماء فى ألمانيا ـ كما حدثونا ـ مطعم بمادة « الكلوفور » باسم التطهير !

لهذا قد لايبدو غريبا أن يأخذ الألمان مستواهم المتفوق حاليا فى الاقتصاد ، والانتاج الصناعى . . وأن يحققوا لأنفسهم من خيرات هذا التطور فى بضعة عشر عاما مالم يحققه غيرهم فى أضعافها ، فان من يعمل بمثل ذلك الجد ، والصمت ، والاخلاص ، والكفاءة ـ ينتج ولاشك ذلك الانتاج ، ويتطور حتما ذلك التطور . .

(١٦)

لم أعد أجد وقتا أكتب ، بل أفكر ، فيه . .

إما أن نكون فى القطار . . من مدينة لأخرى . . ويجتاز بنا قرى وأريافا أحلى من الشعر ، وأعذب من الخيال . .

وإما أن نكون فى المدينة . . وما حوالينا يملؤ السمع . . والبصر . . والفؤاد . .

وأكتب هذا على باخرة ليس فيها معى إلا المستر عباس أو قَزَّاوى كما يسمونه ، ومن انتدبتهم ادارة الميناء معنا ، لنرى أكبر ميناء نهرى فى العالم يطوق مدينة « ديسبورج » . .

إنها تعبر بنا نهر « الراين » بين المطر . . والشمس . . والضباب . . وَجَوَارٍ فى النهر كالأعلام . . ثم ذلك البساط الأخضر على الأرض والتلال . . شيء كالفتنة ، أوكأى حلم ساحر طويل . . لقد أحسست معنى الهم فى القلم كلما أمسكته لأكتب ، فى مثل هذا الحلم . .

حتى الأفكار نفسها ـ وهى شيء كالهم فى داخلنا ـ وددت أن أخلص منها ، وأن أقذف بها فى « الراين » كالمتاع القديم . .

وددت أن أقفز من الباخرة إلى النهر ، ثم أقفز اليها كانسان جديد لاعلاقة له بالماضى يعيش مع هذه الأحلام فى شيء من نوع شهر العسل . !

اننى قد أحب أن أتبعثر هنا كالحلم أوكالخيال . .

إن الكتابة هنا شيء كالمرض أوكالشقاء فى جو سعيد يطيب الصمت بين أحضانه . .

والخشوع ! .

(١٧)

اسمه « أنقر اشتاين » وعمره ثلاثون . . فى شكل الموسيقار الشهير محمد عبدالوهاب ، وفى مثل نظارته الأنيقة أيضا ، الا أنه فى قوام رياضى ملؤه العافية وشباب الألمان ! . .

وقد لاحظوا هنا ـ كما حدثنا المختصون ـ أن الهندسة والاقتصاد بينهما مايشبه الصراع ، منذ كان لابد منهما معا فى كل مصنع وفى كل اقتصاد . . وكلاهما تخصص مستقل قد ينافس الآخر على الانتاج وقد يعارضه فيه . .

ولهذا كان التخصص الجديد باسم « الاقتصاد الهندسى » للتوفيق بين الاختصاصين عند اللزوم . . .

وزميلنا « أنقر اشتاين » درس فى هذا التخصص الجديد ، ونجح فى الامتحان الأخير قبل أسابيع ، وتحصل على « الليسانس » فى « الاقتصاد الهندسى » . .

وسيعمل قريبا فى تخصصه لدى احدى الشركات . . بمرتب لايقل فى البداية عن نحو ألف مارك . . أو ألف ريال سعودى . .

غير أنه كان يعمل فى هذه الأثناء وهو يدرس « الاقتصاد الهندسى » . .

كان يعمل سائقا فى سيارات الأجرة براتب شهرى لايقل عن نحو ثلثمائة مارك . .

انه سائق سيارتنا فى « برلين » بعد أن نجح فى الامتحان ، ونال شهادة التخصص فى « الاقتصاد الهندسى » أو « الهندسة الاقتصادية » إلى آخر المستقبل المنتظر . .

وصدقونى أنه فى منتهى الآدب . . والخلق . .

كان ينتظرنا على « الدركسون » كلما ذهبنا إلى أى فصل من برنامج زياراتنا لبرلين . .

ان ثقافته تخجلنا . . لاسيما وقد تحولت الى سلوك مهذب فى سائق سيارة . .

ان أكثر الناس هنا فى مثل هذا المستوى وفى مثل هذا السلوك . .

ربما كانوا أعلى من بعض الكبار . . فى بعض البلاد ! . .

(١٨)

لعل العرب يتصورون النجاح فى الدعاية بمجرد الكلام و « ضرب البق » !

انهم من سنين يحلمون بالدعاية ويتحمسون لها . . ويشعرون ـ أيضا ـ بمدى الفشل

والضعف فى الاعلام عن قضاياهم وفى كسب الرأى العام العالمى . . الى آخر مانقرؤه فى الصحف . . أونسمع ترتيله باتقان فى الخطب والمؤتمرات . . ثم . . .

ثم لم نجد فى أى بلد من البلاد التى زرناها فى ألمانيا ـ أية دعاية أواعلام عن العرب . . بحماسهم المذكور ! . .

لقد أحسسنا بما يشبه الانقطاع عن أخبار العالم العربى من اليوم الأول فى « همبورج » . .

وسألت عن أية اذاعة عربية نسمعها ، فقال أحدهم : قد تسمع هنا اذاعة « صوت العرب » . . انما فى النادر ! .

وقال الآخر : لاتحاول أن تسمع إذاعة للعرب فى هذه الديار . . .

وقال عربى يقيم فى « بون » انه قد يسمع « صوت العرب » أو اذاعة القاهرة أوغيرها . . ولكن فى حجم معين من الراديو وعلى نسب معينة من الموجات . . وهذا أيضا فى بعض الأوقات التى ينبغى تحرى الاذاعة فيها كما لوكانت هلالا يتحراه الناس فى الأفق ! .

وقد بحثت عن أية صحف عربية . . أو ناد عربى . . أومطعم . . أو أى شيء فى المانيا يدل على أن العرب لهم وجود فى الدنيا ، فلم أجد شيئا يستحق الذكر ـ اللهم إلا العرب الموجودين فى نفس ألمانيا . . من المصرى . . إلى السورى . . إلى الاردنى . . الى العراقى . . الى غيرهم ـ للعمل أو للدراسة فى مختلف العلوم والفنون والصناعات . . غير أنهم كالعرب هناك . . لادليل على وجودهم من أدلة الدعاية والاعلان .

بينما اسرائيل ـ فى ألمانيا وفى كل مكان من العالم ـ اسرائيل . . العدو الذى نتمنى أن نمسح به الارض ـ وسيتحقق يوما ماتمنيناه ـ انها تملؤ الدنيا صراخا ، واعلانا عن نفسها . . . وقد صورت القضية للعالم بشكل معكوس مغاير كل المغايرة للحقيقة والتاريخ . . الا أنها استطاعت أن تكسب به التأييد والشفقة . . باسم الضمير الانسانى لا لشيء . . الا لأن العرب يبدو أنه لاصوت لهم فى هذه الديار . . فيا عدا التمثيل السياسى . . وله قصة أخرى !

ثم كيف يرتفع الصوت الحق إن لم تتوحد الصفوف ؟ !

ذهبنا إلى القطاع الشرقى من برلين . . ومع أن الحدود بين القطاعين ليست أكثر من اشارات تافهة على الأرض ، فى شكل خطوط . . وسلاسل . . وبوابات مفتوحة ـ غير أن اجتيازها لايتم إلا بعد الوقوف ، والفحص ، والاستعلام . . ربما مرارا . . وهـذا للغرباء . . أما الألمان فكأنما تجثم على صدورهم تلك الحدود التافهة ، ويلوح أنهـا البـركان الـذى ترقص عليه دول الكتلتـين . . وسينفجـــر حتما ، سواء طال أوقصر الزمن . !

ودخلنا القطاع الشرقى . .

كان يبدو أن الحرب لم تخمد نارها فيه إلا بالأمس القريب ، فقد كانـت أكوام الدمار . . والحريق . . والخراب ، تواجهنا هنا وهناك . . فى الشوارع التى يلوح أن قسما وافرا من أهلها قد لاذوا بالفرار . !

لقد كان فى وسعى أن أعد الناس ، فى بعضها ، على الأصابع بشكل دقيق . !

وتبدو المحلات و « الفاترينات » مع هدوء الحركة فيها أقرب إلى الوساخة ... ولأول مرة ـ منذ كنا فى ألمانيا ـ شاهدت عدداً وافراً من الذباب . . فى شرق برلين !

وعلى أكثر المحلات حرف (H)ومعناه أنها ملك الدولة . . كذلك الشارع الكبير الذى بنته الدولة على طراز بنيانها فى « موسكو » . . ويسكنه الناس بنظامها المعروف فى السكن . . ومقومات الحياة ! !

وفى مبنى مستدير داخله حوض ماء قذر ـ كان دب يمشى ببلادة وراء السياج . . يقابله دب آخر .. ورمز « الدب الروسى » يمثل التحدى السافر هناك . . فى ميدان كبير لاتنقطع عنه المشاهدات ـ كالتحدى الفظيع فى تمثال النصر الروسى عند الحدود . . وعلى رأسه جندى شاكى السلاح . . وأمامه إلى اليمين والشمال دبابتان كانتا فى مقدمة الفتح الروسى يوم انهارت برلين . .

وكان مرافقنا « أوده » يختنـق صوتـه بشىء أكبـر من الدمـوع إذ يروى قصـة التمثال . . والدب . . ويشير إلى خط القسمة الذى كان يفصل الاسفلت أحيانا من نصف طول الخط . !

ثم أخذنا الى القسمة العجيبة فى بيت صغير . . كان نصفه شرقيا . . ونصفه غربيا . .

لقد اختار أهله النصف الغربى . . أما النصف الآخر فقد تركوه للشيطان . . والجفاف . !

(٢٠)

فى مدينة اللاجئين ، فى برلين ، غرفة يجلس إلى مكتب كبير مستطيل فيها ثلاثة رجال . . واستغرق اهتمامى أحدهم ، فقد كان بيد واحدة أظنها اليسرى فقط . .

وقدم حينذاك وافد من اللاجئين فى عنفوان الصحة والشباب . . وأخذ مجلسه على رأس المكتب المقابل لمجلسنا فى صدر الغرفة . .

وأخذ الرجل الذى استغرق أهتمامى أول الأمر يباشر معه مهمة التحقيق ، ويراجع ملفا أمامه ، ويتولى السؤال والكتابة بيسراه ، كلما أجاب الوافد الذى كان يتحدث عن قصص هربه واتهامه هناك ، فى القطاع الشرقى ، بشتى الاتهامات. .

كان واضح الانفعال والنبرات ، كملامحه التى كادت تنطق بما يقول . . فى أدب جم رقيق . .

ثم تبينت أن الموظف الثانى ـ وكان على رأس المكتب المجاور لمجلسنا ـ بساق واحدة . . أما الأخرى فقد كانت من الخشب . . وكان فى يديه أوراق يطالعها ويكتب فيها ، ويتتبع التحقيق الجارى باهتمام . .

وكان ثالثهم يتابع التحقيق ، ثم يقف أحيانا ، ويذهب إلى النافذة ، ثم يعود ويشارك فى الاصغاء .

ثم حدثونا عن قصصهم . . انها تبدؤ من الحرب العالمية الأولى . . خلاصتها المأساة . . والمغامرة . . والكفاح الطويل . .

ولم يدهشنى اختيارهم بعد كل هذا التاريخ لمهمة التحقيق فى أحوال اللاجئين . . ليس هو عطفا أورعاية لشيخوختهم فحسب ، بل لخبرتهم العميقة بمن هناك . . وعموما بأحوال الدنيا !

كانوا يجتازون مرحلة الشيخوخة بأمان وطمأنينة فى قلوبهم . . وعلى ملامحهم ، كأنما قد خلت من القلق والبغضاء . . للأبد . .

ولهذا كانوا يعملون . . فى جو سعيد !

(٢١)

التصـــوير ممنـــــوع !

قيل هذا لنا على الرصيف ونحن نغادر السيارة إلى مبنى أومدينـة اللاجئـين فى برلين . . ولم أفهم السر الا وأنا أدخل الأبواب ، فقد كان فى الوجوه والملامح التى هناك سر منع التصوير ، ومصادرة هوايته من السائحين . .

كان معنى الماضى التعيس فى بعضهم أوضح من البيان ومن التصوير . .

انه يفسر أسباب الهجرة . . وماوراء الحدود فى منطقة الشرق ! . .

وهناك . . فى داخل المدينة نظام عجيب يستقبل العدد الضخم الذى يرد يوميا من اللاجئين . . ثم يحتفظ بهم فى المدينة رهن التحقيق عنهـم وعـن ماضيهـم ، وعـن صلاحيتهم للوطن ، ثم عن رغباتهم فى المستقبل . . حتى يُرحِّلوهم إلى حيث يرغبون ، ويوظفوهم هناك فى ميدان العمل الذى يتطلب المزيد دائما من العاملين . .

كل هذا يجرى بمنتهى الدقة . . والاناقة . . والعناية بهم من جميع الوجوه فى هذه الأثناء ، كما لوكانوا فى مدينة قد استوفت كل أسباب الراحة . . والحياة ، أوكما لوكانوا فى فندق متفوق كبير . .

ويعتبر الألمان مع هذا قصة اللاجئين من شرقهم إلى غربهم . . مأساة كبرى تحرك الشجن والدموع ! . .

لقد طافت بخيالى حينذاك صورة اللاجئين من فلسطين ، الى بعض الديار . .

ان مأساتهم تحرك الدم وتشعل فيه النار . . فليتذكر هذا أصدقاء اليهود فى كل مكان . . لاسيا أولئك الذين فى ديارهم قصة مماثلة لقصة اللاجئين فى بعض الديار !

(٢٢)

نزلنا من القطار وقد ارتفعت شمس الضحى ، وكانت حقائبنا فى أيدينا . .

وأخذنا نستدعى رجال العربات الصغيرة التـى يجرونهـا ، و« عفش » الـركاب عليها ، بنفس المعنوية التى يباشر بها الموظف وظيفة من أعلى الدرجات ، وبنفس الأدب والنشاط . !

حتى جاء أحدهم ، فأودعناه ممتلكاتنا . . وذهب . . وذهبنا . . ثم لاأدرى كيف

غاب فى الزحام ونحن نبرز تذاكر القطار، لتفتح لنا أبواب الخروج فى محطة « ميونيخ » . .

وأخذت يمينا . . وأخذ زميلى شمالا . . ثم تخبطت بين اليمين والشمال مرارا للبحث عن الرجل بدون جدوى . .

وأخذت أتصور الكارثة فيما لو ذهب بحقائبنا ولم يعد ، ونحن لانعرف له شكلا أورقما أو لونا يميزه بين آلاف الناس . .

انه مصير محزن ليس هو الاالضياع والحيرة ، والانتظار فى شكل انسان عاطل كل موجوده هو الثياب التى عليه . . حتى يأذن الله .

واتسعت الهوة تحت قدمى وأنا أضرب كيفما اتفق فى بهو المحطة . . ليس للبحث عن الرجل ، بل عن الزميل الذى غاب ، أيضا ، فى البحث عن الرجل . !

وأخذت اتأمل وجوه الناس ، و« أكشاك » الباعة ، وكل ماحوالى ، ببلادة أشد أعصابى عليها من الانهيار ، كما لو أصبحت الحياة شيئا لايطاق . !

ومضيت إلى خارج المحطة ، وتابعت قدمى فى مغادرة المحطة . . بالبلادة نفسها . . واحساس من يقول : فليكن مايكون . !

واذا بالزميل ينادى من بعيد . .

قلت : هل وجدت الرجل ؟

قال : كان يبحث عنا هو الآخر . . بنفس الكرب والعناء . . حتى لقد عرفنى هو ، وسلمنى الحقائب . . وعندما اختلفنا على الأجر رفض النقاش ، ثم غاب بعربته حالا فى هذا الزحام. .

وهكذا ظل أجر ذلك الرجل الأمين فى ذمة الزميل . !

أما الأمانة فأجرها على الله .

(٢٣)

ذهبت أبحث عن « أوتيل » مناسب فى أجره . . وسكناه !

وطرقت مع الزميل الجديد أبواب عدة « أوتيلات » بدون جدوى ، فقد كانت كلها مشغولة . . من الألف للياء . . غير أن بعضها كان يَعِدُ باحتمال أن تكون احدى الغرف خالية مساء اليوم أو غدا ، وبعضها كان يحيلنا إلى بعضها بروح طيبة ملؤها

حب المصلحة للجميع !

وقد فهمت أن الاعلانات قد يراعى فيها هناك نفس المبدأ ، إذ يعلن جماعة من الناس عن محلات بأسرها ، وعن بضاعتهم الموحدة فيها ، وعن كل مصلحة تعنى الفرد الواحد - فى الواقع - ولكن كل واحد يمثل الجماعة . . وتمثله . . هناك !

ومظاهر الاخاء بينهم كثيرة فى دنيا التعامل . . الى حد رقيق خال من التصنع والافتعال !

وربما بدا مدهشا أننى لم أجد اثنين . . أوأكثر . . فى حالة خصومة أولجاج . . طيلة الأيام التى قضيتها هناك .

كان الكلام - والتعامل عموما - يجرى بينهم فى جو أقرب إلى جو الأدب . . والغزل !

وفى مثل هذه التتبعات لحياة القوم . . ومظاهر الخلق . . والفكر . . والجمال - أذهبت أيامى الباقية فى « ميونيخ » فى نفس الاوتيل الذى لم أجد بديلا له بنفس فنه . . ومزاياه . . حتى وان ثقل الأجر !

وفيه تخلصت من أمتعتى القديمة ، وحددت مشترواتى من الجديد ، لاختصار الوزن الزائد بقدر الامكان ، بعد أن تقرر احتسابه بمقتضى النظام !

وكنت أظل وحدى - غالبا - الى الظهر . . بين الأسواق . . والميادين الرائعة . . والمحلات التى توصوص فيها كالنجوم !

ثم أتناول غذائى فى المطعم المفضل . .

ثم أقضى سهرة مع الزميل الجديد . . قد تقصر . . ولكنها لاتطول !

ومضت اللحظات الباقية . . كالحلم .

(٢٤)

اسم « السجق » بالانجليزية « هوت دوقز » وهو وإن كان معناه فظيعا ، لأن ترجمته « الكلاب الساخنة » إلا أنه فى الواقع هو « السجق » المعروف ، غير أنه هناك عرضة دائمة للحم الخنزير . . مالم يشترط الزبون ، ويؤكد رغبته فى سلامة « السجق » حتى من دهن الحيوان المذكور ! .

وقد ذهبت وحدى الى مطعمى المفضل فى « ميونيخ » وظللت كالعائم فى بحر من

الناس على مائدة فيها معنى الوقار !

وجاء « الجرسون » وينادونه هناك بكلمة « أوفا » بتعطيش الفاء . . أى بترقيقها الى حد « السَّيَّبَان » فى الشفاه . .

وانحنى أمامى كالمعتاد . .

وأمليت طلباتى . . ومن ضمنها « هوت دوجز » . .

ولم يبد عليه مطلقا أنه فهم معنى الطلب ، وهو « السجق » والعهدة على الزميل الضليع فى الانجليزية . . أوكما يلوح !

وأخذت أصور له « السجق » على الورق ! . . ثم أخذنا نتبادل تصويره بفكرة الضبط والاتقان . .

ثم انصرف وقد اقتنعت من جانبى بأنه فهم المقصود ، لأن هذا كان واضحا عليه. .

وأخذت فى الانتظار . . أتأمل الناس الذين كان المطعم يغص بهم . . ثم لايجد بعضهم مكانا فيه ، ولقد كانت المائدة الواحدة يجتمع الناس عليها كيفما اتفق وكما حدث لى فى أكثر من مكان . .

وجاء الجرسون أخيراً بالطعام . . وكان طبق السمك فى المقدمة . . وعرفت بذكائى حينئذ أنه هو الطلب الذى فهمه بعد كل الشرح ، والرسم ، والتفصيل . .

وكان سمكا لذيذا . . عدا أن الطمأنينة اليه حاصلة ، بحكم أنه يموت موتا عالميا متفقا عليه !

ثم ان فيه شيئاً من ذكاء الألمان . . شيئاً كشوك السمك الخفيف المؤذى أحياناً !

(٢٥)

كنا نصادف العرب أحياناً فى « ميونيخ » وأغلبهم من الشباب الذى يعمل ، ويدرس ، فى نفس الوقت . .

فليس هناك عاطل ، أوشحات . . وقد حدثنا أحدهم ممن كان يتجرأ ، أونتجرأ ، فنبدؤه بالكلام ، حدثنا أنه اشتغل فى اليوم الثانى بعد وصوله إلى « ميونيخ » وأن كل من يريد العمل يستطيعه فى الحال . .

كنا نميز اخواننا العرب إما باللون . . أوبالكلام . . أوبالشنب ! . .

فان موضة الرجال فى القرن العشرين ـ الا بعض الناس أوبعض العرب ـ أن

يحلقوا الشنب واللحية معا . . وهذا بعض ماقد يشابهون فيه النساء ! . .

أما فيا عدا ذلك فانهم ـ والحق يقال ! ـ أقرب إلى الاحتشام من المرأة التى لم يعد بينها وبين أن تمشى غارية فى الشارع إلاشىء قليل ! . .

المهم أن الشنب قد يخدع أحياناً . . فقد جلس ثلاثة ، بشنبات ، على المائدة التى تجاورنى ، وأنا على المائدة الأنيقة فى المطعم الذى تعودت أن أرتاده للغذاء ، وحدى ، فى « ميونيخ » . .

وظننتهم من العرب مذ أخذوا يبادلوننى النظر بمعنى الاستفسار الرقيق ، فبدأتهم بالسؤال . . وقلت :

ـ عرب ؟

قال أحدهم . . وخيل إلى أنهم جميعا قالوا :

ـ نو . . عرب ! . .

وذكروا بلداً لم أتبينه على ألسنتهم ، ولكننى تخيلت اسرائيل . . وتبادلنا النظر . . والابتسام . . طويلا . .

وتجاهلتهم أخيراً حتى انصرفوا . . ولكن أحدهم ودعنى على البعد باشارة مصحوبة بابتسام رقيق . . .

ثم أصبحت بعدها أتردد كثيرا اذا لقيت ، أو لقينى ، شنب !

(٢٦)

ذهبت مرة أخرى الى ذلك المقهى الذى تعرفنا على موائده ببعض الطلاب العرب .. وخالجنى شىء كالطمأنينة وقد رأيت مجموعة منهم على احدى الموائد هناك ..

ثم كان مجلسى غير بعيد عنهم ، فأودعت نظراتى معنى التطلع الى التعارف .. غير أن بعضهم كان يبادلنى النظر .. انما فى حدود الاكتشاف !

وقد تحرَّجْت من مبادأتهم بالكلام ، منذ لم يكن بينهم أى وجه عرفته من قبل .. ثم إنهم كانوا مجموعة .. وكنت وحدى .. وعساه واضحا أننى غريب .. وهم معتوطنون ..

فشرعت القلم ، وأخذت أكتب .. ربما لاستثارة فضولهم ، فان الكتابة من اليمين الى اليسار قد تدل على العروبة ، ان لم تكن ملامحى كافية لمثل هذا الغرض ، وهى كالشَّعَر الأسمر القليل فى الجلد الابيض .. فى « ميونيخ » .. وأخذ المطر يهطل مدرارا فى

هذه الأثناء ... حتى انفضوا ..

وكان الوقت مساء الاحد .. وأخذت أفكر باهتمام فيمن سيحل لى مشكلة التفاهم على ما لا يجدى فيه الا اللسان الخبير ـ حقا ـ بلغة القوم .. وغدا يوم الاثنين .. كيف يتسنى الظفر فيه بأحدهم من بين أعمالهم ؟

وتملكنى شعور قاتم مرير بالوحدة ، وباليأس الذى يخامر الانسان عادة ، فى مثل هذه المناسبات ، ضد الحياة ، كأنما تعاديه وحده دون الآخرين .!

غير أن هذا لم يمنعنى من الشعور حينئذ بوطأة الجوع ، وبارجاء التفكير فى المشكلة والتماس حلها الى فرصة أخرى ..

وأخذت أسحب قدمى سحبا أول الأمر .. ثم ضاعفت خطواتى ، بمشقة ، بين من كانوا مثلى يتهربون على الأرصفة من كاشح المطر الشديد .

وعندما بلغت واجهة المطعم المختار كان العناء قد بلغ منى ، وضاعف مرارة شعورى باليأس ضد الحياة !

ثم لا أدرى كيف انشقت الأرض فجأة عن أحد أولئك الطلاب ، إذ صافحنى باسما ، وتعارفنا فى الحال ..

وعدا أنه كان يتقن الألمانية ، فقد كان من أبطال الرياضة فى الوزن الثقيل .! ثم لم تمض ليلتنا الا وقد أصبحنا أصدقاء !

(٢٧)

صدقنى الزميل الجديد اذ جاءنى فى الموعد .. ضحى الاثنين .. وخرجنا معا الى الهدف الأهم فى « لوفت هانزا » ..

وفى مكتب المدير .. أو من تخيلته مديرا .. فى شخص ذلك الشاب الأنيق ، حددت موعد السفر بالخميس .. من « ميونيخ » للظهران ، باستثناء الهبوط المؤقت فى المطارات ..

وكان من قبل قد وعد بالنظر فى مسألة الوزن الزائد عن المقرر لراكب الطائرة ... باعتبارى من بقايا الضيوف .. ، فسألته عن النتيجة ، بلسان الزميل الترجمان ..

ومرة أخرى ـ كما أظن ـ رجع الى ما يشبه الكتب الصغيرة أو القواميس ، وتحدث بالتلفون .. ثم تراطن كثيرا مع الزميل بالألمانى الفصيح .. حتى قال لى هذا :

ـ انه يأسف ، لأن كل مازاد عن الوزن بحسابه .. وقد حاولت اقناعه كثيرا بأن الضيافة ـ فى عرفنا نحن العرب ـ تتجاوز عن مثل هذه التفاهات .. وأن الضيف ضيف ـ عندنا أيضا ـ من البداية الى النهاية ، بكل جملته وتفاصيله .. غير أنه ـ أى المدير الأنيق ـ لم يزد على الأسف .. لاسيا وأنه قد راجع تلفونيا ، فلم يتلق أية تعليات بمخالفة النظام !

ولم يسعنى أن أطيل الجدل فى التفاهات .. أو غيرها .. بعد كلمة النظام ، فهو عندهم شيء حى مقدس ، تحس حقا أنه هو الذى يحكم الشارع .. والبيت .. والمصنع .. وكل شيء .. حتى دنيا الهوى والغرام !

ربما كان السر هو أنه نظام سليم ـ على مبادئهم ـ

ان مما يعرض النظام للزعزعة والعبث فى التنفيذ ، هو أنه من أساسه نظام مزعزع غير سليم !

غير أننى ابتلعت ريقى بما يشبه الذعر ، مذ سألت عن سعر الكيلو الزائد بعد الوزن المقرر ، فقالل انه ثلاثة دولارات ونحو « ٧٥ » سانتا .. أى نحو بضعة عشر ريالا !

وخرجت فى صحبة الزميل .. أفكر بجد فى الخلاص من أمتعتى القديمة .. مع كل احترام ـ ربما خالطه الأسف ـ للنظام !

(٢٨)

ربما كان المتاع القديم ، فى مزاج بعض الناس ، كالصديق القديم .. مهما خف أو ثقل .. أحسن أو أساء ، فسيبدو فراقه صعبا عند اللزوم .. كالذى كان يوم أن قررت « لوفت هانزا » أن يكون الوزن الزائد عن المقرر لراكب الطائرة ـ على حسابه .. خارج الضيافة .. بمقتضى النظام !

وكان هذا معناه أرقاما ضخمة من مئات « الماركات » لو لم أتخلص من المتاع القديم ، مما ثقل وزنه ، وخف ثمنه .. بعد طول العشرة وكثرة الاستعمال !

غير أننى شعرت بالذى قد أشعر به أحيانا اذا اقتطعتُ من أطرافى شيئا كالأظافر.. وبددته فى التراب ..

انه شيء كالأسى والحنين لفراق كهذا .. فى غربة غامضة .. هناك .. فى « ميونيخ » ..

وكان من بين أمتعتى القديمة « علب فول » أخذتها ـ يوم كنا فى بداية الرحلة من الظهران ، وقال لى حينئذ « بابا عباس » :

فى أوربا لا يوجد « الفول » اطلاقا أو غالبا كما فهمت .. ولعلنا ـ بحكم « الاستفوال » الطويل فى تاريخنا ! ـ قد نشتهيه يوما .. ثم لا نجده هناك ..

وبدى عليه معنى التأييد والاستثقال معا .. ربما لأن فكرة الفول ليست تقدمية .. ونحن فى الطريق لبلاد المتقدمين !

وطارت « علب الفول » معنا الى كل مكان ، ثم أيّد الزميل فكرة انتقالها فى المعية الى « أمستردام » من باب الشوق .. والاحتياط أيضا .. بعد انتهاء الضيافات ! حتى استقرت معى أخيرا فى « ميونيخ » ولقد « هفنى » الشوق اليها مرارا ، غير أنها لم تكن من نصيبى .. انما من نصيب الزميل الجديد .. ولعل من غريب المصادفات أن اسمه « عباس » كاسم الزميل القديم الذى لم يكن له فيها ـ مثلى ـ أى نصيب ، الا المشايعة بالرأى والأحلام ..

وهكذا .. يلوح أن الأرزاق قد تحددت مصائرها من وقت طويل !

(٢٩)

ربما تذكرت يوما متاع الحياة التى يعيشها الأوربيون وطرازها الأنيق .. ولقد يوسوس الشيطان حينئذ ـ كعادته ـ اذ يلوح وهو يرسل سؤالا فى الهواء .. هكذا .. كأنما لا يعنيه أولا يعنينى السؤال ، فأتجاهله أول الامر ، غير أنه يلح فى الوسوسة بطرائقها التى لا تنفد ..

وأتحرى السؤال عندها ، فاذا هو يشير لمتاع الحياة التى تذكرتها .. هناك .. فى أوروبا .. ويقول :

ـ كيف هى ؟

فأتجاهل سؤاله ، ولكنه يواصل بقوله :

ـ أليست رائعة حقا ؟!

ويشعر بموافقتى اجمالا على الجواب ، فيضيف :

ـ كيف هذا .. والقوم على ملة خاسرة كما ترون ؟

وتتحرك أفكارى بشكل عصبى ضد اللعين اذ يقول :

ـ لا .. ليس هكذا .. تعال نتناقش بهدوء .. انهم هناك فى البلاد التى يلوح نظام

الحياة رائعا بها (ويغمزهنا بعينيه !) انهم هناك لا يتناقشون بأعصابهم .. ثم قد رأيت ما هم فيه من مستوى عمرانى .. ولا يخفاك التفوق فى عقولهم ، وأجسامهم .. وأخلاقهم أيضا .. ولهذا وما اليه كانوا الأعلون فى سُلَّم الحياة ... كيف هذا فى الملة الخاسرة ؟

ثم يتردد اللعين قبل أن يضيف هذا السؤال :

ـ ثم أين أهل الملة الرابحة من هذا السُلَّم .. ومن كل تلك المزايا .. والحياة ؟

ويسعنى حينئذ أن أجيبه ـ وقد ملكت أعصابى ـ بمعنى البصاق فى وجهه القبيح ، وبكلام يطول شرحه الآن ..!

(٣٠)

لم ينته كلامى عن ألمانيا .. وربما مل بعض القراء أى كلام عن العالم الخارجى .. لاسيما اذا طال ، أو قد يتصور الاسراف بعضهم ، أو المبالغة والاطراء فى شىء من هذا الكلام ..

والحق أن ما فى نفسى لم يفرغ بعد ..

ولقد قضيت فى بلاد الألمان أياما قد تعد على الأصابع ، الا أننى رأيت قسما وافرا من مدنها الهامة فى تلك الأيام !

ومن المعلوم اجمالا أن الحرب قد دمرت هذه المدن وسواها تدميرا لا تقل نسبته عن نحو ٦٠ أو ٧٠ فى المائة من مجموع بلاد الألمان ..

كان هذا فى سنة ١٩٤٥ ..

وقصة الشقاء الذى كان يعانيه الألمان بعد الهزيمة قصة مريرة لم يبق فى الناس من يجهلها كما أظن ..

ثم مضت خمسة عشر عاما ، فقط وهى مدة مضت مثلها وأضعاف مثلها على كثير من الشعوب فى الشرق .. والغرب .. الا أنها لم تنهض كما نهض شعب الألمان فى هذه الأثناء !

أنشأوا المدن التى كانت أنقاضها تحت الدمار ، فاذا هى اليوم نسق رائع فى العمران والتخطيط لا تكاد تتميز به مدينة عن سواها .. حتى القرية تبدو بنفس النسق والنظام ..

وأنشأوا صناعتهم بعقل بارع كأنه يتحدى الهزيمة ويسخر منها ..

ويروون عن « ارهارد » ـ بطلهم الاقتصادى ـ أنه قال : ربما كانت الحرب من حسن حظنا ، فقد أتاحت لنا أن نستبدل مصانعنا القديمة بطراز متفوق حديث . !

وهذا حق برغم التيه والكبرياء فيه ..

فمؤسساتهم الصناعية ـ ويبلغ عددها فى احصائهم ٩١,٠٠٠ مؤسسة ـ تزاحم اليوم مؤسسات العالم ، وتتفوق على معظمها فى الانتاج . !

كما يبلغ عدد أسطولهم التجارى « ٢٥٠٠ » سفينة .. الى آخر الاحصائيات التى رفعت مستوى الاقتصاد عندهم الى مكان التفوق بلا شك فى العالم ..

والذين كانوا فى عقابيل تلك الهزيمة الدامية قبل خمسة عشر عاما ـ أصبحوا يقرضون اليوم بريطانيا .. وفرنسا .. بمنتهى السخاء .. ويمدون يد التعويضات والمساعدات لليهود باسم الانسانية . !

ويبدو مستوى المعيشة لديهم أقرب الى البذخ والترف .. ، حتى الذين هم من الطبقة العاملة أو المتوسطة يتمتعون بنفس المستوى .. على قدر الحال والمقام ..

ان هذا يتحدث عن الخلق والكفاح فى هذا الشعب العجيب ..

وللكلام بقايا .. فلا تظنونى أسرفت أو بالغت إن وسعنى الكلام !

(٣١)

بدأت أشعر بالحنين لبلادى ..

ان كل شىء هنا رائع جميل حقا .. غير أننى تذكرت التراب فى بلادى ، وأحسست انى أهيم حباً فيه وحنيناً إليه

الناس هنا فى منتهى الاناقة ، والنظام طابع الحياة .. ربما فى كل شبر من الديار التى مررنا بها مرور الكرام فى ألمانيا .. وهولندا ..

اناقة الزهور .. والطبيعة ..

واناقة الانسان ..

والتقدم والعمران .. والحضارة .. وعبقرية الآلة .. والازرار ..

طراز من الحياة يملؤ القلب .. والفكر ..

غير أننى بدأت أشعر بمعنى الرماد فيه ..

أو كما قال الشاعر ايليا أبو ماضى فى قصيدة « الدمعة الخرساء » :

لا شيء مما حولنا .. وأمامنا .. ::::. حسن لدينا .. والجمال كثير ..

انها عقدة الوطن والتراب .. فى نفوسنا .. لا تحلها المتعة أو الاسترخاء فى جنان الارض ومفاتنها التى لا يغيب عنها ضوء الشمس ، أو معناها ، بين كل بدعة وأخرى تفوق الأحلام ..

ان الحسنة قد تذكر بالسيئة ، غير أن الحنين الغلاب قد يتصورها حسنة .. وان كانت فى اطار من الوحل .. والغث .. وبرح الهموم !..

انها أيام حلوة قضيتها هناك .. ثم .. ثم بدأت أتصور الحامض .. وأتفقد خياله فى نفسى ..

اننى فى حالة سأم من الحلو .. والشعر .. والجمال .. وتفوق الحياة ..

اننى أشعر بشىء كالكرب يتجسد فى أعصابى ضد كل الديار .. الا التى أشم رائحة التراب فيها .. وأنا منها على مسافة أجيال ..

ربما كانت خرافة ، أو عقدة .. أو مرضا اسمه الوطن ..

غير أنه شيء أحس معنى الحنين ـ حقاـ اليه .. وأنا فى « الأمبسادور » بين أحضان « ميونيخ » .. البلد التى تشرق الشمس فيها وتغرب على حقائق .. وأحلام !

(٣٢)

● عرفت الله كثيرا وفى شتى المناسبات .. بيد أننى كدت أراه عيانا فى مطار « فرانكفورت » ..

وكنت قد جئته وحدى من « ميونيخ » ..

ورغم أننى قضيت لحظات سعيدة فى الطائرة مع « كابتن » من « بوستن » تعارفنا خلالها ـ مذ تجاورنا ـ وتكلمنا فى أكثر من موضوع .. من الألمان .. الى الأمريكان .. الى آخر ما « دردشنا » فيه ..

ثم نزلت بمنتهى الطمأنينة فى مطار « فرانكفورت » وراجعت مكتب « لوفت هانزا » فى المطار .. وأخذت منه التذكرة الخاصة بسفرى الى روما ، فالقاهرة ، فالظهـران ، وعلمت منه أن موعد السفر هو الثانية عشر ظهرا بتوقيتهم هناك ..

ثم أكد لى غيره هذا الموعد ..

وصعدت وحدى الى « بوفيه » الانتظار ، وأخذت أتجول فيه بطمأنينة ، وأتأمل وجوه الناس .. أبحث عن اللون العربى فيها بشغف كبير ..

ثم قضيت حاجة بعد أن تركت ما أحمله من المتاع فى رعاية ضابط على مكتب أنيق ..

وكنت أعرف أن الميكروفون سيدعو ركاب الطائرة اليها اذا حل موعد السفر .

رغم كل هذا ظللت فيما يشبه الحيرة الغامضة وأنا وحدى بين خلق كثير يدبون كالنمل فى « البوفيه » ..

وركزت ظهرى بجوار الضابط .. وأخذت أتأمل الوجوه ، وأنصت .. لعلى أسمع حرفا عربيا هنا أو هناك .. واذا أنا أرى فجأة أحد الأصدقاء ، ولم يقض لى مهمة واحدة فحسب .. بل مهمات شتى ..

واختنقت بدموع الفرح والشكر وأنا أتذكر نعمة الله .. وجحود البشر !

(٣٣)

كان معنا فى الطائرة من فرانكفورت الى الظهران « أمريكى » موظف هناك فى « ارامكو » من أحد عشر عاما .. ثم هو لا يعرف من اللغة العربية الا أقل من بضع كلمات .. وينطقها أيضا بمنتهى الصعوبة والتكسير ! ..

وأدهشنى ذلك ، فان أى انسان يقيم فى جماعة من الناس ، سيتعلم لغتهم بحكم العشرة ، وسيتقنها حتما فى أقل ، بكثير ، من أحد عشر عاما ..

ان مثل هذا الزمن يكفى ليتحول الانسان الى أستاذ كبير فى اللغة الجديدة ! وأبديت شيئا من هذا لزميل الرحلة ... وأجاب بكلام عن اختلاطهم - أى الامريكان - بالعرب فى منطقة ارامكو ، وعن ضعف أو عدم هذا الاختلاط ! ...

وهو كلام أضعف من الاختلاط ... إن صح أنه ضعيف كما قال !...

غير أن الاختلاط ، أو تعلم اللغة ، لا يكون عادة إلا مع الشعور بالضرورة التى تسوق أحدنا قهرا الى أن يتعلم تلك اللغة ...

ومثل هذا الشعور لا وجود له - كما أظن - فى منطقة أرامكو ، والا لما قضى فيها الامريكى احد عشر عاما ... ثم ظل لا يحفظ من لغتنا الا أقل من بضع كلمات !..

وأخشى أن لا يكون الامر خاصا بالكلام ...

ربما كانت القيود نفسها فى الشركة بغير لغتنا ... خلافا للاوامر الصادرة من سنين كما قالت الزميلة (عكاظ) ..

واذا كانت الرقابة .. والعقوبة حماية لابد منها لتنفيذ الاوامر ، فان وزارة التجارة ستمارس - ولا شك - هذه الحماية بأسلوب حازم يصحح الوضع المخالف .. سواء كان فى أرامكو ... ام فى غيرها من الشركات التى يجوز عليها نفس الاحتمال .. هنا ... أو هناك !!!

ولكن من مصلحتنا - أيضا - أن ننشر لغتنا على الالسنة فى كل العالم ... لا سيما وانها سيدة اللغات .. ووجود عدد كبير كأهل أرامكو فى الظهران ، فرصة يجب أن نستغلها لمثل هذا الهدف ...

القسم الثالث

بين الشرق والغرب

- الأرض الطائرة
- على الأرصفة في بومباي
- لحظات في الهند
- ليلة في بانكوك
- الثعبان الضخم
- الشمس بعد منتصف الليل
- من لندن إلى واشنطون
- الوعي هناك .. وهنا !
- ابراهام لنكولن
- هونولولو على كف عفريت
- الهرب من طوكيو !
- تايوان .. ورأس الأفعى
- بلد العجايب !
- بين سنغافورة وهونج كونج



الأرض الطائرة

يقلّب الله الليل والنهار فى نظام متقن بديع ترتبط حياة الناس والعالم به وبما يترتب عليه من فصول مطردة فى نظام بديع لا يكاد يدركه الخلل يوما أو الاضطراب ، رغم ما لا يحصى من السنين التى مضت منذ عمر الأحياء الأرض أو من قبل أن يعمروها ، وهذه حقيقة معروفة . غير أن من الطريف أن يعيسها الانسان واقعا أو فى الخيال ليرى كيف تشرق الشمس التى غربت فى اليابان على جزر (هاواى) ؟ وكيف تلمع الظهيرة فى صحراء الجزيرة ، عندما يشرق الضحى فى (لندن) ملفعا بالغيوم ، أو عندما يطل المساء فى الوقت ذاته على (بانكوك) مثلا أو (الباكستان) !

وتبدو الطائرة من باريس حتى « نيويورك » وكأنها تسابق الشمس .. حتى اذا هبطت لم تبعد عنها أو عن حركتها معها عندما طارت من هناك ... فاذا واصلت سيرها الى الجنوب فكأنما ارتد الزمن الى الوراء ... الى فصل الربيع ، من فصل الخريف ، أو الى الشتاء من فصل الصيف بين طرف وآخر من هذه الأرض التى كتب الله فيها وعليها محنة الانسان ... ثم لا شىء الا أنه يدور معها كأضخم شىء فيما نعرف ، وكاحدى الطائرات التافهة بين ملايين النجوم والكواكب التى لاترى العين منها الا ماتراه .

وعلى الأرض الطائرة مالا يحصى من المخلوقات ، تختلف أشكالها وألوانها وأسرار خلقها ، ويجهلها الناس مهما تطور العلم ومهما سار فيهم مسيرة الوهم والغرور .

وهناك فى الأرض الطائرة بحر وبر وفضاء ، وبساط أخضر يكسو الجبل والسهل فى بقاع دون أخرى يكسوها وبر الصحراء .

وهناك النهر ، والبحيرة ، والضباب ، وأسراب من الطيور والخلْق البديع والعطاء السخى فى جهات يرتفع فى غيرها نذير الخطر والجفاف ....

وهنالك براعة الخلق فى صور بارعة من الشعر ... والجمال ... والعيش السعيد اجمالا ... كبراعة الخلق فى نقائضها على اختلاف السمات والمزايا ...

والانسان بينها ، وبين الليل والنهار ، وتقلبات الطبيعة عليه وعلى الأرض التى يدور معها . يبدو شيئا واحدا فى الأصل والتصميم والمظهر الاجمالى العام ، الا أنه يتغاير الى حد التناقض أو الصراع ....

فى بعض الجهات يأكلون الثعابين والأفاعى فى مطاعم منسقة كالتى يؤكل فيها اللحم والدجاج ، وفى بعضها يأكلون مخ القرد ... وفى بعضها لا يأكلون الحمام ، وفى ملامح الناس بين أجزاء العالم ما يذكر بالسمك أو الغزلان أو بالقردة ، أو بالخراف ،

ونظام الحياة يختلف بين جهات وأخرى سواء كان هو نظام الفرد أو الجماعة ... وتنبت الارض من زرعها أشكالا مختلفة عن بعضها . ان فى بعض الجهات أصنافا من الفاكهة والطعام مجهولة فى غيرها كما لا يُعَدُّ من أصناف العادات والتقاليد والأزياء اجمالا وتفصيلا .

وهناك الكثير مما قد نعرفه نظريا ، ولكننا نعيه حق الوعى اذا عرفناه بالتجربة والمعاناة ... ثم لانكاد نعرف الا القليل من ملامح القدرة البارعة التى أتقنت صنع كل شيء ....

على الأرصفة في بومباي

كان بهو الفندق يعج بالحركة وألوان مختلفة من الوجوه ، والأزياء والألسنة ... مما يحرك التأملات ... وكنت مغرما بها وبالاستلقاء معا بعد سفر طويل ركبناه ضحىً قبل العاشرة فى الرياض حتى ما بعد التاسعة ليلا فى فندق (بومباى) مع احتساب فرق الزمن بين البلدين .

وذهبنا بين انحناءات خدم الفندق الى غرفنا ... وما كدنا نستقر حتى جاءنا عبر الهاتف كلام عن الطائرة التى كنا سنستقلها فجرا ، أى بعد بضع ساعات ، من مطار (بومباى) الى مطارات أخرى حتى نصل الى (تايبيه) أو الصين الوطنية .

وقال المتحدث : لقد تأخر اقلاع الطائرة الى العاشرة من ضحى اليوم التالى ....

قلت : حسنا ... واسترحت لهذا التأخير وقد طالت به فرصة الراحة والتطلع الى مايمكن التطلع اليه هناك .

وأمضيت نحو ساعة فى التقلب على السرير لاتخاذ الوضع المريح بين التأملات وبقايا الاهتزاز النفسى بعد معاشرة الطائرة بين (الرياض) و (بومباى) ثم فوجئت بالهاتف يواصل النداء ويؤكد موعد سفر الطائرة غدا ....

وبعد اغفاءة لم تدم طويلا صاح الهاتف مرة أخرى بنداء مماثل ...

لهذا ولحكايات مماثلة وددت أن تتيح الفنادق لنزلائها ما يساعد عند اللزوم على فصل الاتصال الهاتفى وقطع أية مكالمات قد لا تنقطع من داخل الفندق ، بفضل الاتصال المباشر غالبا بين الغرف ، اذا انقطعت من خارج الفندق بتوصية الموظف الوسيط الذى قد يهمل أو ينسى او يتغير ولا يثبت التوصية ....

وأزحت الستائر بعد مشرق الشمس عن النافذة ، وأخذت أدير النظر فيما حوالى الفندق وكنا فى طوابقه العليا ....

كان هناك ميناء (بومباى) وقد استيقظت الحركة مبكرة فيه ، بين أبواق البواخر ونشاط القوارب ، وأصوات الغربان التى كانت تحوم فوق البحر ... وعلى الأرصفة المقابلة عدد من الرجال والنساء والأطفال .. بعضهم يكنس وبعضهم يوقد نارا ... وهناك أشجار كبيرة يستظلونها ويستخدمونها لأغراض معشتهم فوق الأرصفة التى.

ينامون ويصحون عليها كل يوم .

وغير بعيد عن النافذة التى كنت أطل منها ـ برميل كبير ظننت أنه يحتوى أى شىء آخر غير الماء ، فقد جاء بعض من كانوا هناك ، وتسلقوا البرميل ، ثم أزاحوا غطاءه ، وأدلى كل منهم دلوه فيه ، ثم شده اليه وقد امتلأ ماء ، وذهب من حيث أتى وجاء الآخر ... وهكذا.....

ولم أبرح الفندق يومها حتى الظهر لاتصالات كانت جارية حول برنامج الرحلة . وذهبنا نتلمس غداءنا بعد الواحدة فى قاعة الطعام ... واضطرنا ازدحامها الى الانتظار فى قاعة أخرى كانت تغص بالناس وبطبقة معينة منهم تلمع عليهم مظاهر الوجاهه والترف ... والجمال .....

وقال محدثنا : إن هؤلاء ومن اليهم يتهربون بأموالهم من الضرائب فلا يجدون ما يبعثرونها فيه الا على نحو ما ترون ....

وتذكرت منْ على الأرصفة والحقارة التى تحت ذلك المشهد الفخم ....

وتذكرت الاشتراكية التى بشر بها هناك زعماء الهند .....

اين هى ؟ ولماذا لم تسحق هذا الفارق الضخم بين أولئك وهؤلاء وهم يعانـون تجربتها من وقت طويل .

وتذكرت الاشتراكية والشيوعية فى كل مكان انخدع أهله بهذه الشعارات ....

ان نظام (الطابور) مازال وسيظل هو النظام السائد فى (الكرملين) و (الصين) ومن سار فى مجراها اللعين ... نظام يحيا ملايين الناس ويموتون عليه فى سبيل القوت والخبز ....

أما رجال الحزب .... ومراكز القوى فانها على المستوى الأعلى دائما ... فى نشوة الانتصار على اؤلئك الملايين باسم المساواة ....

وصحوت من أفكارى على صوت من جاء يدعونا الى قاعة الطعام ....

لحظات في الهند

شىء كالضباب يغشى ذكريات لحظات قليلة عشتها فى الهند بين (بومباى) و(نيودلهى) و (أكرا) التى كانت عاصمة الهند يوم أخذ ملكها يبنى أو يأمر بذلك البناء الشامخ المعروف باسم (تاج محل) ولقد ذهبنا اليه فى نحو خمس ساعات من (نيودلهى) مررنا خلالها بعدد من الأرياف والمدن الصناعية ، وباستراحة قصيرة عند منتصف الطريق كان لابد منها ، للسيارة على الأخص ، فى جو يخالطه سراب القيظ والجفاف .....

وكان اليوم هو الأحد .... والناس على اختلافهم يموجون فى ساحات (تاج محل) ويتأملون هذه الأعجوبة التى تصور عبقرية المهندس وكفاح العامل قبل عصر الآلة والذرة ... ولكن لماذا ؟ وفى سبيل ماذا !

يالها أعجوبة نشأت على أنقاض فكرة أوخرافة حمقاء ، ومضت تطاول الزمن باسم الخلود ، وتستفز دهشة الناس وتأملاتهم باسم الأثر والتاريخ كل يوم !!!

وما أكثر نظائر هذه الأعجوبة .. !!!

وما أعمق التاريخ فى الهند ماضيا وحاضرا ... أما المستقبل فما يدرى الا الله ماذا سيكون من أمره ومن أمر ستمائة مليون هندى ، أو يزيدون ، تدفعهم أو يدفعون عجلة التطور فى سباق مع الزمن الى المستوى اللائق بشعب تضرب جذوره فى القرون الأولى يوم كانت شعوب أخرى ، تطفو على وجه القرن العشرين ، فى عالم الطفيليات !!!

ولقد أفلحوا بعد ليل الاستعمار الطويل فى تخطيط وتطوير الآلة والاختراع ، ومجاراة موكب الحضارة السائد فى هذا الجيل ....

وتبدو (نيودلهى) الجديدة على خير ماتبدو فيه مدن أخرى من نظام ومدنية ، وشوارع فسيحة ، وبنيان ضخم ، يواجه النظر منها كل مايعجب ولا يسوء ... حتى فيما

اتصل منها بدلهى القديمة التى يسودها طابع الماضى كما كان بشوارعه الضيقة ، وطراز البناء ، والعمران ، والأسواق المكتظة بحركة الناس ، والدواب والسيارات .... وبكل ماهب ودب !!!

ولقد أفلحوا فى دنيا الانتاج الزراعى والصناعى ، ولديهم من القوى البشرية ذات المواهب العالية والمتوسطة مايفيض عن حاجتهم ....

أما اليد العاملة فانها تزيد ولاتنقص الى حد التخمة أو الهوان !!!

غير أنهم لم يفلحوا فى جمع الشمل على مايدفع مسيرة الانسان فى خطوطها الصحيحة الى الأحسن والأعلى حقا ، فالناس هناك قد يجمعهم الشكل والطراز ومظاهر الحياة ... أما فيا عدا ذلك فانهم مختلفون دينا ، ولغة ، وأفكارا يعود بعضها الى الاعماق العفنة ، ويقفز بعضها الى ما بعد هذا القرن !!!

والمسلمون فيهم أقلية ملؤها الضعف والصراع بين كل مبدأ وآخر يروّج له المغرضون باسم الدين !

ثم لا أدرى كيف توجد عقلية تهضم عبادة البقر ، أو النار ، فى عصر القدرة ـ كما يزعمونها ـ على اكتشاف القمر وعلى ابادة الحياة بشىء تافه كالذرة ومشتقاتها فى مثل لمح البرق والخيال ؟ !

كيف يمكن أن يسلم نظام الحياة الى الأبد من دواعى الهدم والبناء مع أى انحراف عن المبدإ الحق فى فهم واقع الانسان والحياة ، وعلاقة الكائنات ببعضها ... وبخالقها العظيم ؟ !

ثم لا أجد ما أقوله كما أحب بعد لحظات لا تزيد إن لم تنقص عن ليال خمس قضيتها فى ربوع الهند ..... أمّ التاريخ ؟ !

ليلة في بانكوك

ما كدنا نأخذ مقاعدنا على الطائرة حتى قيل لركابها : انزلوا . .

وعدنا الى قاعة استقبال المطار بعد انصراف من كانوا فيها من الأصدقاء بطبيعة الحال ، وظللنا نحو ساعتين ، فى انتظار اصلاح ما ألم بالطائرة ، بين ما تيسر من الوجبات الخفيفة . . والتأملات . !

ويبدو الانتظار مملا فى مثل هذه الحالة وان كان هو خيرا من الكارثة ، أو من العودة الى المطار بعد اكتشاف الخلل فى الجو !

ثم حلقت بنا الطائرة ، تجتاز مسافة طويلة على البر والبحر ، حتى بدت مشارف « بانكوك » بجداولها وأنهارها ، وبمصانع يرتفع دخانها . . وحقول خضراء وسهول لا يمل النظر عبرها الى صنع الخلاق الذى أتقن كل شىء على الأرض وسواها مما خلق .

ولم يستنفد سفرنا أكثر من ثلاث ساعات ، غير أن الوقت فى « بانكوك » كان يزحف الى المساء فكأنما هى خمس ساعات ، باحتساب فرق الزمن ، بين « نيودلهى » و « بانكوك » وهو فرق يعود مرة أخرى لحساب المسافر اذا قدر له الاياب . .

وصادف يومها أحد أعياد أهل « بانكوك » والناس فى عطلة وزحام شديد يعرقل حركة المرور ، وهى تجرى الى اليسار هناك ، وفى منطقة الشرق الأقصى عموما ، على النظام الانجليزى الذى كان يحكم المنطقة ، ثم نزح وظلت بصماته عليها ، فى الظاهر والباطن ، فى صور شتى !

وفى بانكوك » ألوان من الناس . .-من أهلها ومَن غير أهلها . . من الصين والهند والملايو . . من البلدان المجاورة كلها أو معظمها ، ولكنهم على اختلافهم تتشابه ملامحهم كأهل المناطق الأخرى ، فان النظرة الاولى الى هذا الخليط فى « بانكوك » أو الى أية مجموعة متشابهة كالعرب والافارقة والاوربيين أو غيرهم ـ لا تكاد تدرك الفرق بين بلد وآخر على وجه التحديد الا بعد الكلام والحوار ممن يعرف لغاتهم . .

وليس بغريب أن يختلف أبناء آدم وحواء ، ولكن الغريب أن يتفقوا منذ كانوا ولا يزالون مختلفين الا ما رحم ربك . . ولذلك خلقهم . .

ولقد تطورت (تايلاند) و « بانكوك » عاصمتها عما كانت عليه من قبل بما يبدو أكبر من حجم الزمن الذى تطورت فيه . .

ولكن أى تطور أو حضارة لا تستقيم على المبادىء الفاضلة ستذهب والناس معها الى الهاوية بعد حين يطول أو يقصر ، ولكنه آت على كل حال . .

وهناك بعد الحضارة أو قبلها فى بلاد من طراز « تايلاند » عامل القلق وانتظار المفاجآت خاصة فى الأيام الأخيرة بعد تطور الزحف الشيوعى حواليها ، والتهام أجزاء المنطقة من عصابات هذا الزحف التى تتزايد وتطغى دائما . . وأهل اليمين الذين أصبح شعار اليسار فى مواجهتهم كالنار الحمراء ـ لا تدل تصرفاتهم الا على أنهم حمقى ، يلعبون بالنار وبالشعوب المغلوبة على أمرها فى انتظار قدرها المحتوم !

واللعنة لأهل الينسار مع براعة واضحة فى التخطيط لأغراضهم . . فى « تلايلاند » وسواها ، فما يتطلبه المد الشيوعى ليس هو أن يصل . . بل أن يحكم ويستقر ، سواء ذهبت القوة الأمريكية التى يطالب « التايلانديون » بذهابها أو استمرت حتى يجتاحها ومن معها زحف أهل اليسار ، وانهاء حالة القلق السائدة مع أن كل شىء يسير فى مجراه الطبيعى . . فى المنطقة ! !

ثم شددنا الرحال بعد ليلة واحدة فى « بانكوك » ومن مطارها الذى يتأهب لطوارىء السلم والحرب معا ـ الى الجومرة أخرى . . وأخذت أنظر من نافذة الطائرة الى المراتع الخصبة التى سيبتلعها المد الشيوعى . . والفضل لسياسة العالم الحر !

الثُّعبان الضَخْم

ذهبت الى أقصى الشرق . . ورجعت بعد بضعة وعشريـن يومـا قضيتهـا بـين الطّائرات والمطارات ومسافات بعيدة أو قريبة . . من كل بلد لآخر . . وأصناف كثيرة من الناس والنمو والعمران ، والعادات والتقاليد ، والجد والهزل . . ومن الأديان التى تؤلّه « البقرة » و بوذا » و« النار » و« الماء » الى آخرها . . ولقد رأيت كيف يجتمع بعضهم على بقرة تدور فى حلقة من النـاس وعلى ظهرهـا كسـاء من القطيفـة أو الحرير ! ! . .

كما يجتمع بعضهم على « بِرْكة » ماء مقدس ـ فى نظرهم ـ خاشعين باسم العبادة والتطهر من الرجز ! . .

ورأيت كيف يحرقون الموتى وتتصاعد روائح لحومهم ، ومن حواليهم الأهـل وذوو القربى أو العلاقة . . ثم ينثر الرماد فى نهر « المحرقة » وتؤخذ بقية العظم للاحتفاظ بها فى بيت الفقيد ـ للعزاء والذكرى ! .

وهناك آخرون ـ يقذفون بموتاهم فى بئر كبيرة واسعة أعدت فيها شبكة لتتلقاهم ، فتأكلهم الطيور ، ثم تتسرب من خلالها فضلاتهم التى لا تأكلها الطيور الى أعماق البئر ! .

وهناك آخرون يؤمنون بالخالق . . كايمان أهل الجاهلية الذين كانوا ان سئلوا عمن خلق السموات والارض قالوا الله .

ايمان لا يقدم ولا يؤخر ولا يزيد بل ينقص بمعايشة الكفر فيما عداه ! .

وهناك من لا دين لهم اطلاقا ، فلا يعرفون الا واقع الحيـاة . . ويعيشونـه كيفما اتفق . .

وهناك أقلية ساحية هم المسلمون الذين يعيشـون مغلوبـين على أمرهـم . . وفى ظاهرهم الاسلام أو شكليات منه هى على كل حال خير من لاشىء . . الا أنها ، وهم بينها ، كالشعرات البيضاء فى ثور أسود !

وبين كل أولئك وهؤلاء يجد التبشير بديانات أخرى مرتعا خصبا يلعب فيه كما يشاء وكيفما يشاء . .

وشىء أدهى وأخطر من التبشير هو الثعبان الضخم الذى ابتلع القسم الاكبر من منطقة الشرق الأقصى ، ويوشك أن يبتلع الباقى بفضل سياسة العالم الحر ، وغرور هذه السياسة أو طفولتها على الأصح !

هناك خطر الشيوعية الذى حوَّل مئات الملايين من الناس الى حيوانات مفترسة تأكل كل شىء ، وتقتل كل شىء ، وتعيش على الفضلات مسخرة كالعضل البليد فى ابادة الآخرين وابتلاعهم كل يوم . . ثم تموت الحيوانات أيضا بحكم أن عامل البقاء للحيوان الأكبر !

ويذهب مئات الالـوف والملايـين بددا على وجوههـم الى الجـزُر ، والى المناطـق المجاورة . . حفاة ، عراة ، مرضى . . لا دين ولا مأوى لهم . . يعيشون فى القوارب ، وعلى الأرصفة عيشا آمنا ولكنه مؤقت بما تبقى من الزمن لا متداد رأس الثعبان الى ما تبقى من أشلاء المنطقة !

هناك ألوان من العجائب ومن غرائب الناس وأحوالهم بين مستويـات فى القمـة ومستويات فى الحضيض . وَتُشَكِّلُ هذه عالم النمل المنتشر بمئات الملايين أو بالآفها فى تلك المنطقة .

ويشق الثعبان اللعين طريقه عادة فى مثل هذا العالم النملى بسهولة لا تكلفه أكثر من السياط . . وخرقة حمراء فى يده الاخرى اسمها العدل والمساواة !

ويتأمل العالم الحر ما يجرى هناك ليقول ببراعة الأطفال الممثلين : ويحكم يا أهل المنطقة . . دافعوا عن أنفسكم !

الشمس بعد منتصف الليل

انه لشيء ممتع ، فى نظرى على الأقل ، أن يطير الانسان كل أسبوع أو نحوه من بلد لآخر ، ليرى صورا جديدة أو شبه جديدة من الناس ، وأصنافا شتى من معالم الحياة ومظاهرها ، ويعيش من ذلك فى دم متحرك لا تركد دواعى الحياة فيه الا بعامل التعب من ممارسة الطيران . . خاصة اذا طالت المسافات ، ثم يتجدد النشاط بعد ممارسة الحياة على الأرض فى البلد الذى طار نحو سبع ساعات اليه رغم كل خبر يسمعه عن الطيران وحوادثه التى لا تزيد بل تنقص عما يحدث على غرارها كل يوم على الأرض . . وفى أطيب الأحضان !

ان أية حالة نعيشها عرضة لأية حادثة وللسلامة منها أو لعدم السلامة ، فما ينجى الانسان أن يطير أولا يطير من وقت لآخر . . وما حياتنا على الأرض الا قصة طويلة

ثم ما أروع المفارقات التى يحسها المسافريين ما يطير منه واليه . . فى الزمن . . قبل أصناف الناس والحياة .

فى خطوط الشمال ـ مثلا ـ وعلى مشارف القطب . . وعلى خط الاستواء . . وعلى خطوط الأرض كلها طولا وعرضا . . وفى المناطق التى بينها ـ يتقلّب الليل والنهار ، ويطول أحدهما أو يقصر بنفس الثوانى والدقائق والساعات كل يوم فى كل أسبوع فى الشهر نفسه من كل عام .

فى غضون الصيف فى شمال أوروبا ـ مثلا ـ كمدينة « استوكهولم » عاصمة السويد تغيب الشمس فى التاسعة ليلا ، ثم لايغيب الضوء ، وانما يظل يلمع على الأفق وينعكس على المدينة كلها ، حتى تشرق الشمس بعد الواحدة والنصف ، وقد كنت أضبط ما استطعت اغلاق الستائر على النافذة لئلا أتبين وراءها فى منتصف الليل ذلك

الضوء الممتد الذى لم أكن أحس أى فرق فيه بين شفق الغروب والاسفار الذى يسبق مشرق الشمس .

ثم من العشرين فى شهر يونيو حتى العاشر من أغسطس لا تغرب الشمس أبدا عن المناطق التى هى على أقصى خطوط العرض فى الشمال .

ولقد شهدتها فى « كيرونا » التى تبعد الى شمال « السويد » فأخذتنا اليها الطائرة من مطار « استوكهولم » فى العاشرة والنصف قبل منتصف ليلة ٢٣ يونيو ، وكنا خليطا من المسافرين فى رحلة موحدة تنظمها شركات السياحة هناك ، وما كادت الطائرة ترتفع الى مستوى طيرانها المعتاد حتى كانت الشمس فى مواجهتنا بعد أن غربت فى « استوكهولم » قبل ساعتين . . بأسلوب غروبها هناك . . !

أترى الشمس كانت شارقة أو غاربة ؟

لقد كانت تبدو على أى حال كأنما هى تلامس الأفق أو يلامسها حينذاك ؟

وعندما هبطت بنا الطائرة فى « كيرونا » كانت الشمس فى مواجهتنا يمينا والقمر شمالا ، فقد كان ليلتها بدرا ، وكان النهار فى مواجهتنا من جميع الأطراف والوقت هو الساعة الواحدة بعد منتصف الليل .

وفيما عدا « الأتوبيسات » التى كانت تقلنا فى جولة داخل القرية والى جبل عال فيها ، وفيما عدا تحركات لا تكاد تذكر فى بعض الشوارع والطرقات ، كانت القرية تبدو نائمة بعد منتصف الليل فى ضوء كضوء الضحى المعتاد .

وهكذا تعيش المنطقة كلها هناك فى مواجهة الشمس أكثر من ألف ساعة كل عام .

كما تعيش فى فترة مماثلة من فصول الشتاء ليلا دائما لانهار فيه كل عام .

وكما يختلف الليل والنهار على هذا النحو يختلف واقع الطبيعة هناك .

لقد تناولنا فى بهو فندق مرتفع على احدى روابى « كيرونا » مالا أدرى ان كان افطارا هو أو عشاء ، فقد كان الوقت حوالى الثالثة بعد منتصف الليل ، ثم ذهبنا فى جولة سريعة الى البحر ، ومساكن أثرية تطل على البحر ، ورأيت مصداق ما سمعت من قبل عن حركة البعوض أو الناموس وانتشاره فى أحجام مخيفة هناك .

لقد كانت مياه البحر وما حواليه مما يبدو فى الصيف كالمستنقعات ، وهى بيئة البعوض ، كانت تتجمد ويتحرك الناس عليها كالأرض فى الشتاء .

والأشجار التى تبدو خضراء فى الصيف على امتداد الشوارع والطرقات تلوح فى بياض الثلج كمظاهر العمران كله فى الشتاء .

ويخطر على الذهن فى جو اختلاف كهذا بين الليل والنهار ، وفى واقع الطبيعة ، أن من يعيشون هناك أجدر الناس أو من أجدرهم بأن يكونوا مؤمنين وفى مواجهتهم ظواهر كونية كهذه المدهشة التى تتراوح عليهم ، بتوقيت دقيق لا يتغير كل عام ، فمن ذا عسى أن يكون من وراء هذه الدقة وهذا النظام الا قدرة إله جبار يحكم الكون كله اجمالا وتفصيلا بنفس الدقة ونفس النظام ؟

غير أن نسبة حوادث الانتحار فى تلك المنطقة هى أعلى النسب أو من أعلاها فى العالم ، لما يحدثه اختلاف الليل والنهار بظلام لاضوء فيه ، أو بضوء لا ظلام فيه ، من أزمات نفسية تشد بعضهم الى الانتحار ، وهو من عواقب الكفر ، لا الى الايمان كما ينبغى أن يكون .

وفى أعمق مظاهر الحضارة التى تبدو كالترف بين عمران « استوكهولم » ومرافقها المصقولة ، وفيما يبدو هناك من سلوك يضرب به المثل فى صدق التعامل ، والخلق . . والوعى اجمالا ، ثم فى اعطاء الناس كلهم حق الوجود على مستوى لا ينحط عن الوسط بضمانات العلاج ، والشيخوخة والعطلة والحياة الى الموت باختصار ، وهى ضمانات تلتزم بها الدولة ، وتحققها من الضرائب العالية التى تتقاضاها على الدخل أو على معظم الدخول ، ثم لا تنفقها الا بحساب وعلى كل ما يقتضى الانفاق ، وفى المقدمة ضمان حق الوجود المتوسط للناس ـ فى كل ذلك وما اليه من مظاهر الوعى والحضارة تعيش حفنات من الشباب على الأرصفة ، ومهابط الشوارع الكبرى ، وزواياها ، أحط أنواع المعيشة . . أو كما يعيش بعض الحيوان على القذارة والفضلات ، وكل ما يذهب به العقل أو تذهب به حياة بعضهم أحيانا فى الممرات أو الحمامات مقتولين أو منتحرين من فتيان وفتيات لعلهم أو لعلهن من أرقى المستويات الاجتماعية ، ولكنهم فى أحط المصائر هناك .

انها أزمة النفس التى لم تعد تؤمن بشىء الا الواقع ، وهو لا يكفى لملء الفراغ الذى يشعر به جيل حائر يمزق حياته بأظافره بين الضوء والظلام .

كيف يوجد فراغ كهذا وكل ما هنالك ينطق بوجود الله ؟!

انها عوامل كثيرة أو قليلة فى مقدمتها الجهل ، والعناد ، ومُتَع الحضارة واغراءاتها . . وضلال الرواد أو تلاشيهم ، وطغيان المادة . . الى غير ذلك من كل ما تطفح به حياة جيل حائر ليس فى شمال أوروبا فحسب . . بل على الأرض كلها الا مارحم ربُّك . . كأنما الناس فى جاهلية أخرى ، أو كَأَنَّ صوت الحق لم يرتفع بينهم ، فما يعرف بعضهم عنه شيئا صحيحا يملؤ فراغ العقيدة التى لابد منها لتستقيم الحياة !

ثم ان القدرة التى يحكم بها الله مشرق الشمس ومغربها ونواميس الكون بأسره هى التى تحكم الناس وضوابط الهدى والضلال فيهم ، فكل مايبدو من شذوذ بعضهم عن الحق انما هو مظهر آخر لتلك القدرة التى لا يمكن أن يقع فى ملكها الا ما تريد هى لا ما يريد منطقنا .

ولو شاء رب هذه القدرة لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين . .

من لندن إلى واشنطون

« ان فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب » ..

ولقد أشار القرآن الكريم فى آيات كثيرة الى « اختلاف الليل والنهار » كظاهرة تدعو الى التأمل والاعتبار.. ولعل براعة الاحتواء فى قوله تعالى (قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمدا الى يوم القيامة . .) لعلها ترمز الى انقطاع الليل أو النهار عن جهات مختلفة من شمال الارض أو جنوبها فترات طويلة فى الصيف أو فى الشتاء، يبدو الليل أو النهار أثناءها سرمدا . . ولكن ليس الى يوم القيامة . .

وهكذا يلوح اختلاف الليل والنهار وتفاوت أحجامهما بين كل جهة وأخرى آية رائعة من آيات الخلق .

ولقد ارتفعت الطائرة بنا من لندن قبيل الثانية عشر ظهرا ، ثم حطت فى مطار واشنطن بعد الواحدة من ظهر نفس اليوم كما لو قضينا نحو ساعتين بين البلدين ، مع أننا أمضينا نحو سبع ساعات فى دنيا الطائرة بين عدد ضخم من الناس سبحان من يعلم خلجات نفوسهم ومحتوياتهم الطيبة والخبيثة ، وما يقصد كل اليه فى سفره من الخير والشر ، والجد واللهو وعشرات المفارقات !

وكان بعض المضيفين والمضيفات ـ فى « الخطوط البريطانية » التى ارتفقناها ـ يؤدون واجبهم على نحو من الملل يتصنعون الرقة ستارا عليه . . ويتفلت فى سلوك بعضهم اذا ضاق صدره بتصرفات راكب أو أكثر . . وهذه مسألة يتفاوت موظفو الطائرات فيها على اختلاف الشركات . . ان فيهم ـ والحق يقال ـ من يخفف عناء الشعور بالسفر ، ليس الى درجة الصفر ، بل الى درجة الشعور السعيد بالحياة فى جوف الطائرة . . وفيهم من يغرى بمتابعة سلوكه الجافى أحيانا كما كان من أمرى بين لندن

وواشنطن ، ثم لم أستقر بعد المتابعة على رأى فيما اذا كانت جفوة المضيف البريطانى لأنه كان مرهقا بالتعب ؟ أو لظرف نفسى يعانيه ؟ أو لأن عربيا كان فى مواجهة سلوكه الجاف ؟

والبريطانى يكره العربى ـ فى هذه الأيام على الأخص ـ منذ كثرت هجرة العرب الى بلاده ، وساء سلوك بعضهم فيها . . بالاضافة الى عوامل الكراهية الأخرى وفى مقدمتها تراث الدين والتاريخ وماضى الاستعمار الذى انحط الى حاضر يمد فيه المستعمرون أيديهم بالطلب أو بالاستجداء ، ويتفاقم الحقد فى نفوسهم ضد من أنعشوا وينعشون اقتصادهم من العرب .

ومما لاشك فيه أن بعض هؤلاء ينفقون بسخاء المغفلين . . تصوروا أن عربيا دفع فى أعقاب سهرة حمراء ألف جنيه استرلينى ـ كما حدثت الرواية ـ باسم « بخشيش » لخدم السهرة الذين يتناولون هم وأمثالهم من سفيه كهذا بمنتهى الأدب والانحناء ، ثم يمدون ألسنتهم فى قفاه !

وهناك سفهاء آخرون فى تعاملهم ـ اجمالا ـ كالغارقين فى أندية الليل والقمار ، ومن لا يحسنون التصرف مقالا أو فعلا وعلى أى حال من الحركة أو السكون ، ومن يتهافتون على تقليد أمساخ الحضارة من أشباه الرجال والنساء !!

ولكن هؤلاء ومن اليهم قد أحسنوا الى الاقتصاد البريطانى وان أساءوا الى أنفسهم ، فما يكون الحقد عليهم الا من باب اللؤم فى طوايا المستعمرين .

هناك مسرحية أخرجها « التلفزيون » الانجليزى بعنوان « عربى يتعلم الانجليزية . . وأشياء أخرى » ، ومن العنوان يتضح هدف المسرحية وتركيز الضوء فيها على سلوك العربى وهو ـ كما أسلفت ـ أهل ومحل لاستهداف كهذا ، ولكن البريطانى لا يرتفع بل ينحط عنه وهو على مستوى اليد السفلى منذ حين !

وعندما عاقبت السلطات السعودية من صنعوا الخمر فى بلادها من الانجليز قامت قيامة هؤلاء فى بلادهم ضد العرب اجمالا والسعوديين على وجه الخصوص . . ولكن هذا لم يمنع بعض المنصفين منهم أن يقولوا كلمة الحق فى ضرورة تطبيق العقوبة على المستهترين بالنظام المحلى فى السعودية ، وفى كل مكان .

وانتبهت من خواطرى ، ومن قصة العرب مع الانجليز أو العكس ، فى مطار « واشنطن » وكان الجو فيها حارا بينما تركناه فى « لندن » باردا بين المطر والضباب .

وكان العربى يومها يفاوض الاسرائيلى فى « كامب ديفيد » الى درجة العناق الذى شهدناه حارا كالجو على « التلفزيون » ولم يطل تساؤلى عما اذا كان عناقا من القلب ؟ فقد يتم العناق بسذاجة تنبع من الغفلة أو التغفيل . . وقد يكون ملؤها اللؤم والغدر كما أتصوره فى كل يهودى يعانق عربيا مسلما على الأخص !

واجمالا . . ما أكثر الكذب فى العناق والقبلات بين الناس !

الوَعي هُناك .. وهُنا !

لا أكاد أذكر ملامح بعينها لأية مدينـة مررت بهـا بعـد « واشنطـن » الى جزر « هاواى » ومما لاشك فيه أن المناخ والجو والطبيعة على تفاوت كثير أو قليل بين كل ولاية وأخرى من الولايات المتحدة ، كأى تفاوت مماثل بين الشرق والغرب والشمال والجنوب فى مناكب الأرض ... بعضها صيف ، وبعضها شتاء وبعضها بين بين فى وقت واحد كما هو معلوم بالبداهة ولكل من قرأ أو سمع أو شاهد ما هناك .

الجبل والسهل والبحر والنهر والصحـراء والشواطـىء والمظاهـر الجافـة والرقيقـة وما اليها من واقع الطبيعة ـ تعيش فيه الولايات المتحدة كغيرها لولا أن مزية الصقل قد برع الأمريكيون فيها الى حد بعيد !

ثم لاشك فى أن الحضارة التى صنعوها على المستوى الأعلى فى هذا العصر تبدو لامعة مصقولة كالطبيعة ، فما يصادف مشاعر الانسان هناك الا ما ترتاح اليه ، وتطيب الحياة فيه .... خاصـة فى المدن الصغيـرة من طراز « أوكالاهوماستـى » فى ولايـة « أوكلاهوما » و« توسان » فى ولاية (أريزونا) و« يوجين » فى ولاية (أوريقن) وقد مررنا بها فى طريقنا الى « لوس أنجلوس » عاصمة « كاليفورنيا » .

ان طراز العمران فيها بسيط موحد فى الشكل والارتفاع المحدود ، باستثناء عمارات قليلة تعد على الأصابع فى المدينة ، وليست على أى حال من ناطحات السحاب كالتى تغص بها المدن الكبرى ، كما تغص بزحام شديد يجرى فيه الناس لأغراضهم كخلايا النمل ، على أن التنظيم الدقيق الشامل لكل مرافق الحيـاة ، وفى مقدمتهـا حركة السير ، ومتطلباتها لم يترك الناس هملا ، بل أتاح لهم كل مايمكن من وسائل العيش المريح رغم مشقة الزحام ، بالاضافة الى الوعى الشامل فى كبارهم وصغارهم .... وفى حيواناتهم أيضا ، ولولاه لما كان للنظام والتنظيم شأن يذكر فى تهوين متاعب الحياة !!

انهم لم يبنوا مدنهم وعمرانهم كيفما اتفق ... ولكنهم أخذوا فى حسابهم كلما ينبغى أن يأخذوه لاسعاد الناس ، ولتحقيق متطلباتهم حتى التى هى للرفاهة ولاستكمال متع الحياة !

فكل ما يبتغيه الانسان ميسور وفى متناوله من أقرب سبيل ، وبدون أية معاناة تذكر كالتى يعانيها طالب الضرورة فى جهات أخرى تعيش فى المؤخرة أو على هامشها فى القرن العشرين !

انهم يبنون - على سبيل المثال - فى مقدمة عمرانهم مواقف للسيارات على الأرض وفى شكل عمارات كبيرة ذات أدوار وطوابق ، فما يشعر صاحب السيارة أو راكبها بمعنى الكرب حيثما ذهب أو توقف لأى غرض من أغراضه فى المدينة الصغيرة أو الكبيرة . فلكل محل تجارى كبير ، ولكل مصنع ، ولكل عمارة ، وبين كل مسافة وأخرى - مواقف تستوعب ذلك السيل الجارف من السيارات ، فما يفيض منها شىء يعرقل حركة السير ، أو يسبب أية مضايقة للأحياء ... ثم لاتخلو مدينة كبيرة أو صغيرة من الملاعب والمنتزهات ليرتادها الناس ، ويتناولوا فيها مايأكلون أو يشربون ، وقد أعدت لهم وسائل الطهى ان أرادوه ، وموائد مبسطة ، وأوعية كافية لحجم الفضلات التى يتحتم عليهم أن يدسوها فيها قبل انصرافهم ، وليست هناك رقابة الا رقابة الوعى الحى فى تصرفات الناس .....

وأقف هنا مضطرا لأقابل وعيا كهذا بوعى من يعيشون هنا حول أكرم البقاع على الله ... وما أكرمها الا المسجد الحرام والمسجد النبوى والمسجد الاقصى الذى فقدناه الى أن يأذن الله !

ان فى رواد المسجدين ، لاسيما فى أيام الحج ، من لا يتورع عن القاء الفضلات والقذارات داخل المسجدين !

وفيهم من لا يتورع عن الطهى ووسائله ، وعن تناول الطعام والشراب ، وعن السكن عائليا حول المسجدين !

وعندما يقل الزحام وتنقطع الاقامة لا يتورع القادمون للصلاة فى المسجدين عن طبع آثار أحذيتهم القذرة على المنطقة التى غسلت لتوها وبدت نظيفة لامعة ، ليصلى عليها الناس ان فاض بهم المسجد الكريم ...

وفى داخل المسجدين ماهى حصيلة الوعى ؟ وما مستواه ؟

مالذى يجرى حول (الحجر الأسود) وحول أية مقدسات يتزاحم الناس عليها الى حد الصراع ؟

انهم حول محراب الروضة الشريفة فى المسجد النبوى يقفون متكتلين ، ليتقدم من كل كتلة من يصلى فى المحراب بعد أن ينصرف من كان يصلى فيه بين مثل هذه التكتلات حتى فى الأوقات التى لا صلاة فيها ، الا المنصوص عليها ، كما بين العصر والمغرب ، وما بين صلاة الفجر ومشرق الشمس ....

ولا شك فى أن معظم هؤلاء بل أن معظم رواد المسجدين من الجاليات التى تعيش فى بلادنا عمالا فى الاغلب ... وقصة هؤلاء فى ضوء الحاجة الفعلية اليهم قصة طويلة ما أود الاستطراد لها فى مثل هذه الذكريات !

واجمالا لقد غدا المواطنون أصحاب الحق الأصليين قلة فى تضاعيف هذه القصة !!

ولكنهم جميعا من المسلمين ..

أترى الوعى قد انتهى الى مصير كالذى ألقيت ضوء تافها عليه ـ فى عموم أوساط المسلمين ؟

ابراهام لنكولن !

لا تعانى الولايات المتحدة ما تعانيه جهات أخرى من الغلاء فى مستويات مختلفة يشير بعضها الى التضخم السريع فى بلاد كاليابان ، أو سويسرا ، أو وسط وشمال أوروبا اجمالا .....

ان كل شيء فى الولايات المتحدة رخيص بالقياس الى مستوى الرخاء فى بلاد الانجليز أو بعض مناطق جنوب أوروبا . وغيرها فى الشرق والغرب .

الضروريات والكماليات وأجور السكن لم تتأثر قيمتها بسعر الدولار كلما ارتفع أو انخفض خارج الولايات المتحدة ... انه يحتفظ فيها بقيمته فى التعامل كما كان ، وهذا كما أظن رمز للوعى فى أطراف التعامل ، ولأهمية دوره فى بناء الاقتصاد واستقراره على أسس لا تتأثر بذبذبة الدولار فى الأسواق ، أو بما يقال من حين لآخر عن تقديرات الميزانية وعجز المدفوعات .

ولقد أمضينا أياما قلائل ، كأحلام السعادة ، فى مدينة (ديزنى لاند) وهى ضاحية من ضواحى (لوس انجلوس) فى ولاية (كاليفورنيا) وقد سميت باسم صاحبها المهندس (ديزنى) الذى أنشأ الضاحية كيانا متكاملا للترويح عن النفس وامتاعها بكل مالذ وطاب ، كالرياضة بأنواعها ، وألعاب للصغار والكبار ، فى بعضها معنى المخاطرة ، والمغامرة ، وشد الأعصاب ... الى درجة الاختناق بالمخافة من التهلكة .

وفيها أفلام صامتة وناطقة ... وفيها مايجلو قدرة العلم وتطوره فى عقل المهندس (ديزنى) والذين شاركوه فى بناء ذلك الكيان ... وفى (العقل) اجمالا هناك .

لقد رأينا عرضا صامتا ينقل المشاهدين الى بعض مدن أمريكا كما لو كانوا فى طائرة أو سيارة تطوف بهم ... لا على مقاعدهم أمام شاشة تعرض لمحات من تلك المدن بأسلوب طريف .

وهناك عرض آخر يشهده من يريد فى رحلة على قضبان قطار يسير فيا يشبه جو الغابة على أطراف متعرجة على البحر ، ومعارك تدور بين القراصنة ... يتخللها دوى الطلقات ، وصراخ الفزع ... كأنما هى قد نشبت لتوها ، وكأن الذين يتحركون فيها أحياء .

وشيء خامرنى كالذهول والاستغراق فى خواطر كثيرة ، ونحن مع الآخرين فى قاعة ضخمة فخمة ، وقد امتلأت بنا المقاعد فى مواجهة (ابراهام لنكولن) على مقعد وثير مرتفع كمن ينتظر تكامل الناس ... حتى قام فينا خطيبا يتحرك ، ويحرك يديـه مع مقاطع الكلام وانفعالاته فيه .. وانتهى الخطاب ... وعاد الى مجلسه أمامنا كما لو لم يكن مجرد تمثال قد لبس (بدلة) تليق بالمناسبة إلتى هو فيها بين أيدى المستمعين .

ماذا هو ؟ وهل استطاع العلم أن يصنع (انسانا) على هذا النحو ..؟ أو على نحو أولئك القراصنة ؟ أو على نحو أي انسان آلى عجيب ؟

انها صناعة تبدو متقنة ، وقد تخدع غرور العقل فى جاهلية القـرن العشريـن ، فيحسب أن الانسان قد صنع الانسان ، وهو لم يصنع فى الواقع أكثر من جهاز كسائر الأجهزة المسخرة لخدمات معينة بتدبير مايسمى العقل الالكترونى وتحكمه فى حركتها .

وليكن شكل الجهاز انسانا ، ولتكن الصناعة بارعة فيه ، فانها لن تبلغ مقام الصانع الأول ، ولن تبث روحا فيا تصنعه ، وانما هو تيار تُطبع عليه الحركة ومظاهرها ، حتى اذا توقف التيار جمد الانسان المصنوع وَتَحَوَّل الى جهاز عاطل كأى جهاز يسكن ويتحرك ويتصرف طبق النظام المودع فيه ، وأين هو من جهاز (ابراهام لنكولن) يوم ولد ، ونما وتفوق مفكرا وخطيبا ، ورئيسا ومحررا للعبيد . ؟ لقد كان جهازا من صنع الله الذى أتقن كل شىء ....

ولكن لماذا يتطاول العلم والعلماء الماديون الى محاولة صنع آلة أو جهاز باسم الانسان الآلى ، بينما الانسان الحقيقى يملؤ الدنيا ويزداد بالملايين كل يوم ؟ وتقف فى سبيل هذا التزايد جهود مكثفة لضبط النسل وتحديده والقضاء عليه فى بعض الجهات .

واذا كان الهدف هو ايجاد انسان آلى للخدمة وللعمل كما قد تتظرف بذلك دعاية مروجيه ، فان الانسان الحقيقى عاطل بالملايين فى مناطق كثيرة لايكاد يجد فيها القوت ، من تباريح العطلة .

وفى البلاد التى انخدع حكامها بأوهام الشيوعية وما اليها من الضلال يعد العاطلون بالملايين ، فلماذا لاتتجه عبقرية العلم ومحاولات (التكنولوجيا) الى ايجاد حلول لمشاكل الفقر والبطالة فى العالم ... حتى اذا قَضَتْ عليها وعلى مشاكل أخرى يعيش العالم منها على الهاوية كل يوم ، ولم تجد ماتصنعه وما تفكر فى صناعته الا (الانسان الآلى) باسم الحاجة الى خدماته ، كان من حقها أن تمضى فى مثل هذا الاتجاه ... !

ولقد اتجهت عبقرية العلم من قبل الى الانطلاق حول الارض ، واكتشاف القمر ، وغير القمر ، وبددت من أجل ذلك شيئا كثيرا من الوقت ، والجهد والثروة ... بينما مئات الملايين من الناس فقراء بائسون فى مناطق مختلفة ... وفى بعض ولايات أمريكا نفسها ... ثم ان الارض مازال القسم الاكبر منها فارغا من الحياة والأحياء ، وبعضها لم يكتشف كأعماق المحيطات ، ومجاهل شتى على وجه الارض ، فأية جدوى تحققت للعالم المتقدم أو المتأخر من اكتشاف القمر .... ؟

انه مجرد غرور العلم بوهم قدرته على ما توصل أو سيتوصل اليه ... ومجرد محاولة السبق على مالا يستفيد منه الا دعاة ذلك الغرور ... ولتكن مشاكل الانسانية الضعيفة بفقرها ، ومرضها ، وجهلها ماتكون ...

بل ان الانسانية القوية فى بيئات هؤلاء المغرورين بحضارتهم ، وبكل مستوى عال من العمران بلغ قمته فى الشوارع وفى المساكن وفى الطرقات والحدائق ، وفى كل شىء - ماتزال انسانية ضعيفة تخور قواها أمام طغيان الجريمة وانتشارها ، فما أكثر مايقال عن حوادث السطو والاغتصاب والقتل لأتفه الأسباب ، حتى لتنقطع حركة الناس فى الشوارع اذا جن الليل ، كما رأيت فى مدينة (كليف لاند) وهى مدينة صناعية ضخمة تموج بالحركة نهارا .... ثم كنت أنظر الى الشارع من نافذة الفندق ، فاذا هو

مقفر من المشاة بعد غروب الشمس ... ويقال مثل هذا عن شيكاغو ونيويورك والمدن الكبيرة التى تطفح عمرانا وتتفجر حضارة ، ويعيش أهلها فى جلودهم خوفا من الجريمة وسطوة المجرمين ، ذلك لأن مايعمر به ضمير الانسان ووجوده مفقود فى معظم نواحى العالم ، والولايات المتحدة فى مقدمتها لسوء الحظ ، وما يجدى عمران المظاهر وحضارتها شيئا اذا انهار ضمير الانسان .

وماذا عسى أن يتماسك ويعمر به ضميره حقا الا أن يؤمن بمهمته الحقيقيه وبدوره الصحيح على الأرض تحت هيمنة خالق السموات والأرض والا أن يحسب فى كل تصرفاته حساب هذا الخالق الذى يمهل ولا يهمل ((وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها الا هو ... ويعلم مافى البر والبحر ، وما تسقط من ورقة الا يعلمها ، ولاحبة فى ظلمات الارض ، ولا رطب ولا يابس ـ الا فى كتاب مبين)) ..!

هونولولو .. على كَفّ عِفريت[٧]

جزر (هونولولو) أو جزر (هاواى) ولاية من الولايات المتحدة الامريكية كما هو معلوم ، وان كانت فى قلب المحيط ... ولقد التحقت الجزر بالولايات فى نهاية قصة طويلة مع الانجليز وسواهم من مستعمريها وأهلها القدماء ... ومع أن المسافة التى بينها وبين أقرب الولايات اليها كغيرها من المسافات الطويلة على تفاوتها بين شرق أمريكا وغربها وشمالها وجنوبها ، ومابين بين ـ ولقد استغرقت الرحلة اليها ، جوا بالطبع ، نحو سبع ساعات من مدينة (بورتلاند) فى ولاية (أوريقن) ـ مع كل هذا تبدو الجزر وكأنها أحلام على البحر والشواطىء يفصلها عن العالم بما فيه أمريكا شىء كالبرزخ .. شىء معناه : عِشْ هنا فى هذه الجزر ... وَانْسَ كل شىء عن العالم ، وعن قضية الشرق الأوسط على الأخص . !

انس الظلم والباطل .. وأية تعاسة تحيا وتنام عليها بعض الشعوب المغلوبة على أمرها بسطوة المبادىء الجائرة والمذاهب الملحدة وانهيار اليقين فى نفوس الناس !!

انس الفقر والغنى وما يتصل بهما من قصص يعيشها الناس على درجات كثيرة فى سلم الحياة الطويل ، وهم يتساقطون من بينها كالنمل ، ثم لايمنع تساقطهم أن يكدح الآخرون فى الصعود ... ولعل الأدنى هو الأعلى والعكس بطبيعة الحال !

انس أية مشاكل وأية حكايات تتصل بالاسرة ، أو العشيرة ، أو المجتمع ، بما فيها من محتويات بائسة أو مفترسة ، مضحكة أو مبكية ـ انس كل شىء باختصار فى (جزر هاواى) .

لقد نسيت على نحوٍ مما أسلفت نسيانا عفويا لم أحاوله كما قد يفعل من يريد النسيان أو يتصنعه ، فلا يكاد يحصل له أحيانا بين زحمة الفكر .. والحياة .

واستغرقنى ماحولى وأنا أطل من بلكونة الفندق على البحر ، وكان الناس متناثرين فيه .. وعلى الشاطىء فى حركة دائبة كالخلايا ... وقد هبط المساء بفتور لايكاد يقاوم بقية النهار وكأنها تسبح فى آفاق البحر قبـل أن تذهـب الى الشرق على الطـرف الآخر ... من المحيط .

والحركة أو الخلايا نفسها تموج فى غرف الفنادق المجاورة وبلكوناتها ... والجو رطب لذيذ وان كان دافئا ، وتستقر فى أذنى أصوات مختلفة من الطبل والرقص .. والموسيقى تنبعث حوالى .. من الادوار العليا والسفلى والوسطى فى الفنادق والعمارات المطلة على بعضها وعلى البحر فيما يشبه تلاحم العشاق .

ومن حوالىَّ أضواء توصوص فى البحر وفى الفنادق وعلى الشاطىء وفى الشوارع ... واجمالا يصور الجو شيئا كالقصيدة الرائعة من الشعر المنثور حقا ... لا ما قد يحرك دواعى القرف والرثاء فى شعر بعضهم أو بعضهن ... المنثور ، أو المنظوم المنثور ...!

ولم أجد أى حرج فى أن ألبس الثوب وأمشى سبهللا فى الشوارع بحذاء عادى لم يكن يلفت النظر الا نادرا لطرافته هناك ، فقد كان الناس على اختلاف ألسنتهم وألوانهم يمشون فى الشوارع كما لو كانوا فى البحر أو على الشاطىء ... عراة الا من بعض مايجب !!!

وما أكثر المطاعم والمقاهى .. على اختلاف ماتقدم من الوجبات الثقيلة أو الخفيفة ، ليأكل من يريد كيفما يريد وعلى مزاجه ويمشى على مزاجه .

وأقف فى هذه الاثناء على موائد قد اصطف حولها هواة لعبة (الشطرنج) وسواها من الألعاب ... ثم لا أسمع أى صوت فيه معنى الخشونة أو العراك ، وكأن الناس كلهم يعيشون فى حلم سعيد ، لا يختصمون فيه ولاترتفع أصواتهم فى مخاطبة بعضهم بعضا ... بل لم أكن أسمع الا همسا فى مجتمع كمجتمع (ديزنى لاند) الذى يصطخب بآلاف الناس ، فما يتأثر مستوى الخلق والأدب بهذا الاصطخاب ، وما يرتفع الحوار فيه الى

صراخ كما قد يحدث فى بعض مجتمعاتنا ... وتلك ظاهرة من ظواهر الوعى ، كظاهرة الصقل والنظافة .. فانه رغم ذلك العدد الضخم من آلاف الناس يبدو البلاط والحى كله دائم اللمعان .. وكما لايتعذر الحصول على أعقاب سجائر أو أية فضلات حول المساجد الكريمة ـ فضلا عن الشوارع والطرقات فى بعض الجهات ! ـ يتعذر شيء كهذا هناك ، حيث يأتى حالا من يلمها وعلى عينيه نظارة أنيقة ، وبدلة بيضاء تحتوى جسمه الرشيق ، وفى يديه جهاز التنظيف المستمر ، وهو ان لم يكن طالبا فى الجامعة أستاذ فيها أو أى مستوى على هذا النحو ... يؤدى واجبه كما لو كان فى بيته لا كما يؤديه أشباهه بمنتهى الكسل ، والقذر ، واللؤم فى بعض الجهات !

وقد رصت لعب الأطفال ، ومنتوجات (هاواى) الأثرية التى يصنعونها لذكريات المسافرين ، ومتطلبات الرجال والنساء على (مباسط) تذكر بمباسط العيد فى جهات أخرى ، مع الفرق بين الفوضى والتنسيق ... وكأن الناس فى عيد مستمر بين أحضان (هونولولو) بل كأنهم يتنفسون الحب ويعيشونه كما لو كانوا فى عالم آخر بعيد عما تمور به أطراف الارض وزواياها من مشاكل وأحقاد .... !!!

ولقد ترددت كغيرى من رواد (هاواى) فى احتجاز مقاعد على طائرة صغيرة بمحركين ، لا تتسع لأكثر من عشرة ... ثم لم يطل ترددى ...

وكنا خليطا من المسافرين فى عدد من الطائرات المماثلة ، أقلعت اثر بعضها .. وذهبنا من بعد شروق الشمس الى مابعد مغربها فى طيران مستمر على الجزر السبعة التى يطلق عليها اسم (هاواى) أو (هونولولو) تغليبا لاسم العاصمة ... أو لأكبر الجزر ، وقد تخلل ذلك هبوط الطائرة فى احداها أو احداهن ظهرا لتناول وجبة الغذاء ، وأعقبتها جولة فى الجزيرة ، ثم واصلت الطائرة مسيرتها ، وكانت تهبط الى المستوى الكافى لرؤية ما هناك ... وتقترب بنا على نحو مخيف أحيانا الى أحضان الجبال التى تلوح شامخة يكسوها الشجر ... وتتسرب خلالها روافد المياه ... ومررنا بجزيرة (بيرل هاربور) التى كان لقصفها من اليابان فى الحرب العالمية الأخيرة دور رئيسى فى ختام هذه الحرب ، وذكرنى نمو العمران والصناعة فيها بمدينة (هيروشيما) التى زرتها قبل

أكثر من عشر سنوات ، فلقد أنشأها اليابانيون من جديد وبأروع مما كانت عليه قبل أن تتعرض لأول قنبلة ذرية فى العالم ردت بها أمريكا على قصف (بيرل هاربور) فيما عدا آثار دمار القنبلة التى احتفظوا بها لنظر السائحين فى معرض كبير .

كيف تقفز جهات فى دنيا التطور وتتسابق اليه ؟ وكيف تتعثر جهات أخرى فى تصريف الوحل ومياه أمطار قليلة ان هطلت بعد انقطاع طويل ... ؟

سبحان من قسم المعيشة ووزعها حظوظا متفاوتة على الناس وعلى مناطق الأرض ... وتبارك الله أحسن الخالقين ... تبارك من صور ، ويا أبدع ما صور ، هذه اللوحات الخضراء على كف عفريت البراكين التى كانت الجزر من بقاياها ، ومازال تتفجر من وقت لآخر فى البحر والبر .. ومع هذا يعيش الناس سعداء كالحالمين فى موكب مشرق كأنما هو موكب الخلود ....

وويل لهم اذا انتفض العفريت يوما ، وذهب الموكب الى أعماق المحيط ... أو الى حيث ألقت ..... !

الهرب من طوكيو !

يكفى لحجز مقعد أو أكثر على الطائرة فى العالم المتقدم ـ أو الأول كما يقال ـ أن يتم ذلك بواسطة الهاتف ، ثم يمضى المسافر إلى المطار قبل موعد الاقلاع بما لايزيد عن ساعة ، وهناك يدفع الثمن ويأخذ البطاقات ، ويذهب الى البوابة المحددة فى انتظار الدخول منها إلى الطائرة . . وفى بعض الولايات الأمريكية يتناول المسافرون بطاقات عفشهم من حامل « العفش » ويدفعه هو أمامه على عربة الى مكتب الشركة ليأخذ طريقه الى الطائرة . . وهكذا يشعر الانسان بكرامته وهو يتعامل مع الآخرين على هذا النحو ، وبأنه لايعانى أية متاعب كالتى يعانيها لقضاء متطلباته فى جهات أخرى . . فى الحل والترحال . .

فى الحل يطول الشرح . . ونحن فى ذكريات ترحال !

وفى الترحال لابد من قطع التذكرة أولا ومن تأكيد الحجز ـ الى المدينة من جدة مثلا ـ فى اليوم الذى قبل يوم السفر ثانيا ، ثم من تجديد تأكيد الحجز فى المطار قبل السفر بنحو ساعة ، وأخْذ بطاقة السفر التى يحتل بها المسافر مقعده فى الطائرة بعد شيء من « التدويخ » مع شيء من التعامل الفظ ـ أحيانا ـ فى هذه الأثناء !

وقيل ان فى المسافرين من يتأخر بدون اخطار ، ويظل المقعد على الطائرة شاغرا مع الحاجة اليه . . وهذا كأسلوب التعامل الفظ يمثل انعكاسات الوعى الضعيف الذى لايقدر مسئوليته تجاه نفسه أوالآخرين. . غير أن فى الامكان أن يقوى الضعف بايجاد عضلات له فى مواجهة المسئوليات .

فى الامكان أن تعلن الخطوط أن من لايخطرها عن تأخره قبل موعد السفر بثلاث ساعات على الأقل يعاقب بما لايزيد عن عشرة فى المائة من ثمن التذكرة ، ومن لايدفع العقوبة يعلن اسمه لمكاتب الخطوط كلها ليتقاضاها أىٌّ منها . . مقابل ايصال . .

إن هذا ـ أو ما اليه ـ قد يؤدى إلى الأكتفاء بالحجز لمرة واحدة ، وبواسطة الهاتف إذا اقتضت ذلك ظروف المسافر ، ودفع الثمن كالمعتاد أو فى المطار قبل موعد الاقلاع بما لايقل عن ساعة ، ويؤدى بالتالى الى المساهمة فى تحريك الوعى وتحويل « التدويخ » الذى يعانيه المسافر ـ على الأغلب ـ الى عضلات !

وإذا قيل ان العجز مازال حاصلا عن معرفة المقاعد الشاغرة فى كل رحلة فقد وجب أن يقضى على هذا العجز ماقضى على مثله فى جهات أخرى بأجهزة عقلية يعرفها أهل الخطوط . . أما الوعى فى سلوك الموظفين فله قصة طويلة . . وقد بَعُدْتُ كما يظهر عن جزر « هاواى » ! ويوم أردنا البعد عنها حجزنا كما أسلفت بالهاتف . . ومررنا بمكتب الشركة التى سنرحل على طائراتها مرورا عفويا ضمن جولة اليوم الأخير فى « هاواى » وجلسنا فى مواجهة موظفة المكتب ، أنا وابنى فارس الذى كان يحرص على أن يتكلم بلغة إنجليزية عالية وبصوت خفيض لاينقصه اللطف ، ثم قد لايحقق الغرض المقصود إلا إذا تدخلت أنا بلغة الدهماء !

وكان أمامها « جهاز الكترونى » بواسطته تأكدتْ من الحجز ، وبواسطته أعطتنا أرقام غرفنا فى الفندق الذى سنأوى إليه فى « طوكيو » وبواسطته أبلغت هى من يبلغ بعض الأصدقاء فى « طوكيو » عن حركتنا ، لتسهيل أمرنا هناك . . وتم كل هذا فى نحو عشر دقائق فحسب . . وفهمنا منها أننا سنغادر غداً « هاواى » فى الثانية عشر من ظهر يوم الجمعة ، ونصل الى « طوكيو » فى الساعة الثالثة والنصف بعد ظهر يوم السبت . . وكنت أعرف هذا التداخل الزمنى العجيب من قبل بين « طوكيو » و « هاواى » فقد رحلت ـ فى الماضى الوزارى القديم ! ـ من « طوكيو » ليلة السبت وبلغت « هاواى » ضحى يوم الجمعة الذى غربت شمسه فى اليابان ـ أى بعكس فى حاضر الذكريات ، أوماضيها القريب ـ وكان معى صديق ظريف (يرحمه الله) فسألنى عن الصلاة التى أداها فى يوم الجمعة فى طوكيو . هل يؤديها مرة أخرى فى هاواى ؟! قلت ـ وأنا أنظر اليه ضاحكا لمثل هذا الحساب الدقيق ـ نعم . .

وَيرِدُ الآن نفس السؤال عكسا ، فماذا سيكون من أمر الفريضة المستحقة يوم الجمعة بعد الانتقال فجأة من ظهرها فى « هاواى » الى ظهر يوم السبت فى « طوكيو » ؟ ولم أكن أدرى كيف سيتم هذا الانتقال ؟ غير أننا منذ تسلقنا الطائرة وتسلقتْ هى الجو كانت الشمس معنا باستمرار وبما لايقل عن سبع ساعات .

كيف تدور الشمس والقمر والأرض كما بدت لمن صعدوا إلى القمر أو لمن داروا فى الفضاء ؟ كيف تدور جميعا حول نفسها أو حول بعضها كأنما هى اطارات صغيرة فيما يبدو لنا مع أن أحجامها ـ لاسيما الشمس ـ شيء مخيف يتعذر تصوره ، ولكنا نؤمن بوجوده على نحو ماتذكره أرقام العلماء ، ثم لايؤمن الكافرون بوجود من ترمز اليه وإلى صنعته البارعة ملايين البلايين من تلك الاطارات ؟ .

إنهم يؤمنون بشيء موجود فى نظرهم ، لأن الرمز التافه إلى حقيقته الضخمة ـ وإن كانوا لايرون الحقيقة ذاتها ـ موجود فى شكل إطار الشمس الصغير الملتهب ، والقمر والنجوم ، أو فى حركتها الدائبة منذ كان الزمن وكان النظام و « الميزان » الدقيق الذى وضعت فيه . . ثم لايؤمنون بمن صنع كل هذا النظام و « الاطارات » ربما لأنه غير منظور ، مع وجود شيء اسمه الابصار التى لايفوتها مطلقا أن تشاهد تلك الرموز فى كل حين ، وأن تؤمن بداهة بمن هو فيها وخلفها كأقوى حقيقة تومىء إليها تلك الرموز . . ؟

كيف يمكن أن يكون منظورا بشيء من طراز أعيننا أوتخيلاتنا وهو ليس كمثله شيء ؟ وماترى الأعين الا شيئا له مثل ، كما لايمكن التخيل الا فى حدود المثل والمثال مهما اتسعت الحدود ؟ .

ثم كيف يحدث أى كفر به لو لم يرده هو . . ويحكم مايريد ؟

وصحوت من تأملات كهذه ومن ذكريات أحلام « هاواى » فى مطار « طوكيو » الجديد الذى كان مسرح حكاية طويلة من بعض فصولها مقاومة انشائه فى منطقة مكتظة بالسكان ، مع أننا قد بلغنا الفندق المحجوز لنا فيه فى « طوكيو » بعد أكثر من ساعتين من مغادرة منطقة المطار الجديد المكتظة فعلا بالسكان والعمران ، وقد امتد بكثافة واضحة على طول وأطراف درب المطار البعيد . . غير أن حركة المرور تزحف ، ولاتتوقف ، فيه وفى معظم شوارع « طوكيو » وقد احتالوا لتسهيل أمرها وتهوين مشقة الزحام باتخاذ الجسور وانشائها فوق بعضها على نحو مدهش قويم ، ثم بالنظام الدقيق الذى تخضع له الحركة .

أما الغلاء فحدِّث ولاحرج عنه فى « طوكيو » بل لعلها تضرب الرقم القياسى الأعلى فيه . . ولقد سقط الدولار من نحو (٢٢٠) ين يابانى كما كان قبل نحو عام إلى نحو (١٧٠) قبل نحو اربعة أشهر ، وارتفع فى نفس الوقت ثمن مالايزيد عن نحو كيلوين من العنب إلى نحو أربعين دولاراً أمريكيا .

ولقد ذهبنا فى جولة مع آخرين فى أطرافها . . استغرقت يوما ، وكانت ممتعة بكل أوبعض ماشهدناه من مظاهر الطبيعة ، ومن معالم التطـور الضخـم الـذى تعيشـه اليابان .

ثم لم يطل مقامنا بها ، فما أسلفت وحده قد يشجع على الهرب . . ؟

وشددنا الرحال إلى « هونج كونج » غير أننى سألتقط أنفاسى فى الصين الوطنية ، وقد تداخلت بينهما الرحلات وذكرياتها كتداخل الزمن بين « طوكيو » و « هاواى » .

تايوان .. ورأس الأفعى !

كانت جزر الصين الوطنية تسمى « فرموزا » ولها قصة طويلة مع الاحتلال اليابانى الذى انتهى بعد الحرب العالمية الثانية ، لتبدأ قصة كفاح طويلة أيضا من أحرار الصينيين الذين اتخذوا هذه الجزر مقرا يعتبرونه مؤقتا لهم ، وقد هربوا اليها من الصين الأم ، كما يسميها بعضهم ، ومن تعسف النظام الشيوعى ، وأقاموا حياتهم على أساس أنهم عائدون للصين الكبيرة التى لايقرون فيها ذلك النظام ، ولايعترفون بحكومته فيها . . وأطلقوا اسما جديدا على المنطقة هو « تاى وان » وعلى العاصمة هو « تايبيه » وكلاهما يرمز الى الحرية والوطنية بلغة أهل الصين . . وهى لغة أدهش لمحاولة اتقانها من غير أهلها ، كالصديق محمد خوقير القائم بأعمال السفارة السعودية هناك ، فقد قطع شوطا لابأس به فى محاولة كهذه ، وأخذ يتكلم بها قليلا ، حيث يبدو كمن اعوج لسانه ، أوكمن تنعكس على أفكاره وعربيته بعض آثار العجمة !

ولقد زرت الصين الوطنية من قبل ثلاثة عشر عاما . . وكان مستواها الحضارى يشبه ، الى حد ما ، مستواه فى مدينة كمدينة « جدة » أو «سنغافورة » حينذاك . . أما اليوم فانه لم يعد هناك وجه للشبه أوللتشابه بين بعض هذه المدن . . وبعضها الذى مازال يحبو ويتعثر بين الهدم والبناء . .

وزرتها يوم مات رئيسها الجنرال « تشيانج شيك » الذى كان عملاقا فى قيادة كفاح الصين الوطنية لبناء نفسها والتأهب ليوم العودة ، ولكنه ذهب قبل أن يأتى ذلك اليوم . . وما أزال أذكر نواح الصينيين الذين كانوا صفوفا على الطرقات والشوارع التى مر بها موكب جنازته . . يبكون زعيمهم من قلوب حزينة ، وعلى نحو مؤثر . . إلى حد أنهم أعدوا بين كل مسافة وأخرى على إمتداد الشوارع موائد فيها كل مالذ وطاب مما قد تهفو إليه روح الفقيد ، فيتناول شيئا منها ، وهو عابر سبيل بروحه على منطقة الصين ، ويتناول الباقى الآخرون ! !

وكانت الصين الوطنية تبدو حزينة فى تلك الأيام إلى حد لايطاق !

ولقد تطورت فى هذه الأثناء وقطعت شوطا بعيدا فى بناء عمرانها ، وجيشها ، واستعدادها العسكرى . . والمدنى بأنواعه وبطاقات كثيرة من العلميين والفنيين تستفيد منهم فى تطوير منطقتها ، وتساهم بهم على خدمات التطوير فى وجهات أخرى !

وهكذا قفزتْ إلى المقدمة فى الشرق الأقصى . . وكانت أمريكا تساندها فى هذه الاثناء . . عسكريا . . وسياسيا . . واقتصاديا .

وربما كان من عوامل الفساد أن تتضخم أرقام الجاليات فى بلاد كالصين أوغيرها باحتياجاتهم التى لايخفى وجه الخطر فى بعضها ، ويجر ذلك ـ على الأخص فى البيئات الضعيفة ـ إلى التحلل التدريجى من روادع الخلق والايمان !

وفى العام الماضى زرتها مع الاستاذين الصديقين السيدين على حافظ وياسين طه لمدة يومين قضيناهما فى فندق « جراند » الذى لم أشهد له نظيراً فى العالم بمثل طرازه الصينى الرائع المتين ، ولكن السيد ياسين كان له رأى آخر فى حصانة هذا الطراز ضد تقلبات الجو . . ويميل السيد على حافظ إلى رأيه مع بعض التحفظات ! !

وفى هذه المرة ، وأحسبها الرابعة ، صادفت زيارتى انسحاب الأمريكان منها ونقل التمثيل السياسى إلى الصين الأم ، وتقليص المساعدة بأنواعها تدريجيا . . إلى أضعف الايمان !

وكانت الزيارة بدعوة كريمة من سعادة السفير الصينى فى جدة ، بالنيابة عن سعادة الدكتور « كو » وهو رئيس مؤسسة شعبية مهمتها مكافحة الشيوعية إلى النفس الأخير . . ومناسبة الدعوة شعبية أيضا ، ولم أكن أعرف شيئا عنها ، فقد أتيحت لابطالها حرية تقرير المصير بعد أن وضعت الحرب العالمية الأخيرة أوزارها فى « كوريا » يوم ٢٣ فبراير ، فاختاروا الصين الوطنية مقراً لهم ، ورفضوا العودة إلى مناطق الشيوعية .

وفى الحفل الشعبى الذى أقامه الدكتور « كو » بهذه المناسبة كان خطابه بمثابة قنابل تتفجر فى صوته وحركاته . . وأرسل من وراء المنصة إشارات إلى بعض من كانوا فى بعض الصفوف التى ازدحمت بها مقاعد الحفل ، فهبوا وقوفا وصفق الحاضرون طويلا لهم إنهم من أولئك الذين اختاروا طريق الحرية فى « تاى وان » يوم ٢٣ فبراير قبل نحو خمسة وعشرين عاما . .

وانتهى الحفل بعد عدة خطابات تردد فيها عزف نغمات الحرية ، وعلاقات الشعوب ، وكفاح بعضها ضد المبادىء الجائرة كالشيوعية . .

وقد تضمن برنامج الاحتفال بهذه المناسبة عدة مشاهدات لمظاهر تطور الصين الحرة ، وعدة حفلات سخية لسائر الوفود الشعبية التى جاءت على مستويات مختلفه من الشرق والغرب ، ومن أفريقيا ، وأمريكا الشمالية والجنوبية ، وأوستراليا ـ تلبية للدعوة إلى هذا الحفل الذى يقام بهذه المناسبة كل عام . . وقد تلطف وزير الخارجية فدعانى والزملاء السعوديين الذين كانوا هناك ، لحفلة غداء خاصة بنا . . وخلال المحادثات التى دارت فيها وفى غيرها من اللقاءات ـ كنت أتلمس مشاعر الصينيين وأفكارهم بعد فعلة الأمريكان . . وانسحابهم ، وكنت أسمع مايقال عن تخوف بعضهم من غموض المستقبل ، وعن حماس بعضهم ضد الشيوعية الطاغية فى الصين الكبيرة ، وقد أخذت تلعب دوراً جديداً ـ فى نظر هؤلاء المتحمسين ـ تضحك فيه على لحى الأمريكان لينخدعوا . . وتبتلعهم الشيوعية فى عقر دارهم على المدى البعيد إذا لم يتفطن العالم الحر لهذه اللعبة وآثارها ، ويستعد لمقاومتها وللقضاء عليها قبل إستفحال الخطب . !

ويتبع هذا الحماس إصرار قوى منهم على أن لايقبلوا مفاوضة الصين الكبيرة التى نادت بها بعد فعلة الأمريكان ، بل نادت ببقاء الصين الحرة أوالوطنية كما هى عليه فى وضع كوضع « هونج كونج » دون أية مضايقة لها أومساس بالحكم الذاتى فيها ، وإنما تكون الراية واحدة لارايتين . .

ولكن الأحرار فى الصين الوطنية ـ أوبعضهم ـ يرفضون ذلك ولايقبلون المفاوضة إطلاقاً ، ويقول قائلهم :

لقد انسحبت جميع الحكومات من « تايبيه » باستثناء المملكة العربية السعودية ودول أودويلات قليلة فى طريقها إلى الانسحاب ، ولكننا لن نعترف إلا بأن تقطع رأس الأفعى ، أوتذهب آخر قطرة من دم آخر إنسان فى « تاى وان » ، وحرام ـ عندهم وعندى أيضا ـ أن لاتساهم الحكومات والشعوب الحرة فى القضاء على أفعى الشيوعية فى كل مكان . .

وجاءت فترة العطلة التى يحتفل الصينيون فيها بمناسبة بداية سنة قمرية عندهم تبدأ فى ٢٨ فبراير كل عام ، وأحسبها تتفق إلى حد ما مع سنة البروج المعروفة عندنا بالحمل . . والثور . . والجوزاء . . إلى آخرها . . ولم يكن يبدو عليهم أنهم يعانون أى

ظرف حرج وقد أخذوا ينهمكون فى الأسواق للتأهب لأيام العطلة التى تستمر ربما لأكثر من أسبوع . . وبادر الصديق محمد خوقير إلى تخزين كمية وافرة من الخبز لاستهلاكه خلال أيام العطلة التى يقفل فيها كل حانوت وكل مطعم . . إلاّ الفنادق وما إليها من المحلات !

وأخذت مظاهر العيد تتبرج فى « تايبيه » وأخذت أتهيأ للرحيل منها مع بداية عطلة العيد المذكور فى نفس الوقت الذى كان يتهيأ فيه نائب رئيس وزراء الصين الأم للرحيل إلى أمريكا لمعانقة « كارتر » !

بَلد العجَايبْ !!

« هونج كونج » بلد العجائب .. وما كنت أعرف عنها الا القليل يوم مررت بمطارها مع بعض زملاء المهنة حينذاك فى طريقنا الى اليابان .

كان هذا قبل خمسة عشر عاما .. وكنت أحملق من نوافذ الطائرة لأرى ما يسعنى أن أراه من « هونج كونج » .

كانت هناك جزر صغيرة تبدو كأنما هى مبعثرة فى البحر كيفما اتفق ، وسفن وقوارب تلوح من الجو كعلب « الساردين » أو كأية « معلبات » تطفو على الماء ، وعمران تطاولت فيه عمارات شاهقة بأحجام وصور مختلفه على الشواطىء وسفوح الجبال التى هى نهاية امتداد الصين الكبيرة .. المطلة على المحيط ، وقد انتشرت على سفوحها وقممها بيوت وشوارع .. وحركة كحركة الخلايا أو النمل .. وأخذت الطائرة ـ فى طريقها الى النزول ـ تقترب منها أو من بعضها ، وتمر بينها وبين طبقات السحاب . حتى اذا لامست الأرض أخذت كعادتها تجرى فى مطار يطوقه الماء الا من ناحية واحدة تشده الى اليابسة .. وتصورت معنى المخاطرة فى أى انحراف الى اليمين أو الى اليسار يذهب بالطائرة ومن فيها الى أعماق البحر ، كمعنى المخاطرة فى هبوطها بين قمم الجبال ، اذا ارتطمت ببعضها فى زحمة السحب والضباب .

ولقد وقعت من قبل ومن بعد عدة حوادث بمعنى المخاطرتين ، غير أنها لم ولن تمنع مرور الطائرات من « هونج كونج » واليها فى حركة دائبة تتفوق بها على أية جهة أخرى فى الشرق الأقصى ، فان حوادث الطيران كنظائرها مما تجرى به الأقدار فى حياة الناس ، ثم لا تمنعهم قط من مواصلة الحياة !

ودخلنا مبانى المطار مع الداخلين فى انتظار موالاة السفر بعد نصف ساعة قضيناها فى القاعات والأسواق المخصصة لحركة « الترانزيت » وما أضخمها حركة تجمع مئات من الناس يتجولون أو يبتاعون أو يستقرون على المقاعد بما فى أيديهم من حقائب وأطفال .. وكلهم فى انتظار أن يرحلوا على تغاير وجهاتهم ومنطلقاتهم واختلاف ألسنتهم وألوانهم ، وفى نفس كل منهم غاية وأحلام وآراء معينة لا يعرفها على حقيقتها

ولا يعرفهم على حقيقتهم الا من خلق .. والارض كلها بما فيها « هونج كونج » ومطارها ومحتوياتها شيء تافه مما خلق ..

وكنا نتأمل بعض ما هو معروض فى « السوق الحرة » كما يسمونها ، وهى قد تكون حرة بالفعل الا من غفلة « الزبون » ان هو جهل السعر واختلسه جمال العرض والعارضات !

وقالت احداهن فى محاولة اصطياد للغفلة :

ـ من أين انتم ؟

ـ احزرى .

ـ عرب ؟

ثم أضافت :

ـ ولكن من أين بالتحديد ؟

ـ احزرى أيضا

قالت : وهى تتجول فينا بعينيها الصغيرتين :

ـ من السعودية ؟

واستغربت أن تسبق السعودية الى خواطرها ، فأشارت الى البترول كما لو كان باديا على ملامحنا أو ملامح السعوديين أكثر مما يبدو على غيرهم من أهل البترول فى مناطقه الكثيرة .

وتذكرت (فيصل بن عبد العزيز) ـ يرحمه الله ـ فلقد وضعنا فى قمة عالية يوم أعلن موقفه الحاسم من قطع البترول أثناء المعركة التى كسبها العرب مع أعداء الخير والسلام .

ولقد أفاء الله علينا من الخير ومن البترول خارج الارض وباطنها ما أكسبنا شهرة واسعة نرجو أن نغنم حسناتها ، وأن نتفادى سيئاتها ، وأن تمضى مسيرتنا على جادة (الفيصل) إلى المحجة البيضاء .. لا يختلط ليلها بنهارها ، لئلا نبرح القمة العالية الا الى قمة أعلى ..

وصحوت من أفكارى ومن اغراء العرض الشيق فى السوق الحرة ـ على صوت المذيع يدعو الى الطائرة التى كانت تنتظر هناك فى مدرجها على المطار أو على لسان طويل يدور البحر حواليه .. ثم من فوقه جبال « هونج كونج » ولها قصة طويلة !

ثم أقلعت بنا الطائرة بعد « الترانزيت » بمطار « هونج كونـج » ثم عدت اليهـا مرارا .. وفى المرة التى قبل الأخيرة ، وفيا قبلها ، كان الزحام على أشده والى حد لا يطاق ، لاسيا والجو هناك حار أو يميل الى الحرارة فى الأغلب الأعم .

زحام عنيف يلتقى فيه الغرب والشرق والشمال والجنوب .. ويبـدو العالـم بأسره مصغرا أو مضغوطا على اختلاف الألسنة والألوان والأحجام والأزياء ـ فى « هونـج كونج » ويبلغ الزحام منتهاه فى وضح النهار .. فلا تكاد تمضى حركة الناس والسيارات فى الشوارع وفى محلاتها التجارية الا بشق الأنفس .. والأكتاف ، وفى الليل يصطخب الزحام فى مناطق معينة يرتادها طلاب السهر وعشاق برامجه المغرقة فى التحلل على اختلاف طواياه !

ولقد قضينا نحو خمسة أيام فى الفندق الذى حللنا به بعد حجز مسبق فيـه من « طوكيو » وكان لا يكره أن نبرحه كل يوم لما يعانيه من طلبات الحجـز وضغطهـا المستمر ، حتى ليرتاد بعض القادمين « علب الليل » لتمضية الوقت فيها ثم قد ينامون فى « صالات » الفنادق ، أو يعودون الى المطار ليسافروا بعد أن فشلوا كل الفشل فى الحصول على مأوى لهم فى « هونج كونج » رغم كثرة فنادقها ، فانها لا تكاد تخلو غرفة بها على اختلاف مستوياتها ، مما يؤكد ضرورة الحجز فيها قبل السفر اليها بما لا يقل عن أسبوع .. وقد أخذوا لفك اختناق الزحام على سطح الأرض يبنون تحت سطحها دورا متكاملا بمشروعات الطرق والأسواق ومستلزماتهـا ، وأحسبهـم سيفرغـون من انجازه ونقل حركة المرور والمحلات كلا أو بعضا اليه ـ فى أقل من عامين ، وبهذا كما أظن سوف يقضى على اختناق الزحام بعد توزيـع الحيـاة ومرافقهـا بـين السطـح والاعماق ..

وتذكرت اختناقا مماثلا أو لعله أشد وأنكى ، لاسيا فى المواسم ، على أبواب المسجد الحرام ... ولقد دار فى ذهنى ، وربما على لسانى من قبل ، أنه لابد من حل عاجل لمشكلة هذا الاختناق ، وما أحسبه سيتحقق الا بعبارات (بتشديد الباء) مؤقته ، على بعض أبواب المسجد ، وطبق أهمية الحركة واتجاهاتها .. تنقل الناس الى المسجد ومنه بعيدا عن حركة السيارات واختلاطهـم بهـا كما يجـرى على نحـو مزعـج مريـر .. ولا يتعارض هذا ـ كما أظن ـ مع أى مشروع رئيسى ينظم مرافق الحياة فى أقدس البقاع ، فانه سوف يستغرق لحساب الدراسـة والتنفيـذ بعدهـا زمنـا تؤدى خلالـه

« العبارات » مهمتها ، فالتكلفة مستهلكة فيما يستحق ، ثم قد يستفاد منها بعد فى مهمات أخرى مماثلة اذا روعى ذلك فى تصميمها من الفنيين ..

وأعود الى « هونج كونج » قادما اليها وفى المرة الاخيرة من الصين الوطنية فى بداية أعياد الصينيين بمناسبة رأس السنة عندهم .. وأمرُّ كالآخرين بموظفى الجوازات فى المطار ، ومعظمهم من الجنس اللطيف ، فقلبت احداهن أوراق جوازى ، وتأملت الصورة التى فيه وتأملتنى ، ولم يكن عليه ما يسمى « فيزا » أو تأشيرة دخول ، وهم فى « هونج كونج » وفى كل أو معظم مناطق الشرق الاقصى - باستثناء الشيوعية منها - يتسامحون فى اعطاء تأشيرة دخول لمن لم يحصل عليها من قبل ، ولأمد محدود من الممكن تمديده ، فيما بعد ان طابت الاقامة له فى تلك الديار .. وقد تبينت فيما بعد أنها منحتنى تأشيرة دخول مفتوحة من الممكن أن أظل بها الى الابد فى « هونج كونج » لا سمح الله !

انها - كما أسلفت - بلد العجائب .. وما أكثر ما سمعت عن حوادث الجريمة فيها من القتل الى السرقة الى الاختطاف ، وعن خلل الأمن والأمان خاصة اذا جن الليل .. ويتحدثون عن أوكار المؤتمرات والعصابات والتهريب والمهربين .. الى آخر ما قد يصد النفس عن ارتياد « هونج كونج » الا بمنتهى الحذر والاحتياط ، وكلاهما مطلوب للمسافر اجمالا ، فما يخلو أى بلد فى العالم من دواعيهما .. خاصة من الغرباء !

ومما لاشك فيه أنها سوق حرة مفتوحة للتعامل التجارى ، غير أنه من المهم اتقان خطة التعامل ، فان المحلات التى لا مجال للمساومة فيها أقلية محدودة ، على أنها قد تتسامح فى التخفيض بنسب متفاوتة على ضوء كمية المشتريات .. أما الاكثرية الساحقة فالمهارة فى مساومتها قد تهبط بقيمة الشىء الى النصف أو الى ما دونه .. هذا مع ضرورة الفحص والتدقيق لتفادى الغش ومهارة التقليد التى برع فيها أهل « هونج كونج » الى حد بعيد ..

انهم يستوردون من أوربا ومن أمريكا ومن اليابان .. ثم يقلدون ما يستوردونه فى الحال ، وقد يخفى الفرق بين الأصل والتقليد ، أولا يبدو هاما ، ولكنه فى الواقع هام ربما يخفيه سر الصنعة التى برعوا فيها .. ولا أحتاج أن أقول : انهم صينيون ينتسبون للصين الكبيرة كانتساب الجزر اليها بأسلوب فريد كما أظن ، فهى مستعمرة بريطانية منذ كان الانجليز سادة البحار ..

وتصحو هذه الجزر وتنام فى أحضان امتداد الصين الكبيرة المطلة على المحيط بمدينة صغيرة تسمى « كولون » وهى ضرورية لحياة الجزر، كضرورة الجزر لحيائها، بل وللحياة فى الصين كلها، منذ كانت مغلقة على نفسها، وكانت الرئة الوحيدة التى تتنفس بها ومنها هى « هونج كونج » عن طريقها تنتقل المواد التجارية من الصين الى العالم ومن العالم اليها، ولهذا لم تمانع الصين فى تأجير « كولون » على الانجليز لمدة تزيد عن مائة وعشرين عاما، وقد ذهب معظمها، ولم يبق الا نحو خمسة عشر عاما من مدة الايجار.

وأحسب أن ادارتها تكلف الانجليز بعض المتاعب لأسباب مختلفة لعل فى مقدمتها وعورة الصينيين، حتى ليصهرون الاستعمار ولا يصهرهم، رغم انه حقق الكثير من انجازات حضارية لا يستهان بها هناك.

ويذكر بعض الرواة أن الانجليز قد لا يكرهون الخلاص من « كولون » وأنهم فى عهد حكومة « ويلسن » تحدثوا الى الصينيين عن رغبتهم فى الخلاص منها بقية المدة المقررة للايجار ـ ربما مع التسامح فى بقية الأجرة ـ ولكن الصينيين رفضوا ذلك لانها اذا استعادوها ستعود مغلقة ككل ما وراء أسوار الصين، فكيف يرتضون الخلاص من رئة مثلها تعطيهم الحياة ؟!

وهكذا أطلق اسم (هونج كونج » على الجزر وعلى « كولون » معا، وغدت مستعمرة .. بعضها وهو الجزر بحكم وضع اليد، وبعضها الآخر وهو « كولون » مستعمر بالايجار!

انها المستعمرة الوحيدة من نوعها فى درة « التاج البريطانى » يوم كان!

بين سنغافورا وهونج كونج

منذ أكثر من عام كان « الثلاثى الخشن » السادة الأصدقاء على حافظ ويسن طه وأنا فى رحلة مررنا بها على بعض مناطق الشرق الاقصى ، ولقد تحدث فأشبع الحديث عنها أكبرهم وأنشطهم فى الحركة واجمالا فى حب وممارسة الحياة !

وكانت « سنغافورا » فى مقدمة ما مررنا به مرور الكرام ، حتى لقد ضاع ثوب أحدنا فى الفندق الذى ارتفقناه ، ففضل التسامح فى الثوب المفقود مع شىء غير قليل من « النزّ » عايشناه قبل التسامح وبعده .. ربما الى اليوم !

وكنا محظوظين بمصادفة أعياد رأس السنة الصينية فى « سنغافورا » وكان السيد على حافظ حريصا على شراء « بدلة » أو أكثر مما يطلق عليه اسم « سفارى » ـ بالسين أو بالصادر ـ اذ يراه كالكثيرين ملائما لجو « سنغافورا » وهو حار دائما لانها ـ كما هو معروف ـ على خط الاستواء ، ولكنه رطب يحرك الانتعاش منذ كانت السماء غائمة أو ممطرة فى الأغلب الأعم .. وجزر « سنغافورا » كلها خضراء يتخللها عمران نظيف مصقول يحترم الناس واقعه ، ومن ورائهم عقوبة تنال كلِ من يلقى بعقب سيجارة أو ما اليه فى الشارع بنحو بضعة عشر دولارا أمريكيا يتقاضاها منه الجندى المتربص لمثل هذه المخالفة فى الحال من غير تطويل أو « روتينيات » !

ويقال ان « سنغافورا » كسبت الدرجة الاولى كأنظف مدينة فى العالم بعد سباق عالمى لا أعرف تفاصيله ، ولكن مشاهداتى على تواضعها بين الشرق والغرب والولايات المتحدة تؤيد ما كسبتْه فى نتيجة السباق .

وأخذنا نبحث بهمة عن « السَّفارى » وعن متطلبات كل منا فى غمرة نشاط الأسواق وحركة الناس فيها قبل أن تقفل غدا بمناسبة تلك الأعياد ، وهى أسواق عامرة بكل شىء مستورد على الأكثر أو مصنوع على الأقل ، وتحتل بها « سنغافورا » مركزا تجاريا هاما لاسيا وأن ميناءها هو الثالث فى العالم كما يقال .

ولقد كانت يوم مررت بها منذ بضعة عشر عاما على نحو ما كانت عليه مدينة « جدة » فى تلك الأيام ! ويقال انها حققت تطورها المدهش بعد انفصالها عن « ماليزيا » التى كانت مندمجة فيها قبل ذاك تحت الاستعمار البريطانى .. وما ان تخلصت منه واتخذت شكل الاتحاد الاسلامى الذى اندمجت فيه مقاطعات « ماليزيا » بنظامها المعروف ضمن دول « الكومنولث » حتى تخلصت « سنغافورا » لأسباب مختلفه لعل من أهمها أنها لا ترتبط بديانة معينة فى دستور الحكم ، ولقد اجتهدت حكومتها بعد الانفصال لتطويرها على نحو ما تبدو فيه والى الأعلى دائما ، ويقدر الناس هناك جدها وكفاءتها واخلاصها فى العمل ، واستهداف الخير لصالحهم وصالح البلاد ، ويساعدها أهلها على ذلك بوعى طيب فى تصرفاتهم وفى احترام النظام ، وهى حكومة صينية الاصل كمعظم أهل « سنغافورا » فان أبناءها الاصليين يعتبرون قلة مغمورة بأحفاد الصينيين الذين يحتفظون فى « سنغافورا » وفى كل بلد يسكنونه بطابعهم ولغتهم الى جانب اللغة المحلية ، وبأعيادهم وعاداتهم .. وبأسلوبهم فى استهلاك ما يتنفس أولا يتنفس على البر والبحر ، بما فى ذلك القردة والخفاش والثعابين التى يصيدونها فى الغابات ، ثم يحجزونها فى أقفاص كالدجاج .. وعندما يهم أحدهم - وهو يبدو كالحنش ! - بذبحها بما فيها « الكوبرا » يضع يده فى رقبتها من خلفها كأى طائر وديع ، ويضغط فتفتح فاها ، وملؤه الموت ، ثم يحملها ويصب شيئا من الماء عليها ، كأنما ليغسلها قبل الاعدام .. ثم تضع مساعدته الصغيرة محل قبضته أنشوطة تعلقها بها مشنوقة فى الهواء الطلق ، وَتُعَقِّمُ خاصرة الثعبان قبل أن تشقها بمقص صغير تعقمه أيضا لتستخرج المرارة ، وينزف دم الثعبان فى وعاء أعد تحت المشنقة ليشرب به حارا من سيلتهم المرارة مع ما تيسر من الشراب ، باسم القوة وأغراضها ، وبثمن غير زهيد فى ميزان مستوى المعيشة هناك !

ويظل الثعبان يتلوى مشنوقا ، حتى اذا سكن أضيف مع أنداده الى المطبخ ، لاعداد وجبات مختلفه منها بعد الطهى فى المطاعم المختصة .. كأشهى ما يكون فى مذاقهم ، أو فيما تفوح به روائح الطهى من غير مذاق !

وما أطيل فى استطراد كهذا دعانى اليه عيد رأس السنة الصينية وقد صادفنا قبل عام فى « سنغافورا » ثم كنت محظوظا فى هذا العام بمشاهدة مولده فى « تايبيه » وتوقعت

أن لا أجده بنفس المزايا فى « هونج كونج » منذ كانت بلدا تجاريا لا يحتفل أهله بغير التجارة وادياتها ، ولا يقيمون وزنا لعطلة الاسبوع وسواها فى الأغلب الأعم !

ولكن الصينيين يقدسون - كما يبدو - أعياد رأس السنة عندهم ، ويحتفلون بها فى « هونج كونج » وسواها .. ولا أدرى ان كانت هناك منطقة فى العالم لم يشغلوا حيزا منها بالمطاعم وغيرها من مظاهر الكدح والنشاط ؟

وأعجبتنى « هونج كونج » فى العطلة وقد بدت غير مختنقه بالناس والسيارات كما عرفتها فى كل رحلة سبقت ، وبدت الأسواق خالية والمحلات مقفلة باستثناء ما يعد على الأصابع منها لرواد الخبز والفاكهة والطعام ، وهذا يغاير نظام العطلة الشاملة فى غيرها بدون استثناء الا الفنادق وما اليها من المحلات كما سبق أن تحدثت عن بداية العطلة فى « تايبيه » .. وأصبح الحصول على غرفة أو أكثر فى الفندق سهلا ميسورا فى الحال ، وهو فى غير العطلة من المستحيلات الا بعد الحجز وتأكيد الحجز.

لقد ذهب معظم الناس لقضاء عطلة العيد السنوى ، وهى نحو أسبوع ، فى الجزر وخارجها .. وأكثرهم يرتادون الصين الكبيرة التى فتحت أبوابها فى عهدها الجديد بعد موت رئيسها السابق واطلاق نائب رئيسها الحالى من سجنه ، وقد ظل فيه وقتا طويلا خلال ذلك العهد ، لأنه كان ينادى بفتح الأبواب ، ولقد فتحها بعد أن تسلم مقاليد السلطة ، حتى انتهى الى معانقة أمريكا .. وكارتر ! وقيل أنه أباح التملك الفردى وبناء العمارات والتَّدَاوُل التجارى على نحو ما ، وقد كان ذلك حراما فى العهد الماضى على أى نحو كان !

وأخذ النقل مجراه منها واليها جوا وبحرا ، وبالقطارات .. وتلاحق مرارا فى اليوم بينها وبين « هونج كونج » التى تعيش على مستورداتها من الصين ، وبالأخص فى مجال القوت ومواد الأثاث والكساء ، ولهذا يتدفق الناس اليها فى العطلات وغيرها بكميات ضخمة لتأمين احتياجاتهم ، وكان هذا لصالح الصين الكبيرة و« هونج كونج » معا ، وقد أخذت هذه تساهم فى تطوير الصين بواسطة الشركات التى ساهمت وماتزال فى تطوير « هونج كونج » فان حركة البناء والتعمير لا تكاد تتوقف أو تهدأ فيها ، منذ كانت مساحتها محدودة بنحو ألف ميل مربع ... بينما السكان نحو أربعة ملايين ونصف ، بالاضافة الى حركة السياحة التى لا تكاد تنقطع عنها أثناء الليل والنهار .. وهم لضيق المساحة يزيلون الجبال ويدفنون البحر ويربطون بينها وبين

بعضها بأنفاق ضخمة تحت البحر ، تعبرها السيارات بعد تأدية الرسم المقرر لتغطية تكلفتها ، ويكادون يفرغون من بناء آخر منطقة يبنونها الآن .. كانت بحرا ودفنوها وأشادوا بها عمرانا مدهشا لم يغفلوا فيه مواقف السيارات وميادين لسباق الخيول .. الى آخر ما يقوى ويزدان به العمران !

انها ـ كما أسلفت ـ بلد العجائب .. وقد يبدو أهلها كالشياطين ما بين بناء وغواص لبناء « هونج كونج » .

انهم كمعظم الصينيين من طراز عجيب فى العمل والكفاح .. حتى الفقراء منهم لا يتقاعسون عن طلب العيش من أيسر الطرق وأصعبها .. والى عهد قريب كان عدد ضخم من هؤلاء عبئا ثقيلا على « هونج كونج » وحكومتها ، حيث كانوا يهربون من الصين وتعاسة الحياة ، الى تعاسة أخرى فى « هونج كونج » ولكن لا تصادر حرياتهم فيها كما تصادر هناك ، فقد كانت كل عائلة منهم ـ ويقدرون بنحو خمسة آلاف عائلة ـ ترتفق قاربا فى البحر فيه يأكلون ويشربون وينامون ويتوالدون ويعيشون ويموتون ، ومنه أيضا يرتزقون باحتراف النقل بين شواطىء البحر ، وظلوا على هذا المنوال حتى أتاحت لهم الحكومة مساكن شعبية نعموا فيها بالاستقرار بعد معاناة طويلة للحياة .. بائسة على ظهر القوارب وفى البحار .

وأمضيت سبعة أيام اتأمل الدنيا حوالى فى شواطىء « هونج كونج » وعمرانها وشوارعها الخالية من زحام شديد فى غير العطلة ، وجبال الصين المطلة على محيط عميق صامت كالأبد .. وأضرب فى السيارة وعلى الأقدام بين أطراف بلد لا أدرى كيف ذكرنى بقصة « ألف ليلة وليلة » ومغامرات أبطالها بين شواطىء وبحار كنت أحلم بها يوم قرأتها فى بداية الشباب .. ثم لم أعد اليها ، وتمنيت أن أعيد قراءتها لأتبين مدى عشوائية خيالى .. أو مدى سلامته فى تصور علاقة ما بين بعض محتويات « ألف ليلة وليلة » وبعض محتويات « هونج كونج » !

● ● ●



فهـــرس



طبعت بمطابع دار البلاد ـ جدة